ختام الأوصياء

دراسة في إثبات
وجود الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وحياته

بقلم الشيخ
محمد رضا النعماني

ختام الأوصياء

بحوث في الإمامة وعصر الغيبة

ختام الأوصياء

بحوث في الإمامة وعصر الغيبة

دراسة في إثبات
وجود الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وحياته

بقلم الشيخ
محمد رضا النعماني

هوية الكتاب

* **اسم الكتاب:** ختام الأوصياء بحوث فِي الإمامة وعصر الغيبة

* **بقلم:** الشيخ محمّد رضا النعماني

* **الكمية : ٢٠٠٠ نسخة**

* **المطبعة:** مطبعة الضياء – النجف الأشرف

* **الطبعة:** الأولى ، ١٤٤٥ هـ – ٢٠٢٤م ، النجف الأشرف

٢/ ٢٤٦

ن ٦٨٢ النعماني، محمد رضا .

ختام الأوصياء.. بحوث في الإمامة وعصر الغيبة / محمد رضا النعماني .
ط١. – النجف
دار الضياء ، ٢٠٢٤.
٤٥١ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٩٧٨-٩٩٢٢-٧٣٤-٠٠-٢ :ISBN
١. المهدي المنتظر ، (عج) – الإمام الثاني عشر.
٢. الغيبة. ٣. الإسلام .
أ- العنوان
٨٢٨ / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٨٢٨) لسنة ٢٠٢٤م

ISBN 978-9922-734-00-2

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ

مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ

أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ

الصَّالِحُونَ﴾

صدق الله العلي العظيم

(سـورة الأنبياء/١٠٥)

الفهرست

الموضوع	ص
الفهرست	٧
المقدمة	١١
تمهيد	١٧
معرفة شخص الإمام عليه السلام	٢١
هوية الإمام عليه السلام ومعالم شخصيته	٢٣
أولاً: العلامات الخلقيّة	٢٤
النوع الأول: مواصفات خلقية...	٢٤
ثانياً: علامات خاصّة	٣٠
منها: إنّ المهدي عليه السلام من أهل البيت عليهم السلام	٣١
ومنها: المهدي عليه السلام من ولد فاطمة عليها السلام	٣٢
ومنها: إنّ المهدي عليه السلام من ذرية الحسين عليه السلام	٣٣
ثانيا: المعرفة العلميّة الشاملة	٣٤
أمّا أمور الدين فسنذكر بعضها على سبيل المثال	٣٥
معرفة الإمام جميع قوانين العلوم الماديَّة	٣٨
ثالثاً: معرفته لجميع لغات العالم	٥٠
رابعاً: معرفته للغات الكائنات	٥٥
خامساً: علمه بالغيب النسبي	٦٣

الموضوع	ص
سادساً: وراثته (ع) لجميع مواريث الأنبياء (ع)	١١١
علامات الظهور	١١٩
علامات لا علاقة لها بالظهور	١٢٩
إشراقات نبوية	١٣٠
إشراقات الإمامة	١٣٣
علامات تحققت وأخرى لم تزل	١٣٧
العلامات الكونية	١٤٩
١- كسوف الشمس وسط الشهر	١٤٩
٢- هدّة السماء	١٥٠
٣- ركود الشمس	١٥٠
٤- ظهور وجه ويد بارزة في القمر أو الشمس	١٥٠
٥- نار المشرق	١٥١
إشاعة ثقافة عصر الظهور	١٥٥
الحتمي والمتغيير	١٦٥
الدعاء وأهميته في تعجيل الظهور	١٧٣
أما بالنسبة للعلامات	١٧٦
أما العلامات (الحتمية) الداخلة ضمن الوعد الإلهي	١٧٩
أما العلامات ذات الطابع الاجتماعي والسياسي	١٨٠
نواة الجيش الأولى	٢٠٧
تهيئة الأجواء النفسية والعاطفية	٢١١
هل يتصل الإمام بقواعده في الغيبة الكبرى؟	٢١٦
أولاً: دوره الشامل	٢١٨
ثانيا: دوره الخاص	٢٢٣

الموضوع	ص
ثالثا: الدائرة الخاصة	٢٢٧
الظهور والتطور العلمي	٢٣١
الأدلة على وجود الإمام المهدي (عليه السلام)	٢٤٩
الدليل الأول: الدليل القرآني	٢٥٧
آية الإمامة وإمامة أهل البيت (عليهم السلام)	٢٦٧
علي وأولاده ورثة الإمامة	٣٠٥
الدليل الثاني: دليل الشهيد الصدر على إمامة المهدي(ع) ...	٣٣٢
الدليل الثالث: الإمام المهدي (عج) بين التواتر وحساب الاحتمال	٣٤٢
لماذا لم تباشر الإمامة دورها بعد وفاة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)؟	٣١٥
فلسفة الغيبة وأسبابها	٣٧٧
الغيبة الكبرى	٣٩٨
أسباب الغيبة	٤٠٣
أولاً: الخوف من القتل ومعناه	٤٠٣
ثانياً: ألا تكون في عنقه بيعة لأحد	٤١١
ثالثاً: فشل الاطروحات السياسيَّة والاقتصادية	٤١٥
كيف يتولى الإمام الإمامة؟	٤٢٥
لماذا لا يتدخل الإمام لحل مشاكل العالم؟	٤٤٠

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمدُ لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد واله الطاهرين

وبعد، فإنّ الكلام يكثُر دائماً عن الإمام المهدي عليه السلام وعجّل الله فرجه، إذ تتطلع إليه النفوس، وتتوق لرؤيته العيون، وتهفو إليه القلوب، لتتنسم منه عبق النبوّة والإمامة، لا سيّما وأن الظلم ومصادرة الحقوق بلغ مديات كبيرة، ضاقت منها النفوس، وعيل منها الصبر، ولم يبقَ لها إلّا عدله وحكمته وقيادته.

وفي الوقت نفسه الذي ازداد فيه عدد المتطلعين إليه، والمحبين له، نجد أن جبهة المنكرين له، والمشكّكين فيه قد كبرت وازدادت شراسة وقوة، فمن قائل: إنّ الإمامة أسطورة مبتدعة لا أصلَ ولا جذور لها، وأن كلّ ما يقال عن إمامة علي (عليهم السلام) وأولاده الطاهرين كذبة مبتدعة، اخترعها بعض العلماء، ودليلهم أنّ الإمامة لم تذكر في القرآن، على الرغم من أن علماء الشيعة يعدّونها أصلاً من أصول الدين!

ويقولون إنّ الأدلة التي تثبت (الإمامة) أدلة روائيَّة لا قيمة لها؛ لأنها كتبت في القرن الثالث الهجري، ولا تتصل بعصر الصحابة، وعليه فهي موضوعة، وبنظرهم لا قيمة لسند يروي فيه الإمام الصادق عن الباقر عن علي بن الحسين عن الحسن المجتبى عن علي عن النبي عليه وعليهم السلام؛ ولذلك لا يمكن إثبات الإمامة أو الإمام المهدي إلّا عن طريق صحيح البخاري أو مسلم وأمثالها.

ثمّ ما الأدلة القطعيَّة التي تثبت وجود الإمام المهدي، وولادته وحياته؟، ولماذا لا نشعر بوجوده وتأثيره في حياتنا، وحياة الأمّة الإسلاميَّة عمومـًا، فما فائدة إمام غائب لا يضرّ ولا ينفع؟ ،وأشياء كثيرة على هذا النحو يراد بها التشكيك بالإمامة والإمام عليه السلام .

وحين نتتبع تلك الشبهات نجدها خاوية لا سندَ لها ولا أساس، بل هي مجرد استبعادات وتصورات. بل إنّ بعضهم ألقى بجميع الأساطير والقصص الشاذّة أو المجهولة والساقطة عن الاعتبار، أو بعض الرؤى والأحلام على أنّها تمثل العقيدة واعدها جزءًا لا يتجزأ منها.

وعلى كلّ حال حاولتُ في هذا الكتاب أن أعطي رؤية واضحة، وإجابات مقنعة لمعظم الشبهات التي يلقيها بعضهم، وهي متداولة في بعض الكتب والمؤلفات القديمة والحديثة، أو مواقع التواصل

الاجتماعي. حاولتُ اعتماد البساطة في التناول، ووضوح الأفكار والردود، مستنداً إلى أهم المصادر القديمة الموثوقة والمعتبرة للعلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع.

وركّزتُ على أهمّ الشبهات التي يتداولها البعض عن سبب الغيبة، ولماذا لا نرى الإمام أو نحس بوجوده، ولماذا يخاف القتل وهو أشجع الناس، وأمثال تلك الشبهات، ثمّ ركّزت على ما هو معروف من أن من الممكن أن يكون ظهور الإمام مفاجئـاً، فكيف يمكن أن نتعرف على شخصه بالذات، وما هي صفاته ومواصفاته التي يمكن أن نستدل بها عليه، ولو بنحو الدلالة الإرشاديَّة لا اليقينيَّة.

ثمّ انتقلت إلى العلامات الحدّية التي توجب اليقين به، كإحاطته بجميع العلوم، أو علمه بالغيب، أو لغات العالم، أو وراثته لعلوم الأنبياء وأمثال ذلك، ثمّ تناولَ الكتابُ علاماتِ الظهور معتمداً على المنهج الروائي والعقلاني بعيداً عن المبالغة الزائدة، ومستنداً إلى منطقيَّة الأحداث وأهمية بعضها لإثبات عقيدة الإمامة وأوان الظهور.

وأكّدتُ على أهمية الدعاء على أنه أساس مهم لتعجيل الظهور بناءً على أنّ الظهور المبارك قد يكون بشكل مفاجئ، إما بحذف أكثر العلامات غير الحتمية، أوتسريع الأحداث وتواليها بما يختصر زمن الغيبة ومدتها.

وتعرّض الكتاب إلى موضوع مهم وهو: هل يتصل الإمام بقواعده في عصر الغيبة؟ وما الفئات والعناصر المؤهّلة والمنتخبة لذلك طبقاً للنصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

ومن العناصر المهمة التي تحتاج إلى بيان هو ما يطرح دائماً: هل سيكون الظهور المبارك في عصر التقدّم التكنولوجي والتقني، أم في عصر البداوة والرعي، وهل سترقى دولة أهل البيت بالمعرفة الإنسانيَّة والعلميَّة إلى أرقى المستويات التي لم تعهدها في تأريخها؟

كان هذا الموضوع بحاجة إلى إجابة واضحة وصحيحة، وقد حاولتُ ذلك بما يدفع الشكّ والوهم.

ومن أهم الموضوعات التي تناولها الكتاب، الأدلة التي تثبت (الإمامة) كعقيدة تستند إلى القرآن بشكل قاطع، وإثبات ولادة الإمام(عليه السلام) وحياته بما لا يقبل الشكّ، استناداً إلى منهج أهل البيت(عليهم السلام)، وكذلك استناداً إلى المنهج الروائي الذي يعتمد على التواتر الذي يؤدّي إلى اليقين، وكذلك اعتماداً على الدليل الاستقرائي الذي يورث القطع بالنتيجة.

ولعلّ من الموضوعات التي تستحق البحث لحاجة الناس إلى فهمها، ومعرفة أبعادها: موضوع الغيبة وأسبابها وفلسفتها، وهل هي

منسجمة مع منطق الدين والعقل؟ إن هذا الموضوع بحاجة إلى تفسير وتبيين يزيل ما في نفوس البعض من شكّ، والمشاهد أن بعض المنكرين لوجود الإمام المهدي (عليه السلام) يتخذونها ذريعة لتضليل الناس، وتشكيكهم بالمهدي (عليه السلام) معتمدين على الاستغراب والاستبعاد الذي لا يستند إلى دليل شرعي أو عقلي أو علمي.

وتعرض الكتاب إلى موضوعات أخرى تتعلق بالإمام المهدي(عليه السلام) وغيبته، حاولت أن أبحث كلّ ذلك ببساطة ووضوح على ضوء عقيدتنا بالإمامة والإمام (عليه السلام) متوخياً أن تتجلى العقيدة به ناصعة مشرقة بلا غموض أو إبهام بما يحصّن شبابنا من الوقوع في الشك والشبهات التي يروجها أعداء العقيدة في وسائل التواصل أو المواقع وأمثال ذلك.

أسألُ الله تعالى لنا وللمؤمنين الثبات واليقين بكتاب الله المنزل، وهدي رسول الله وعترته الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

محمّد رضا النعماني

تمهيد:

نصّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على أنّ الخلفاء من بعده اثنا عشر، وذكر لهم مواصفات متعدّدة وعلامات خاصَّة، بل ذكرهم بأسمائهم وألقابهم.

ونحن هنا نبحث الموضوع على أساس رؤيتنا العقائديَّة، القائمة على الدليل، والقائلة: إنَّ الإمام (محمّد بن الحسن العسكري) الذي بشّر به رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، هو الذي سيملأ الأرض قسطًا وعدلاً، ويقيم دولة العدل الإلهي التي ستحقق أسمى أشكال العدالة، وأجمل آمال وتطلعات الإنسانيَّة.

والسؤال الأهم في هذا الموضوع وكمدخل للبحث هو: كيف يمكن أن نعرف شخص الإمام (عليه السلام) وأن الذي ظهر هو الذي وعدنا القرآن به، وأنه سيرث الأرض؟

هذا السؤال على الرغم من بساطته يحتاج إلى إجابة وافية استناداً إلى الروايات التي تتحدّث عن علامات الظهور وما فيها من غموض وإبهام، أو متناقضات أو تضادات، أو أسماء وأماكن لا تعرف، وأشياء كثيرة لا يعرف لها أساس.

وإذا ما أردنا أن نتعامل معها على وفق علم الحديث فإنَّ بعضها يصح بلا ريب وبعضها معتبر، وبعضها ضعيف سنداً أو مقطوع أو مرسل لا يعتمد عليه ولا يؤخذ به، ولكنها تؤلّف في النهاية تواتراً يفيد العلم.

ونجد في زماننا هذا كثيراً من الكتب والأبحاث التي عنيت بدراسة علامات الظهور وتحقيق دلالات الروايات وتفسير العلامات، لقد أحسن بعضهم فيما كتب، وأساء بعضهم الآخر حينما أسقط فهمه وتصوراته على النص، وفسّره طبقاً لبعض الأحداث والوقائع بحيث يتخيل القارئ أن الإمام سيخرج غداً، ثمّ ما يلبث أن يغيّر رأيه تبعاً لتغيّر الأحداث فيجعل للظهور مدى آخرَ وهكذا.

وهذا المنهج أثَّر وسيؤثّر سلباً على أسس العقيدة بالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) ويجعلها في مهب النقاشات العقيمة، ويزرع الشكّ والريبة فيها.

وفي هذا البحث نحاولُ أن نرسم أبعاد الخط الذي وضعه أهل بيت النبوّة في كيفية التعامل مع عصر الغيبة، ومع الإمام الغائب ومعالم شخصيّته، ومع العلامات عموماً وعلامات الظهور بالخصوص، وعلامات المدّة الزمنية التي تسبق الظهور أو تقترن به.

ومن الأمور التي يجب أن تكون واضحة للجميع أنّه بحسب النصوص الواردة عن أهل البيت(عليهم السلام) أن الظهور المبارك يمكن أن يتحقق بأحد نحوين:

الأول: أن يكون بحسب تسلسل العلامات الواردة عنهم (عليهم السلام) سواء العلامات الكونية أو التغيرات الاجتماعيَّة والسياسيَّة وأمثال ذلك.

الثاني: أن يكون الظهور مفاجئًا، وبحسب لسان الروايات الواردة عن النبي (صلى الله عليه وآله): "المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة" وفي بعضها: أن أمري لفجأة.

من هنا يجب أن نرسّخ هذا المفهوم في قلوبنا كي لا يدخل الشكّ فيها إنْ ظهر الإمام (عليه السلام) من دون تحقق بعض العلامات التي نتصوّر أنَّها حتميّة ولا بدَّ من وقوعها، فتحصل ردة سببها جهلنا بواقع الظهور، وفي بحث علامات الظهور، سوف نبحث ذلك بشكل موضوعي وواضح بعيداً عن الافتراضات والتصوّرات.

ولكن قبل ذلك يجب أن نحيط بمنهج أهل البيت (عليهم السلام) في التعرّف على (شخص) الإمام (عليه السلام) بعد ظهوره؛ لأنّ أغلب العلامات الواردة تشير غالبًا إلى انتهاء مرحلة الغيبة، فإن تحقق الظهور المفاجئ فكيف يمكن أن نعرف أن الذي ظهر هو الإمام المهدي الموعود؟؛ لأنَّ العلامات لا تعرّف بشخص الإمام وشكله بل بانتهاء غيبته.

لا شكّ أننا لا نعرف شخص الإمام بسبب أنّ الإمام (عليه السلام) استلم الإمامة عام (٢٦٠) هـ بعد شهادة الإمام العسكري (عليه السلام)، ثمّ بدأت الغيبة الصغرى ثمّ الكبرى، التي غاب فيها شخصه (عليه السلام)، وعليه كيف نتعرّف عليه لو ظهر بعد إذن الله تعالى؟

هنا مجموعة من الروايات التي تتحدّث عن أهم المواصفات والعلامات الشخصيَّة التي يمكن أن تحدّد شخصيته، أو تشير إليه بوضوح، وهي عنهم (عليهم السلام) ليس اعتباطا بلا غاية، بل يراد بها رسم بعض معالم شخص الإمام، وقد عنونتها باسم (معرفة شخص الإمام) وهي كالآتي.

معرفة شخص الإمام (عليه السلام)

أولاً: العلامات الخلقية .

ثانياً: المعرفة العلميَّة التخصصية الشاملة .

ثالثاً: معرفته لجميع لغات العالم .

رابعاً: معرفته للغات الكائنات .

خامساً: علمه بالغيب النسبي .

سادساً: وراثته لجميع مواريث الأنبياء .

هوية الإمام (عليه السلام) ومعالم شخصيته:

لو افترضنا أنَّ العلاماتِ المرويَّة لم تنقل لنا بشكل صحيح، أو أنّ بعضها أو أكثرها اتّسم بالرمزيَّة، بحيث تقصر عقولنا عن إدراك معناها الحقيقي، ثمّ ظهر الإمام (عليه السلام) بناءً على مسلك أنّ الله تعالى يصلح أمره في ليلة على وفق رواية الإمام الباقر (عليه السلام)، حيث قال: "يصلح الله عز وجل أمره في ليلة واحدة..."(١).

وفي النصّ الوارد عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): "يخرج على حين غفلة من الناس..."(٢)، وسنتعرض لذلك في موضوع علامات الظهور.

وفي هذا الفرض يكون من الواجب على الإمام (عليه السلام) أنْ يثبت للناس هويته وإمامته بشكل يقطع الشكّ باليقين عن طريق الدلائل الدينيَّة والعلميَّة، ومع ذلك فإنّ هناك عددًا من الدلائل والأدلّة التي تثبت هوية الإمام، وقد يكون بعضها يُوجب اليقين، وبعضها يورث الظنّ بحسب إيمان المتلقي وثقافته، وهي كالآتي:

---

(١) غيبة النعماني / ٢٣١

(٢) نفس المصدر

أولاً: العلامات الخَلقيَّة

هناك نصوص تشير إلى علامات خَلقيَّة وخصائص يختلف بها عن معظم الناس، فإذا ثبت أنَّ المعصومين (عليهم السلام) قبله ذكروها وأخبرونا بها قبل خلق الإمام (عليه السلام)، ثمّ رأيناها بالدقة نفسها والشكل والمواصفات، نكون قد تحققنا من معرفة شخص الإمام بدرجة ما.

والسؤال عن ماهية العلامات وشكلها؟، والجواب: أنّ **العلامات والمواصفات الشخصية** على نوعين:

النوع الأول: مواصفات خَلقيَّة تتحدّث عن شكله وطوله ولون بشرته وأمثال ذلك، منها: ما جاء عن أبي وائل قال: "نظر أمير المؤمنين علي (عليه السلام) إلى الحسين (عليه السلام) فقال: "إنَّ ابني هذا سيد كما سمّاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) سيداً، وسيخرج من صلبه رجلاً باسم نبيكم، يشبهه في الخَلق والخُلق. يخرج على حين غفلة من الناس، وإماتة للحقّ، وإظهار للجور، ووالله لو لم يخرج لضربت عنقه، يفرح بخروجه أهل السماوات وسكّانها. وهو رجل أجلى الجبين، أقنى الأنف، ضخم البطن، أزيل الفخذين، بخده اليمنى شامة، أفلج الثنايا، ويملأ الأرض عدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً"[1].

---

(١) غيبة النعماني / ٢٢٢

توضيح:

"القنا في الأنف طوله ودقة أرنبته مع حَدَب في وسطه. وأزيل الفخذين: كناية عن أنّهما عريضتين، وأفلج الثنايا: انفراجهما"[١].

ومنها ما ورد عن حمران بن أعين قال: "قلت لأبي جعفر الباقر (عليه السلام): جُعلت فداك إنّي دخلت المدينة وفي حقوي هميان فيه ألف دينار، وقد أعطيت الله عهدا أنّني أنفقها ببابك دينارا دينارا، أو تجيبني فيما سألتك عنه. فقال: يا حمران سل. نجب ولا تنفقنَّ دنانيرك. فقلتُ: سألتك بقرابتك من رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنت صاحب هذا الأمر والقائم به؟، قال: لا، قلت: فمن هو بأبي أنت وأمي؟، فقال: ذاك المشرّب حمرة، الغائر العينين، المُشرف الحاجبين، العريض ما بين المنكبين، برأسه حزاز، وبوجهه أثر، رحم الله موسى"[٢].

قد يقتنع البعض بهذه العلامات الخَلقية ويحصل له ظنّ يفيد الاطمئنان، أو قد يحصل له القطع. أو قد لا يفيد ذلك علمًا، وهناك تحديد أدقُّ بالنسبة إلى العلامات الخَلقية تضيّق من دائرة التشابه بينه(عليه السلام) وبين غيره ممن قد يشترك معه في بعض تلك العلامات منها:

---

(١) غيبة النعماني / ٢٢٢

(٢) المصدر السابق / ٢٢٣

ما جاء عن أبي بصير قال: "قال أبو جعفر (عليه السلام) أو أبو عبد الله(عليه السلام) -الشكّ من ابن عصام- يا أبا محمّد، بالقائم علامتان: شامة في رأسه وداء الحزاز برأسه، وشامة بين كتفيه، من جانبه الأيسر تحت كتفه الأيسر، ورقة مثل ورق الآس"(١).

وفي بعض الروايات تحديد للون الشامة وشكلها، فعن أمير المؤمنين(عليه السلام) قال: "يخرج رجل من ولدي في آخر الزمان أبيض مشرب حمرة، مبدح البطن، عريض الفخذين، عظيم مشاش المنكبين، بظهره شامتان، شامة على لون جلده، وشامة على شبه شامة النبيّ (صلى الله عليه وآله)"(٢).

وهذه النصوص وإنْ كانت لا تُحدّد بالدقّة شخص الإمام (عليه السلام) -إلّا أنّها على فرض ثبوتها- تضيّق دائرة التشخيص؛ لأنّ بعض الناس قد يكون له شامة أو أكثر، ولكن كونها "تحت كتفه الأيسر" تضيّق الدائرة أكثر. وكونها "مثل ورقة الآس" وأنّها من لون جلده تضيّقها إلى درجة أشدّ.

---

(١) غيبة النعماني / ٢٢٤

(٢) كمال الدين ج٢ / ٦٥٣

وهناك علامات وأوصاف أخرى جاءت بها النصوص يمكن أنْ نتعامل معها بالمنطق نفسه، ولا نعدّها علامات حدّية، بل هي علامات مُشيرة، قد تورث العلم وقد لا. ومن أراد المزيد من هذه الروايات فليراجع الكتب الموسوعيَّة المتخصّصة في هذا المجال.

لا شكّ أنّ لذكر هذه العلامات فائدة كبيرة ومصلحة قد لا تسمح لنا المرحلة الراهنة فهم مغازيها بشكل كامل، نعم قد تتبين بعض حكمها في قطع الطريق على بعض المنتحلين والمصلحيين المزيفين الذين يحلو لهم انتحال شخصيّة الإمام (عليه السلام) لمصالح دنيويَّة.

وليس هذا المنطق ببعيد فإنّنا لو لحظنا النصوص بدقة وموضوعيَّة نجد مثلا أنّ الإمام توصف والدته القدّيسة الطاهرة أنَّها (أمّة)، ويذكر هذا الوصف كثيرا في زياراته أو التعريف به، وكذلك توصف أنَّها (سبيّة).

وقد يسأل بعضهم عن السبب الذي يؤكد عليه أهل البيت (عليهم السلام) بأنّ والدة الإمام المهدي (عليه السلام) (أَمة)، هل لذلك فائدة معتبرة، ثمّ أليس العكس أفضل وهو ختام الوصيين وبقيةّ الله في أرضه؟

بل نجد الإمام الباقر (عليه السلام) يؤكِّد هذا المعنى بقوله: "إنَّ صاحب هذا الأمر فيه شبه من يوسف، ابن أَمَة سوداء، يصلح الله عز وجل أمره في

ليلة واحدة"[١]. وكذلك ما جاء عن عبد الرحيم القصير قال: " قلت لأبي جعفر (عليه السلام) قول أمير المؤمنين (عليه السلام) (بأبي ابن خير الإماء) أهي فاطمة؟ فقال: إنَّ فاطمة خير الحرائر، ذاك المبدّح بطنه، المُشرب حمرة، رحم الله فلاناً"[٢].

وقد يُقال ما فائدة ذكر ذلك، أو تأثيره في تحديد هوية الإمام (عليه السلام) أو فائدته في حركة الظهور المقدس؟

والحقيقة كان لذلك عظيم الأثر في صون خطِّ الإمامة من الاستغلال، ومنع تقمّص شخص الإمام من المدّعين سواء أكان في زمن صدور النص أم في زماننا هذا؛ لأنّنا نلحظ عددا من أولاد الأئمة أو إخوانهم، أو من بني العباس، حاولوا تقمّص شخصية الإمام المهدي طلبا للزعامَّة والشهرة والسلطان الدنيوي، فكان هذا الأسلوب نوعا من الردع، وذلك بالتأكيد على أنّ أمّه الكريمة كانت (أَمَة سوداء). وليس في ذلك عيب؛ لأنَّ يوسف الصديق (عليه السلام) كانت أمّه كذلك، وقد حباه الله تعالى جمالاً خارقا، وكذلك إمامنا الحجّة (عليه السلام) سيكون في غاية الجمال والبهاء على وفق ما وصفته الروايات.

---

(١) كمال الدين ج٢/ ٢٣٣

(٢) المصدر السابق/ ٢٣٤

وقد أسقط هذا الوصف وغيره من الأوصاف دعاوى المدّعين وأبطل حججهم وصدهم عن ادعاء المهدوية المنتسبة إلى الإمام الحسين(عليه السلام)، فقد ورد عن يزيد بن أبي حازم قال: "خرجت من الكوفة، فلّما قدمتُ المدينة دخلتُ على أبي عبد الله (عليه السلام) فسلّمت عليه، فسألني هل صحبك أحد؟ فقلت: نعم. فقال: أكنتم تتكلمون؟، قلت: نعم، صحبني رجل من المغيرية[1]، قال: فما كان يقول؟، قلت: كان يزعم أنَّ محمّد بن عبد الله هو القائم والدليل على ذلك أنّ اسمه اسم النبي (صلى الله عليه وآله) واسم أبيه اسم أبي النبي (صلى الله عليه وآله).

فقلت له في الجواب: إنْ كنت تأخذ بالأسماء، فهو ذا في ولد الحسين(عليه السلام) محمّد بن عبد الله بن علي، فقال لي: إنّ هذا ابن أَمَة – يعني محمّد بن عبد الله بن علي– وهذا ابن مهيرة، يعني محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن. فقال لي أبو عبد الله (عليه السلام) فما رددت عليه؟، فقلت: ما كان عندي شيء أردّ عليه، فقال لي: أولم تعلموا أنّه ابن سبية – يعني القائم(عليه السلام)"[2].

---

(١) هم أصحاب المغيرة بن سعد الكذاب الذي كان يكذب على الإمام محمّد بن علي الباقر(عليه السلام).

(٢) كمال الدين ج٢/ ٢٣٥.

وإذا عرضنا أهمّ الأمثلة لمثل ما تقدّم فسيطول البحث، وأنا هنا ملتزم بالاختصار؛ لأنَّ الغاية هي بيان أهمية هذه العلامات في تحديد هوية الإمام (عليه السلام) وإبطال دعاوى المدّعين والمنحرفين، ولاسيَّما أنّنا نجد بعض الغموض فيما يتعلّق بمسألة المصلح الأعظم (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) حتى في الأوساط التي تؤمن بخطّ الإمامة والوصية، فهذا مثلاً حمران بن أعين وهو من خواص الأئمة يعاني من الغموض، ولا يدري من هو الإمام المنتظر، هل هو الباقر (عليه السلام) أم إمام آخر؟.

ونرى الإمام الباقر (عليه السلام) يُحدد له الموقف الصحيح ويذكر له مواصفات خَلقيَّة لا تتوافر فيه، ويذكر له من العلامات على وفق ما تقدَّم.

ومن الطبيعي أن يكون الحال أسوأ -في زماننا هذا- من ناحية الغموض بين أوساط الأمّة في تحديد معالم شخصية الإمام (عليه السلام)، فكان من الضروري أن يكون لكلّ مرحلة من مراحل مسيرة الإمامة ما يثبّت قواعدها، أو يدفع الشبهات عنها. وتأتي بعض العلامات الخَلقيَّة لتحديد بعض خصوصيات الإمام (عجّل الله تعالى فرجه الشريف).

ثانيًا: علامات خاصَّة: علامات ومواصفات خاصَّة لا تنطبق على كثيرين، غايتها تضييق دائرة المصاديق فيمن يُحتمل أنَّه الإمام المنتظر (عليه السلام).

منها: أنّ المهدي من أهل البيت (عليهم السلام)، فعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: "قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) المهدي مِنّا أهل البيت، يصلح الله له أمره في ليلة -وفي رواية أخرى- يصلحه الله في ليلة"[(١)].

وأهل البيت هم: (علي وفاطمة والحسن والحسين) عليهم السلام بنصّ آية (المودَّة) في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُور**﴾[(٢)]، وكذلك آية المباهلة.

يقول الرازي: "وأنا أقول: آل محمّد (صلى الله عليه وآله) هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شكّ أنّ فاطمة وعليًّا والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله) أشدّ التعلقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل"[(٣)].

وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ...**﴾[(٤)] يقول: "وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج وعليه مرط من شعر أسود، وكان قد

---

(١) كمال المصدوق / ١٥٢

(٢) الشورى/ ٢٣

(٣) الرازي ج٢٧/ ١٦٦

(٤) آل عمران/ ٦١

احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعليّ رضي الله عنه خلفها وهو يقول: إذا دعوت فأمنوا. فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهًا لو سألوا الله أنْ يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني..."[١].

وهذا المعنى يقطع الطريق على كلّ من يدّعي أنَّه الإمام المنتظر من غير أهل البيت (عليهم السلام) وهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله وسلامه عليهم. وبذلك خرجت ذرية العباس عمّ النبي من هذه الدائرة.

ومنها: المهدي (عليه السلام) من ولد فاطمة(عليها السلام)، وهناك روايات كثيرة تنصّ على أنّ المهدي (عليه السلام) من ولد فاطمة (عليها السلام)، وهذا يسهم في تضييق الدائرة أكثر ويحصرها بولد فاطمة فحسب، فكلّ من يدّعي الإمامة من غير ذريتها يكون ادّعاؤه باطلاً.

من تلك الروايات: ما جاء عن أمّ سلمة قالت: "سمعتُ رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: المهدي من عترتي من ولد فاطمة"[٢]. ومنها ما جاء عن

(١) تفسير الرازي ج٨/ ٨٥

(٢) سنن أبي داوود، باب المهدي ج٢ / ٣١٠

سعيد بن المسيب عن أم سلمة أيضا: "قالت: ذكر المهدي عند النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: من ولد فاطمة"(١). ومنها ما جاء عن عليّ (عليه السلام) أنَّه قال: "المهدي رجل منا من ولد فاطمة"(٢).

ومن شاء التوسّع فليراجع الموسوعات الحديثيَّة ففيها كثير من ذلك.

ومنها: أن المهدي من ذرية الحسين (عليه السلام)، وهناك روايات كثيرة تؤكّد أن المهدي (عليه السلام) من ذرية الحسين (عليه السلام) حصراً. من تلك الروايات ما جاء عن أبي سعيد الخدري قال: "قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي نفسي بيده أنّ مهدي هذه الأمّة الذي يصلّي خلفه عيسى منّا، ثمّ ضرب يده على منكب الحسين، وقال: من هذا، من هذا"(٣).

ومنها ما جاء عن سلمان الفارسي قال: "دخلت على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإذا بالحسين على فخذه، وهو يقبّل عينيه ويلثم فاه، وهو يقول: أنت سيد ابن سيد، أنت إمام ابن إمام أبو الأئمة، أنت حجّة ابن حجّة أبو حجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم"(٤).

ولا نحتاجُ إلى مزيد من الروايات والنصوص؛ لأنَّ الدراية صدّقت

(١) الطبراني – المعجم الكبير – باب الياء

(٢) المتقي الهندي – كنز العمال ج١٤ / ٥٩١

(٣) عيون المعجزات / ٦٤

(٤) الخصال / ٤٧٥

الرواية، إذ إنَّ الأئمة (عليه السلام) كلّهم من نسل الحسين (عليه السلام)، بدأت بالإمام علي بن الحسين ثمّ الإمام محمّد الباقر وهكذا إلى الإمام الحسن العسكري عليهم جميعا سلام الله، فلا بدّ أنْ ينتهي العدد - (تسعة كلّهم من ذرية الحسين عليه السلام) -، بالإمام محمّد بن الحسن المهدي عليهم السلام.

وهذا النَّسب الزاهر المتسالم عليه المقطوع بتواتره يبطل دعوى من ادّعى أنَّ الإمام المهدي ينتسب إلى الإمام الحسن (عليه السلام)، ويبطل دعوى من يقول إنَّ اسم المهدي هو (محمّد بن عبد الله)، إذ لا يُوجد نسب يبدأ بالإمام الحسين (عليه السلام) وينتهي بالإمام الحسن العسكري عليه السلام غيره.

وهذه النقطة تضاف إلى رصيد الشيعة في إثبات أنّ الإمام المنتظر(عليه السلام) هو محمّد بن الحسن العسكري (عليه السلام)، وأنَّه على وفق ما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنَّه من ذرية الحسين (عليه السلام)، بل كيف عرف رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحتمية تسلسل النَّسب الشريف إلى التاسع، والواقع أثبته، لو لم يكن ذلك إخبارا غيبيًّا عن الله تعالى. وهذا يكفي لإثبات وجود الإمام وحياته (عليه السلام)؛ لأنَّ الواقع صدّق الرواية.

ثانياً: المعرفة العلميَّة الشاملة.

ونقصد بالمعرفة العلميَّة الشاملة، معرفة علوم الدين والدنيا التفصيليَّة

المستمدَّة من الله عزّ وجلّ، والبحث في هذا الموضوع يستند إلى عقيدتنا أنَّ الإمام المهدي (عليه السلام) هو المُصلح الأعظم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ويُحقق الاستقرار والأمن المجتمعي والصحّي والاقتصادي، وهذا يقتضي أنْ يعرف تفاصيل القوانين العلميَّة التي تتيح له جميع ذلك. ومن الصعب أنْ نفترض غير ذلك؛ لأننا سنساويه ببقية الفقهاء المحصور علمهم باستخراج الأحكام الشرعيَّة. وسنبحث ذلك في طيات الكتاب.

أمّا أمور الدين فسنذكر بعضها على سبيل المثال:

منها: إنَّ معظم الأحكام الشرعيَّة المعمول بها حالياً يعدّها الفقهاء أحكاماً ظاهريَّة، قد تتطابق مع الأحكام الواقعيَّة التي عند الله تعالى، وقد لا تتطابق؛ لذا يبذل الفقيه قصارى جهده عن طريق القواعد الأصوليَّة والفقهيَّة إلى معرفة الحُكم القريب من الواقع. وإنْ كان العمل بالأحكام الشرعيَّة الموجودة فعلاً مبرئا للذمّة، إلّا أنَّنا - في الواقع - نبقى في دائرة الشكّ والاحتمال، ولا يزول ذلك إلا بظهور الإمام الحجّة (عليه السلام) الذي يعلم علم اليقين بكلّ الأحكام الشرعيَّة اليقينيَّة.

من المفيد أنْ أذكر أنَّ أحدهم سأل الشهيد السيد محمّد باقر الصدر (رضي الله عنه) عن ميزان الأعلميَّة، فقال: الأعلميَّة هو أنْ يتمكّن الفقيه من الاقتراب من الحُكم الواقعي عن طريق وسائل الاستنباط التي تمكّنه

من نفي الاحتمالات الأخرى وتركيز الاستنباط على حكم واحد.

ومنها: مسائل الموضوعات المُستجدّة وحكمها الشرعي الواقعي نحو المعاملات التجاريَّة المستجدّة، وأحكام البنوك، ومسائل التلقيح الصناعي، أو العيش في الفضاء الخارجي بالمركبات ونحو ذلك، ومنها: عدم معرفتنا التامّة لمعاني القرآن الكريم وتفسيره الصحيح، فإنَّ أمّهات التفاسير المعروفة تقوم على أساس الظنّ والاحتمال، أو ذوق المفسّر وخلفيته العقائديَّة، فمثلاً لا نعرف معنى قوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾(١). أو قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كلّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(٢).

ومن ناحية واقعيَّة لا نجد – بحسب عقولنا القاصرة – في القرآن بيانا أو تفصيلَ كلّ شيء، ونؤمن أنَّ القرآن مُنزل من ذي العرش، وأنّ رسول الله (ﷺ) لا ينطق عن الهوى، فمن الناحية العقائديَّة نؤمن بذلك، ولكن من الناحية الواقعيَّة نحتاج إلى من يبيّن ذلك بصورة جليَّة، ولا تتاح هذه القدرة إلا لشخص يرتبط بالله عزّ وجلّ ارتباطا وثيقا، وقد قال أحدهم

---

(١) النحل / ٨٩

(٢) يوسف / ١١١

للإمام الباقر (عليه السلام): "جُعلت فداك أخبرني عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورث من النبيين كلّهم؟، قال لي: نعم من لدن آدم إلى أنْ انتهت إلى نفسه، قال: ما بعث الله نبيًّا إلّا وكان محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) أعلم منه... فقد ورثنا نحن هذا القرآن، ففيه ما يقطّع به الجبال، ويقطّع به البلدان، ويحيي به الموتى... فما كتبه للماضين جعله الله في أمّ الكتاب، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾، ثمّ قال:" ﴿**ثمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾، فنحن الذين اصطفانا الله فورثنا هذا الذي فيه كلّ شيء"(١).

ونحن من الناحية الوجدانيَّة نشعر بهذا الفراغ ونشعر في الوقت ذاته بضرورة القائد الربّاني الذي يجب أن يملأ الفراغات التشريعيَّة والعقائديَّة وغيرهما.

ومنها: إزالة التحريف – سواء في المعنى أو اللفظ – لما موجود من تراث روائي وحديثي عند جميع المسلمين، ففيها بعض التصحيف والسهو والإرسال، والاضطراب والوضع والتدليس والتحريف، وفي الوقت نفسه فيها كثير من الصحيح الذي يعتمد عليه في استنباط الحكم الشرعي.

---

(١) بصائر الدرجات / ١١٤

هذه الأمور تعاني منها المؤسسات والحوزات العلميَّة، ولا تملك حلًّا يقينيا لهذه المشاكل التي من المفروض أن تؤدي إلى معرفة الأحكام الواقعيَّة الربّانيَّة؛ لذلك يبقى الأمل الوحيد منحصرا بالرجل الربّاني الذي يمتلك القدرة على حلّ هذه المشاكل، بل سيستبدلها بما لديه من تراث موروث من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأوصيائه، وكتب المرسلين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، فتنتفي الحاجة إلى ذلك.

فمن كانت عنده هذه القدرات يكون هو الحجّة الذي وعد الله تعالى عباده أنْ يُصلح به الأرض. وحينئذٍ لا يبقى معنى للاجتهاد والعمل بالأحكام الظاهريَّة.

***معرفة الإمام جميع قوانين العلوم الماديَّة:**

إنّ من يدرس (الإمامة) ودور الإمام في دولة الظهور العالميَّة سيدرك أنّ من أهم خصائص الإمام هو معرفته العميقة لجميع العلوم الحديثة، بل وسبقه بما لا يقاس لأرقى ما وصلت إليه البشريَّة من تطوّر نظري أو عملي في جميع مجالات المعرفة.

ولعلَّ ما أشار إليه أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بقوله: "علّمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي في كلّ باب ألف باب"، أو قوله: "إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً - وأَشَارَ بِيَدِهِ إِلى صَدْرِهِ - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً بَلَى

أَصَبْتُ لَقِنـًا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ"[١]، أو قولـه: " أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ"[٢].

هذه النصوص تكشف لنا عن الحجم الكبير من المعرفة الشاملة والتفصيليَّة لعلوم الدين والدنيا التي يمتلكها سيد الأوصياء (عليه السلام).

ومن المؤكّد أنّ الفرصة – بل والظروف السياسيَّة والاجتماعيَّة وكذلك المستوى الثقافي للأمّة – لم تتح له وللأئمة الأطهار (عليهم السلام) أنْ يغنوا مسيرة العلم والمعرفة بعلوم جديدة من شأنها تطوير الحياة وبناء حياة مزدهرة كالذي نعيشه اليوم من سبق علمي، طوّر أكثر مجالات الطب والاتصالات والصناعات والزراعة وغير ذلك.

ونلحظُ أنَّ الإمام عليّـًا (عليه السلام) قال: "لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً بَلَى أَصَبْتُ لَقِنـًا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ"، لم يقصد – ظاهراً – علوم الدين؛ لأنَّ تبليغ الأحكام الشرعيَّة من أهم وظائف المعصوم، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا**﴾[٣].

---

(١) الخصال للصدوق / ١٨٦

(٢) بحار الأنوار ج ٤٠/ ١٩٠

(٣) الأحزاب / ٣٩

ونقطع بأنَّ الأئمة (عليهم السلام) قد بلّغوا جميع الأحكام الشرعيَّة والعقائديَّة والأخلاقيَّة وغيرها، وعليه فما هي العلوم التي لم يصب لها الإمام (عليه السلام) حَملةً، إنْ لم يكن من جملتها العلوم الماديَّة التطبيقيَّة التي صرنا نعرف بعضها اليوم.

ولو تعمّقنا قليلاً في كتاب الله تعالى نجد أنَّ معجزات الأنبياء عليهم السلام كان بعضها ذا طابع علمي، مثل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وتسخير الرياح والإخبار عن الغيب والمستقبل إخبارا يقينيّا، وتحويل المادة من شكل إلى آخر والتحكّم في جاذبيَّة الأرض ﴿**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ**...﴾[١]

هذه الأمور وغيرها، وإنْ كان القرآن الكريم ذكرها على أنَّها مُعجزات للأنبياء؛ لإقناع أممهم، إلّا أنّنا ندرك أنَّ المُعجزات الماديَّة تجري على وفق السنن الربّانيَّة: ﴿**كلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[٢]، وقوله: ﴿**قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثمّ هَدَى**﴾[٣]، ونحو ذلك.

---

(١) الأعراف / ١٧١

(٢) القمر / ٤٩

(٣) طه / ٤٨ - ٤٩

لم يكنِ الإنسان في زمن عيسى (عليه السلام) يعرف قانون (الإحياء)، ولا في زمن سليمان يعرف قوانين تسخير الرياح، وكذلك معجزات بقية الأنبياء، ولكنّنا نعرف أنَّ الله تعالى أعطاهم قوانين الإعجاز في العلم المكنون، الذي لا يكون بوسع العقل البشري إلّا الإذعان لنبوّة الرسول الذي أتى بتلك المعجزة.

وليس المهم الظاهرة الإعجازيَّة بقدر معرفة قانونها وأسرارها. والقانون من أمر الله تعالى، وكلّ ما توصّل إليه العلم في عصرنا الحاضر، ما هو إلا اكتشاف لطريقة عمل تلك القوانين الماديَّة وتسخيرها لهدف ما، ولم يتمكّن العلم من خلق قانون يخالف ما موجود، ولن يتمكن أبدا؛ لأنَّ ذلك من شأن خالق الكون والحياة.

فكانت تلك الأمور معجزات تُثبت ارتباط الرسول بالمرسل سبحانه، ولتكون مدخلاً إلى الإيمان واليقين. طبعا يجب أنْ نستثني القرآن الكريم، فهو لا يخضع لأيِّ قانون في الكون؛ لأنّه كلام الخالق عز وجل: **﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾**[1].

(١) الإسراء / ٨٨

ولا شكَّ أنَّ أهل البيت (عليهم السلام) يعرفون كلّ تلك القوانين الإعجازيَّة بتعليم الله تعالى وما ورثوه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وما ورثه هو عن جميع النبيين (عليهم السلام)، وتعطينا الروايات صورة تفصيليَّة عن علم الإمام المعصوم الوارث للنبي وآل بيته.

وقبل أنْ نعرض بعض تلك الروايات، نشير إلى قضية مهمَّة جدًّا، وهي أنّ (الإمام حجّة الله) لا بدَّ أنْ يكون أعلم أهل الأرض، ولكن هل الأعلميَّة في علوم الدين فحسب، أم لا بدّ أن تكون في جميع علوم العالم بما فيها العلوم التي لم يكن لها ذكر في الأزمنة السالفة؟

وقد يقال: ليس من الضروري ذلك؛ لأنَّ وظيفة الإمام إبلاغ الدِّين، وبيان حقائقه، وهداية الناس إلى ربّهم، وهذا لا علاقة له بالفيزياء والكيمياء والرياضيات مثلاً، وقد يناقش ذلك بأنّ الأعلميَّة لا يمكن التحقّق منها في الأمور الفقهيَّة، إلّا إذا وضع الإمام (عليه السلام) مقاييس علميَّة يعجز عنها البشر لإثبات تفرّده بالأعلميَّة الدينيَّة، أو يأتي بكتاب موروث عن أجداده الأكرمين يحمل طابع إعجازي يثبت حجّيته، فيوجب اليقين بإمامته.

نعم من ناحية تعبديَّة للمؤمنين به لا نقاشَ فيه، ولكن بما أنَّ الإمام المعصوم حجّة الله على الخلق كافّة، وأنّه يتحمّل مسؤولية (الإبلاغ) للبشريَّة كافّة، فلا بدَّ من آية بيّنة تُقنع الجميع، وبذلك ينتهي الجدل في أمور الأحكام الشرعيَّة ولا يكون في أيدي الناس إلّا الحكم الواقعي.

ولكن بما أنَّ (الإمام) المعصوم حجّة الله على الخلق أجمعين، ويتحمّل مسؤولية (الإبلاغ) للبشريَّة كلّها ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾[١] فلا بدّ له من (إبلاغ مُقنع) يتناسب مع ثقافة العصر وتطوّر العقل، والمستوى العلمي الذي وصلت إليه البشريَّة.

ففي زماننا هذا امتلك علماء الغرب منصّة العلم والمعرفة العلميَّة التفصيليَّة الشاملة، وإذًا لا بدَّ للخطاب المهدوي أنْ يتفوق – إلى درجة الإعجاز – في أدواته الخطابيَّة والاحتجاجيَّة على جميع المدارس العلميَّة وما وصلت إليه البشريَّة ليثبت للعالم أنَّه الوحيد القادر على (إصلاح الأرض)، وبما أنَّ البشريَّة تتباين في ثقافتها ومستواها العلمي والثقافي، ولعلّ أكثرهم لا يقبل ثقافة (التعبّد)، فلا بدّ من تقديم الأدلّة والبراهين الإعجازيَّة التي تثبت أهلية القائد لحُكم العالم، فمثلاً الغرب اليوم لا يقبل فكرة (التعبُّد) بقول المعصوم (عليه السلام)؛ لأنَّ التعبّد فرع الاعتقاد، والاعتقاد فرع الإيمان، والإيمان فرع الدليل، ومثال ذلك كيف نثبت لـ(انشتاين) أنَّ الإمام الحجّة (عليه السلام) هو حجّة الله في أرضه إنْ لم يمتلك الإمام من المعرفة في علم الفيزياء والرياضيات ما يجعله معجزة تخضع لها الأعناق.

---

(١) الأنعام / ١٩

وبالمنطق نفسه يجب أنْ يسري على كلّ مجالات العلم والمعرفة؛ لأنَّ عصر الظهور يختلف عن زمن البعثة النبويَّة المباركة وما بعدها؛ لاختلاف البشر وتطوّر الحياة، وتوسّع آفاق المعرفة العلميَّة والتكنولوجية.

وإذ لابدّ للخطاب المهدوي أن يتفوق إلى حد الاعجاز على كل ما توصلت إليه البشرية في كل المجالات. ويؤكّد هذه الرؤية ما نجده في القرآن الكريم من تناسب بين معجزات الأنبياء (عليهم السلام) ومستوى الثقافة العلميَّة للناس، ولعلَّ أوضح انموذج لذلك مُعجزات موسى (عليه السلام) حين كان السحر أهمّ وسائل فرعون للسيطرة على عقول الناس، يقول عز وجل: ﴿**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى* فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثمّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى* قَالُوا يا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى* قَالَ بَلْ أَلْقُوا فإذا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إليه مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى* فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى* قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى* وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى* فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾(١).

(١) طه / ٦٣-٧٠

نرى أنّ (البيّنات) أي الأدلّة الإعجازيَّة التي دلَّت على صدق نبوّة موسى (عليه السلام) هي التي جعلت موقف السحرة يحولهم من أدوات خداعيَّة بيد فرعون، إلى مجموعة مؤمنة بالله ورسالة موسى (عليه السلام) **﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾**(١).

ويجري ذات الكلام على عيسى (عليه السلام) فإنَّ معجزاته كانت تتناسب في بعض جوانبها مع مستوى العلم والمعرفة حينها، قال عزّ وجلّ: **﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾**(٢).

هذا هو المنطق في إقناع البشريَّة فإنّه يخاطب كلّ أمة بحسب حالها وثقافتها ومستواها العلمي. والقرآن الكريم غنيٌّ بالأدلّة العلميَّة والعقليَّة والوجدانيَّة. وكثيرا ما تحدّث – بروح التحدّي والإعجاز العلمي – عن خلق السماوات والأرض وأصل الكون ونشأته، وخلق الإنسان والحيوانات، والزوجيَّة، وعالم النبات وعالم البحار ونحو ذلك، قال عزَّ وجلَّ: **﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كلّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾**(٣).

---

(١) طه/ ٧٢

(٢) الأنعام/ ٤٩

(٣) الأنبياء/ ٣٠

ويقول عز وجل عن خلق الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(١).

وعن النظام الكوني، والتوازن الدقيق الذي يدلّ على وجود الخالق وعظيم تدبيره يقول تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

ومما لا شكَّ فيه أنّ من خصائص القرآن الكريم الإعجازيَّة هو المنهج الاستدلالي العلمي والبرهاني المقنع. فلو تمعّنا في الآيات السابقة نجد أنَّ عملية خلق الإنسان من نطفة ثمّ من علقة ثمّ مضغة لم تكن معروفة للبشريَّة، وكذلك قانون الزوجيَّة بل ونشأة الحياة والكون وغير

---

(١) الحج / ٥

(٢) الذاريات / ٤٩

(٣) يس / ٣٦

ذلك لم تكن معروفة ولكنّها شكلت تحدّيًا للبشريَّة كافة سواءً للإنسان زمن نزول الآيات أم زمن التطوّر العلمي الحالي.

ومن هنا فإنَّ منهج العقلانيَّة والاستدلال العلمي والمنطقي والوجداني يكون هو المنهج الذي يعتمده الإمام المنتظر (عجّل الله تعالى فرجه الشريف)، بحيث يتفوّق على كلّ ما وصلت إليه البشريَّة بما يوجب الإذعان والتصديق به.

ونجد النصوص متضافرة على امتلاك المعصوم للمعارف الفائقة التي تتحدّى أعظم ما وصلت إليه البشريَّة في مجال الطب، على وفق ما حدث للنبي عيسى (عليه السلام) في قدرته على إحياء الموتى وعلاج الأمراض المستعصيَّة، فكانت معجزته بعلاجها بغير الأدوية، بل بشيء إعجازي آخر غير الدواء. ولو كان قد استعمل الدواء لما كان إعجازا، وهكذا سيكون ما عند المهدي (عليه السلام)؛ لأنَّه وارث علوم الأنبياء جميعا. والنصوص المتضافرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) تؤكّد ذلك، منها: ما جاء عن ضريس الكناسي قال: "كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) وعنده أبو بصير فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إنَّ داود ورث علم الأنبياء، وإنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمّدا (صلى الله عليه وآله) ورث سليمان، وإنّا ورثنا محمدا (صلى الله عليه وآله)، وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى. فقال أبو بصير:

إنّ هذا لهو العلم، فقال (عليه السلام): يا أبا محمّد ليس هذا هو العلم، وإنما العلم ما يحدث بالليل والنهار، يوما بيوم وساعة بساعة"[١].

ومنها: ما جاء عن أحمد بن حماد عن إبراهيم عن أبيه عن أبي الحسن الأول (عليه السلام): قال: "قلت له: جعلت فداك أخبرني عن النبي (صلى الله عليه وآله) ورث النبيين كلهم؟، قال: نعم، قلت: من لدن آدم حتى انتهى إلى نفسه؟، قال: ما بعث الله نبيا إلّا ومحمد (صلى الله عليه وآله) أعلم منه، قال: إنّ عيسى بن مريم كان يُحيي الموتى بإذن الله!، قال صدقت وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقدر على هذه المنازل..

قال فقال: إنَّ سليمان بن داود قال للهدهد حين فقده وشكَّ في أمره، ﴿**فَقَالَ مَا لِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ**﴾، حين فقده، فغضب عليه فقال: ﴿**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ**﴾، وسبب غضبه؛ لأنَّه كان يدلّه على الماء، فهذا – وهو طائر – قد أعطي ما لم يعط سليمان، وقد كانتِ الريح والنمل والإنس والجن والشياطين والمردة له طائعين، ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء، وكان الطير يعرفه، وأنَّ الله يقول في كتابه ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ**

---

(١) الكافي ج١/ ٢٢٥

بِهِ الْمَوْتَى﴾، وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسيّر به الجبال وتقطع به البلدان، وتحيى به الموتى، ونحن نعرف الماء تحت الهواء.

وإنَّ في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر إلّا أن يأذن الله به، مع ما قد يأذن الله مما كتبه الماضون، جعله الله لنا في أم الكتاب، وأن الله تعالى: يقول: ﴿**وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾، ثمّ قال: ﴿**ثمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾، فنحن الذين اصطفانا الله عزَّ وجلَّ، وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كلّ شيء"[(١)].

نلاحظُ أنَّ الإمامَ (عليه السلام) يشير إلى قضايا خارجة عن قدرة البشر، وخارجة عن دائرة الأبحاث العلميَّة الحديثة التي عادة ما تقوم على الملاحظة والبحث والتجربة لمعرفة (القانون) الفيزيائي للاستفادة منه. أمَّا تسيير الجبال، أو تقطيع الأرض، أو إحياء الموتى فإنَّها أمور خارجة عن قدرة العلم في كلّ زمان ومكان، فإن أتى بها الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وتحقَّقت دلّت على صدقه، وأنّه يمتلك ناصية علم رباني يفوق كلّ شيء ويستتبع ذلك الاعتراف بعجز مسيرة العلم المادّي المعاصر، وهذا يجرّ أصحاب المعرفة الاختصاصيَّة إلى الإذعان والتصديق بأهليته لقيادة العالم

---

(١) الكافي ج١/ ٢٢٥

و(التعبّد) بكلّ ما يقول ويفعل، ومنها رسالته الكبرى بأن تكون كلمة الله هي العليا.

وفي عصر الظهور ستحدث ظواهر خارقة غير معروفة، ولا يمكن عدّها إلّا شكلاً من أشكال الإعجاز الذي يثبت أن الإمام (عليه السلام) حجّة الله تعالى. وسيأتي في بحث (الظهور والتطور والعلمي) بعض الإشارات والظواهر التي ستتحقق في عصر الظهور.

ثالثاً: معرفته لجميع لغات العالم:

من خصائص الإمام الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) معرفته الكاملة بجميع لغات العالم، العالميَّة منها والمحليَّة. فكلُّ من يدّعي أنَّه (المهدي) ولا يُحيط بذلك فهو مفترٍ كذّاب؛ لأنّ القرآن الكريم يؤكد أنَّ مهمة هداية الأمم تقتضي توجيه الخطاب إليهم بلغتهم، قال عز وجل: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**(١).

ومن دون ذلك تكون المعذريّة لهم، فكيف يمكن إبلاغهم من دون تبيين الحقائق الدينيَّة بلغاتهم، كذلك نعلم أنّ النبوّات قسمان: نبوات خاصَّة

(١) إبراهيم / ٤

منها نبوّة صالح (عليه السلام) ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللهَ فإذا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ**﴾(١)، وغيره ممن ذكره القرآن الكريم.

ونبوّات عامَّة، وهم أولو العزم من الرسل، وهم الذين بعثهم الله إلى البشر كافّة، على اختلاف أعراقهم وقومياتهم ولغاتهم. قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾(٣)، وقال: ﴿**لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾(٤).

ومن المعلوم أنَّ محمّداً (صلى الله عليه وآله) هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وآخر الخمسة من أولي العزم؛ لذلك نعتقد أنَّ النبي (صلى الله عليه وآله) هو وارث الأنبياء مع كتبهم ومعجزاتهم، ولم تكن كتبهم عربيَّة، وكونه الوارث لها يقتضي معرفته للغاتها، وليس من المنطقي أنْ يستعين بمن يترجمها له؛ لأنَّ ذلك خلاف شأن النبوّة، بل نجد أنَّ الإمامَ عليّاً (عليه السلام) يقول: "أما والله لو ثُنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بإنجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم، حتى يزهر كلّ كتاب من هذه الكتب. ويقول: يا رب إنّ عليًّا قضى

(١) النمل / ٤٥

(٢) الأعراف / ١٥٨

(٣) الأنبياء / ١٠٧

(٤) الأنعام / ١٩

بقضائك"[١]. فإنَّ معرفة اللغة مقدّمة لمعرفة المعنى، ولو لم يكن عارفا بلغاتها لما أمكنه الحُكم بما فيها من أحكام.

قد يقال إنَّ الإمامَ (عليه السلام) كان يقصد الحُكم بمضامينها المطابقة لألفاظها، إلّا أنَّنا نجد أنّ التوراة والإنجيل والزبور من الأمور التي ستكون مع الإمام المهدي (عليه السلام) بذواتها ونسخها الأصليَّة لتكون حجّة له على مفهوم وراثته للأنبياء، وحجّة على أهل الأديان السماويَّة الموجودة فعلاً بأنَّ دينهم الحقيقي لا يعرفه سواه، فمن أراد منهم أنْ يتَّبع موسى وعيسى (عليه السلام) فليتبع المهدي (عليه السلام)؛ لأنَّه يمتلك التوراة والإنجيل وهذا يلزم أنْ يكون عارفا بلغاتها.

والإمام المعصوم (عليه السلام) وارث لمحمد (صلى الله عليه وآله) ولجميع ما ورث من غيره، فيكون من المنطقي أن يمتلك الإمام المنتظر (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) خصائص ينفرد بها عن جميع البشر، وبما أنَّ الإمامةَ عامَّة؛ لأنَّها وريثة النبوّة العامَّة، فهذا الأمر يستلزم الإحاطة بجميع اللغات للمجتمعات البشريَّة؛ لأنَّه جزء الموروث، لعلمنا أنّ الكتب السماويَّة نزلت بلغات شتى، منها العبريَّة والسريانيَّة وغيرهما ممّا لا نعلم ولا نعرف.

---

(١) الفصول المختارة: الشريف المرتضى / ٧٧

ولا بدّ أن يكون للوراثة محتوًى عمليّ، فما فائدة التوراة أو الإنجيل وغيرهما من الكتب السماويَّة، إذا كنَّا لا نعرف لغاتها التي هي طريق لفهم معانيها؟

إنَّ النصوص الواردة تؤكد أنَّ الأئمة منحهم الله الإحاطة الكاملة بجميع لغات الكتب السماويَّة، ففي رواية عن المفضل بن عمر قال: "أتينا باب أبي عبد الله (عليه السلام) ونحن نريد الاذن عليه، فسمعناه يتكلم بكلام ليس من العربيَّة فتوهمنا أنَّه بالسريانية، ثمّ بكى فبكينا لبكائه، ثمّ خرج إلينا الغلام فأذن لنا فدخلنا عليه، فقلت: أصلحك الله أتيناك نريد الإذن عليك فسمعناك تتكلم بكلام ليس بالعربيَّة، فتوهمنا أنّه بالسريانيَّة، ثمّ بكيت فبكينا لبكائك.

فقال: نعم ذكرت إلياس النبيّ، وكان من عبّاد أنبياء بني إسرائيل، فقلت كما يقول في سجوده، ثمّ اندفع فيه بالسريانيَّة، فلا والله ما رأينا قسا ولا جاثليقا أفصح منه به، ثمّ فسَّره لنا بالعربيَّة فقال: كان يقول في سجوده: أتراك معذبي وقد أظمأت لك هواجري، أتراك معذبي وقد عفرت لك في التراب وجهي، أتراك معذبي وقد اجتنبت لك المعاصي، أتراك معذبي وقد أسهدت لك ليلي.

قال: فأوحى الله إليه أن ارفع رأسك فإنِّي غير معذبك. قال: فقال: إن قلت لا أعذبك ثمّ عذبتني ماذا؟ ألست عبدك وأنت ربي؟ قال: فأوحى

الله إليه: أن ارفع رأسك فإنّي غير معذبك، إني إذا وعدت وعداً وفيت به"(١).

ووهناك نصّ آخر عن هشام بن الحكم في حديث بريّة (رجل من علماء النصارى): "أنّه لما جاء معه إلى أبي عبد الله (عليه السلام) فلقي أبا الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) فحكى له هشام الحكاية فلّما فرغ، قال أبو الحسن (عليه السلام) لبرية: يا برية كيف علمك بكتابك؟

قال: أنا به عالم.

ثمّ قال: كيف ثقتك بتأويله؟

قال: ما أوثقني بعلمي فيه.

قال: فابتدأ أبو الحسن (عليه السلام) يقرأ الإنجيل.

فقال برية: إياك كنت أطلب منذ خمسين سنة أو مثلك.

قال: فآمن برية وحَسُنَ إيمانه، وآمنت المرأة التي كانت معه.

فدخل هشام وبرية والمرأة على أبي عبد الله (عليه السلام)، فحكى له هشام الكلام الذي جرى بين أبي الحسن وموسى (عليه السلام) وبين برية، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): ذرّية بعضها من بعض والله سميع عليم.

فقال برية: أنّى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء؟

---

(١) شرح أصول الكافي / ج٥/ ٣٠٧

قال: هي عندنا وراثة من عندهم نقرؤها كما قرؤوها، ونقولها كما قالوا، إنَّ الله لا يجعل حجّة في أرضه يسأل عن شيء فيقول: "لا أدري"(١).

وللأسف لم يتح لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) الكشف عن هذا الجانب من خصائصهم، إلّا في مجالات محدودة تكلموا فيها بلغات أخرى غير العربيَّة، وإلّا فإنَّهم بوراثتهم للأنبياء وكتبهم، يعرفون لغات العالم نطقاً وكتابةً.

رابعاً: معرفته للغات الكائنات:

من الأمور التي نعتقدها بالإمام المعصوم (عليه السلام) أنه يحيط بلغته الحيوان والنبات والجماد، وهي ميزة ينفرد بها عن كلّ من سواه. والقرآن الكريم يشير إلى تلك الموجودات بأنَّ لها إدراكاً.

منها قوله تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً**" (٢)، وقوله تعالى: "**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾(٣)، وقوله

---

(١) شرح أصول الكافي / ج٥/ ٣٠٧

(٢) الاسراء/ ٤٤

(٣) الحديد / ١

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ﴾(٢).

ولا نقصد بالمعرفة مجرد المعرفة المحضة، بل التفاعل الحقيقي بينهما؛ لأنَّها الآية الكاشفة عن كونه: الإمام المعصوم المفترض الطاعة، والحجّة على الخلق أجمعين.

ولعلَّ من أهم مظاهر الإعجاز القرآني وأسراره العلميَّة تأكيده على أنَّ كلّ ما في الوجود حيّ يتفاعل مع خالقه جل وعلا بلغة التسبيح والتحميد والخضوع، ولم تكنِ البشريَّة تعرف ذلك، وبدأت أخيراً تظهر دراسات معمّقة ودقيقة تثبت وجود لغات وتخاطب، بل وحتى عواطف بين الأشجار والنبات وغيرهما.

ويشير القرآن إشارات رائعة تؤكد هذا المعنى؛ لأنَّ التسبيح إشارة ألى التنزيه، والتحميد إشارة إلى استشعار النعمة والفضل، ومعنى ذلك وجود إدراك لأسمى معاني العبوديَّة والافتقار إلى الله تعالى من صوب الجمادات؛ لأنَّ التسبيح والتحميد مرتبة متأخّرة عن الاعتراف بالوجود

(١) النحل/ ٤٩

(٢) الحج/ ١٨

والوحدانيَّة. وإن كان معظم المفسرين حمل هذه الآيات على (لسان الحال) من دون مسوّغ غير عدم تمكّنهم من فهم ذلك على نحو الحقيقة.

ولعلَّ ما يؤكّد صحَّة المعنى المذكور قوله تعالى: ﴿**وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**"، وقوله تعالى: "**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾(١).

فإنَّ عرض الأمانة هو غير التحميد والتسبيح، فلو لم يكن هناك إدراك أخص لما عُرضت الأمانة عليهم. كما أن إباء السماوات والأرض والجبال يتهافت مع كونها تسبّح لله تعالى بلسان الحال التكويني.

وقد أثبتَ العلمُ الحديثُ – بما لا يدع مجالاً للشكّ – أنَّ كلّ الموجودات، ما نسمّيه حيّاً منها أو ميتاً، يتألّف من ذرّات، والذرّة تتكون من نواة هي مركز الذرّة، ومن الكترونات تدور حولها في مسارات محدّدة تشبه حركة الكواكب، وهي في حركة مداريَّة دائمة، سواء أكانت المادة صلبة أم سائلة أو غازيَّة.

فما نراه جماداً هو في الحقيقة حياة وحركة وتوازن مذهل، جلَّ خالقه

(١) الاحراب / ٧٢

ومبدعه، وإذا ثبت ذلك فمن الصعب أن ننفي بدون دليل ألّا يكون لها إدراك، وإنْ كنّا لا نفقه ذلك.

ونجدُ في نصوص كثير من حالات التفاعل الإعجازي بين المعصومين (عليهم السلام) وبين المادة الصلبة أو الشجر أو الحجر أو الحيوان، وحصول حالات تخاطب وتفاهم لتأكيد حقيقة دينيَّة، أو ما يشبه ذلك.

وإذا كان بعضهم يعدّ ذلك نوعاً من الخرافة لغرابته أو لاستحالة وقوعه، فما ذلك إلّا بسبب جهلهم وتحجّر عقولهم، وعدم فهمهم لحقائق القرآن والكون، ولاسيَّما في عصرنا هذا الذي تطوَّرت فيه آفاق المعرفة، وأمكن تسخير المادة عن طريق معرفة أسرارها الفيزيائيَّة والكيميائيَّة إلى حال تحاكي بعض صور الحياة من نطق أو سمع وغيرهما. في الوقت الذي كان ذلك قبل بضع سنوات يعدّ (خرافة)، ويجري الكلام نفسه الآن على ما ذكره المولى عزّ وجلّ عن (الحياة والإدراك) لكلِّ ما في الكون من الذرّة إلى المجرة.

ويعرض القرآن الكريم نماذج من حالات التفاعل بين الإنسان والمخلوقات الأخرى كما في قصة سليمان (عليه السلام)، فتارة يتحدث مع الهدهد فيقول: ﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ* لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أو لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ***

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ* إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كلّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ* إِلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِليهمْ ثمّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾(١).

فنلحظُ أنَّ الهدهد يدرك أموراً، منها: أنَّ بلقيس (امرأة) تملك شعباً وتحكمه، فكيف عرف ذلك إن لم يكن له إدراك ومعرفة تحليليَّة، ومنها: أنَّه أدرك أنَّ قومها يسجدون للشمس من دون الله تعالى، فكيف عرف أنَّ سجودهم كان للشمس لا لشيء آخر؟، ومنها: أنَّ الشيطان هو الذي زيَّن لهم ذلك وصدَّهم عن الله تعالى، ومنها: استنكاره وتعجّبه من شركهم مع ظهور البراهين القاطعة على وجود الله تعالى، ومنها: تشكيك سليمان(عليه السلام) في أخباره ﴿**قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾، ومنها: تكليفه بإيصال كتاب سليمان إلى بلقيس والإتيان بالجواب. هذه الأمور كلّها تدلّ على وجود إدراك كامل لحقائق ماديَّة ومعنويَّة عرفها

(١) النمل / ٢٠-٢٨

الهدهد.

ويتحدّث القرآن الكريم عن مخلوق آخر هو (النملة) ويثبت أنَّها تدرك بل وتتوقع، وهي حسابات منطقيَّة فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿**حَتَّى إذا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾[(١)].

فالآية الكريمة تثبت وجود ما هو أهمّ من التخاطب اللغوي؛ لأنَّ النملة (توقعت) أنّ جنود سليمان سيحطمون النمل وهم لا يشعرون، فطلبت منهم الدخول إلى مساكنهم، وهذا يدلّ على أنّ النملة تملك تصوّراً لما يمكن أن يقع.

ونجدُ في مسيرة النبوّة والإمامة أشياء وقعت تثبت أن النبي أو الإمام مؤيد من الله تعالى بما يملك من قدرة يعجز عنها غيره، في مجال التأثير والتخاطب اللفظي مع من (لا يصح) التخاطب معه. من ذلك: ما جاء في نهج البلاغة، قال أمير المؤمنين(عليه السلام): "ولقد كنت معه لما أتاه الملأ من

(١) النمل / ١٨-١٩

قريش فقالوا له: يا محمّد إنك قد ادعيت عظيماً لم يدَّعه آباؤك ولا أحداً من بيتك. ونحن نسألك أمراً إن أجبتنا إليه وأديتناه علمنا أنك نبي ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذاب.

فقال (ﷺ): وما تسألون؟

قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك.

فقال (ﷺ): إنَّ الله على كلّ شيء قدير، فإنْ فعل الله ذلك لكم أتؤمنون وتشهدون بالحق؟

قالوا: نعم.

قال: فإنّي سأريكم ما تطلبون، وإنّي لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وأن فيكم من يطرح في القليب، ومن يحزّب الأحزاب.

ثمّ قال (ﷺ): يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي بإذن الله.

فوالذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها، وجاءت ولها دويّ شديد، وقصف كقصف أجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله (ﷺ) مرفرفة، وألقت بغصنها الأعلى على رأس رسول الله (ﷺ)، وببعض أغصانها على منكبي، وكنت عن يمينه (ﷺ).

فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا علوا واستكبارا: فمرها فليأتك نصفها

ويبقى نصفها، فأمرها بذلك، فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشده دويـًا، فكادت تلتف برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). فقالوا كفراً وعتواً: فمر هذا النصف أن يرجع إلى نصفه كما كان. فأمره (صلى الله عليه وآله وسلم) فرجع، فقلت أنا: لا إله إلا الله إني أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من أقر بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقًا لنبوتك، وإجلالاً لكلمتك. فقال القوم كلهم: بل ساحر كذّاب، عجيب السحر، خفيف فيه، وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا؟ يعنونني"(١).

إنَّ هذه الحادثة وقعت في السنوات الأولى من تاريخ الدعوة الإسلاميَّة، وقد استعمل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أدوات التخاطب اللفظيَّة المألوفة فقال للشجرة " يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي بإذن الله" وحصلت استجابة من الشجرة طبقًا لما أراد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومنها قصة حنين الجذع، وهي قصّة مشهورة ومروية في كتب الفريقين، تدلّ على وجود مشاعر وأحاسيس لدى جذع شجرة (ميتة) والقصة هي: "وبإسناده عن أنس قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقوم فيسند

(١) بحار الأنوار ج١٧/ ٣٨٩ عن نهج البلاغة

ظهره إلى جذع منصوب يوم الجمعة فيخطب الناس، فجاءه الوحي فقال: يا رسول الله اصنع لك شيئًا تقعد عليه. فصنع له منبراً له درجات ويقعد على الثالثة، فلمَّا صعد رسول الله (ﷺ) حنَّ الجذع إليه فالتزمه فسكت، فقال: والذي نفسي بيده لو لم التزمه ما زال يحنّ إلى يوم القيامة. ثمّ أمر بها فاقتلعت فدفنت تحت منبره"[١].

ولو تتبعنا تاريخ السيرة النبويَّة لوجدنا كثيراً من المعجزات الدالات على النبوّة، التي هي من هذا القبيل، والتي تثبت أنَّ الإدراك والفهم اللفظي، بل والعواطف والأحاسيس عناصر كامنة في الكون كلّه.

ونجدُ الشيء نفسه واقع في تأريخ الأئمة (عليهم السلام) وهو شيء كثير، جمع بعضه في كتاب (إثبات الهداة) للتدليل على أنَّ الإمام المعصوم(عليه السلام) ينفرد بهذه القدرة – بإذن الله وقدرته – ليتمكّن من قيادة الأمّة، وإقناعها بصلته بالسماء، والتيقّن بأنَّه حجّة الله تعالى.

خامساً: علمه بالغيب النسبي:

من خصائص الإمام المعصوم علمه بالغيب بإذن الله تعالى؛ لأنَّه

(١) إثبات الهداة ج١/ ٣٨٠ ط العلميَّة

ممن ارتضاه الله تعالى لذلك، وكلُّ من ادّعى أنه الحجّة بن الحسن (عليه السلام) ولا يعلم الغيب فهو كاذب وليس بإمام.

وقد كثر الكلام بين علماء المسلمين في هذا الموضوع فهم بين منكر على الإطلاق، ومجوّز ولو بحدود معيّنة، وكل منهم يستند إلى ما يعتقد أنه دليل تام على مطلوبه. ونحن نقول بما يقول القرآن الكريم وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) من أنَّ الغيب المطلق لله تعالى، إلّا من أطلعه من عباده من ملك أو رسول أو إمام بأي أسلوب أو طريق يشاءه، وبأيّ حدود يراها، والنبوّات بطبيعتها تحتاج إلى هذا الدعم الغيبي؛ لأنَّه يكشف عن وجود علاقة بالله تعالى تؤكّد النبوّة وترسّخها في النفوس والقلوب.

وكلّنا نعلم أنَّ من معجزات يوسف (عليه السلام) علمه بالغيب – طبعاً العلم المحدود – فقال تعالى: ﴿**قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾[(١)].

فهو (عليه السلام) يعلم – إلى درجة الإعجاز – كما ينصّ القرآن بأنَّه كان يعلم بالسنوات المطيرة المنتجة للمحاصيل والسنوات العجاف. وهذا النوع من (التنبؤ) خارج القدرة البشريَّة وأجهزة الرصد بما فيها الأقمار

(١) يوسف/ ٣٧

الصناعيَّة التي تعدّ قمة التقدّم التكنولوجي؛ لأنَّ اخبار يوسف (عليه السلام) يمتد إلى السنوات ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ* ثُمّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثمّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾(١) في حين لا تستطيع أحدث أجهزة الرصد أنْ تتوقّع إلّا لعدّة أيام، وكثيراً ما تخطأ فيها، أمَّا يوسف (عليه السلام) فكان اخباره على وجه اليقين والجزم، وهذا عنصر إعجازي لا يمكن الشكّ به.

وكذلك الأحداث التي جرت بين موسى (عليه السلام) والخضر (عليه السلام) والتي تدلّ على أشياء كثيرة، منها إمكانية العلم بالغيب، مع كون الخضر من الصالحين لا النبيين على وفق ما يظهر من القرآن.

وكلُّ ما سنذكره – هنا – عن الإمام المهدي (عليه السلام) أو الأئمة(عليهم السلام) لا نقصد به العلم الاستقلالي الذاتي، بل العلم المرتبط بالله تعالى، الدالّ على ارتباط المعصوم بربّه، وإلّا فإنَّ المعصومَ – نبياً كان أو إماماً – مفتقرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ حدوثاً وبقاءً.

وعليه فإنَّ كلّ من يدّعي أنّه الإمام المهدي (عليه السلام) ولا يملك علماً غيبياً، فهو مفترٍ كذّاب. أمَّا الإمام المعصوم حجّة الله على خلقه فهو الذي

---

(١) يوسف / ٤٧-٤٩

يملك معرفة غيبيَّة إعجازيَّة تدلّ على إمامته، وتثبت أنَّه الموعود المنتظر (عجّل الله تعالى فرجه الشريف).

ومما لا خلافَ فيه أنَّ علاقة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بربّه، وطريقة تلقيه المعارف الربّانيَّة، علاقة غيبيَّة لا نعرفُ طبيعتها تفصيليّاً، إلّا أنَّنا نقطع بأنَّه يمتلك رصيداً هائلاً من المعرفة سواء التاريخيَّة الماضية أم الحاضرة أو المستقبليَّة، قال (صلى الله عليه وآله وسلم): "أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابها"[1]، وقال علي(عليه السلام): "علّمني رسول الله ألف باب، كلّ باب يفتح ألف باب"[2].

ومن المسلَّم به أنَّ الأئمة ورثوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحملوا علمه، سواءً فيما يتعلّق بالأحكام الشرعيَّة أم العلوم الغيبيَّة المستقبليَّة.

أمَّا بالنسبة لأخبار الرسول الغيبيَّة فإنَّ كتب السيرة والرواية غنية بكثير منها، وإذا كان الاختصار يفرض علينا الانتقاء فإنَّ المتسالم منها كثير نختار منها:

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعمار بن ياسر(رحمه الله): يا عمَّار تقتلك الفئة الباغية. فقد روى الخطيب البغدادي بسنده قال: " حدّثنا إبراهيم عن علقمة والأسود

(١) مستدرك الحاكم ج٣/ ١٢٦

(٢) كنز العمال ج٦/ ٣٩٢

قالا: أتينا أبا أيوب الأنصاري عند منصرفه من صفّين فقلنا له: يا أبا أيوب إنَّ الله أكرمك بنزول محمّد (ﷺ) وبمجيء ناقته تفضلاً من الله وإكراماً لك حتى أناخت ببابك من دون الناس، ثمّ جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله إلا الله!

فقال: يا هذا إنَّ الرائد لا يكذب أهله، وإنَّ رسول الله (ﷺ) أمرنا بقتال ثلاثة مع علي، بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فأمَّا الناكثون فقد قابلناهم، أهل الجمل طلحة والزبير، وأمَّا القاسطون فهذا منصرفنا من عندهم، يعني معاوية وعمرا، أمَّا المارقون فهم أهل الطرفاوات وأهل السُيفات وأهل النخيلات وأهل النهروانات، والله ما أدري أين هم ولكن لابدّ من قتالهم إنْ شاء الله.

قال: وسمعت رسول الله (ﷺ) يقول لعمَّار: يا عمَّار تقتلك الفئة الباغية، وأنت إذ ذاك مع الحقّ والحقّ معك. يا عمار بن ياسر إنْ رأيتَ علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي فإنَّه لن يدليك في ردى، ولن يخرجك من هدى، يا عمَّار من تقلَّد سيفاً أعان به علياً على عدوّه قلّده الله يوم القيامة وشاحين من درّ. ومن تقلَّد سيفاً أعان به عدوّ علي عليه قلَّده الله يوم القيامة وشاحين من نار، قلنا: يا هذا حسبك رحمك الله، حسبك رحمك الله"(١).

(١) تاريخ بغداد ج١٢/ ١٨٨

وقد روي هذا الحديث في كتب الفريقين، السنة والشيعة وتسالمت عليه، وهو من دلائل النبوّة ومعجزاتها، بل أنَّ بعض المسلمين المشكّكين بأحقية الإمام علي (عليه السلام) جعل حديث (يا عمَّار تقتلك الفئة الباغية) مقياساً لتمييز الفئة المحقّة من المبطلة فقد روي عن عمار بن خزيمة بن ثابت: " قال: شهد خزيمة بن ثابت الجمل، وهو لا يسلّ سيفاً وشهد صفين وقال: أنا لا أسلّ أبداً حتى يقتل عمار فانظر من يقتله، فإنِّي سمعتُ رسول الله يقول: تقتله الفئة الباغية، قال: فلمَّا قُتل عمَّار بن ياسر قال خزيمة: قد بانت لي الضلالة، واقترب فقاتل حتى قتل" (١).

ويروى أنّ: "زبيد بن عبد الخولاني شهد صفين مع معاوية، وكانت معه الراية، فلما قُتل عمَّار تحوّل إلى عسكر علي (عليه السلام) آخذاً بقوله(صلى الله عليه وآله): "عمَّار تقتله الفئة الباغية" (٢).

وكما نرى فإنَّ إخبار النبي (صلى الله عليه وآله) عن قتل عمار (ره) لم يكن (حكماً تشريعيّاً) حتى يقال إنَّ مهمة الرسول (صلى الله عليه وآله) إبلاغ الأحكام الشرعيَّة والعقائديَّة فحسب، بل هو إخبار عن (غيب). فإذا وقع ذلك مرَّة نقض دعوى من يدّعي أنَّ النبي (صلى الله عليه وآله) لا يعلم الغيب وأنَّ صلته بالوحي لا تخرج عن دائرة إبلاغ التشريعات.

(١) خلاصة عقبات الأنوار ج٣/ ٣٣

(٢) الغدير ج٩/ ٣٦٥

وإنْ شئت التفصيل فراجع كتاب: (أعلام النبوّة لأبي حاتم الرازي) ففيه المزيد.

وكما تقدّم فإنَّنا نعتقد أنَّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هم ورثة النبي(صلى الله عليه وآله) ومن جملة ما ورثوه (العلم بالغيب) في نطاق ما أتاحه الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله). وما يدلُّ عل ذلك من النصوص والوقائع ما لا يحصى، نذكر منها على سبيل المثال ما رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة قال: "وروى عثمان بن سعيد عن يحيى التيمي، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء قال: قام أعشى باهلة[1]، وهو غلام يومئذٍ حدث إلى علي (عليه السلام) وهو يخطب ويذكر الملاحم فقال: يا أمير المؤمنين: ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة! فقال علي (عليه السلام): إنْ كنت آثماً فيما قلت يا غلام، فرماك الله بغلام ثقيف ثمّ سكت، فقام رجال فقالوا: ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال: غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك لله حرمة إلّا انتهكها، يضرب عنق هذا الغلام بسيفه.

فقالوا: كم يملك يا أمير المؤمنين؟

فقال: عشرين إنْ بلغها.

قالوا: فيقتل قتلاً أم يموت موتاً؟

---

(١) أعشى باهلة: اسمه عامر بن الحارث، صاحب المرثية المعروفة بأخيه لأمّه.

قال: بل يموت حتف أنفه بداء البطن، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه.

قال إسماعيل بن رجاء: فوالله لقد رأيتُ بعيني أعشى باهلة، وقد أُحضر في جملة الأسرى الذين أُسروا من جيش عبد الرحمن بن محمّد الأشعث بين يدي الحجّاج، فقرعه ووبَّخه، واستنشده شعره الذي يحرض فيه عبد الرحمن على الحرب، ثمّ ضرب عنقه في ذلك المجلس"[١].

وقال كذلك: "روى ابن هلال الثقفي في كتاب الغارات عن زكريا بن يحيى العطّار، عن فضيل عن محمّد بن علي، قال: لمَّا قال علي (عليه السلام): سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لو تسألونني عن فئة تضل مائة، وتهدي مائة إلّا أنبئتكم بناعقها وسائقها، فقام إليه رجل فقال: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر، فقال له علي (عليه السلام): والله لقد حدّثني خليلي إنَّ على كلّ طاقة شعر من رأسك ملكًا يلعنك، وإنَّ على كلّ طاقة شعر من لحيتك شيطان يغويك، وإنَّ في بيتك لسخلاً يقتل ابن بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وكان ابنه قاتل الحسين (عليه السلام) يومئذ طفلا يحبو، وهو سنان ابن أنس النخعي.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢/ ٢٩٢

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالي، عن سويد بن غفلة أنَّ عليّاً (عليه السلام) خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مررت بوادي القرى، فوجدت خالد بن عرفطة قد مات فاستغفر له، فقال (عليه السلام): والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة، صاحب لوائه حبيب بن حمار، فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال: يا أمير المؤمنين، أنا حبيب بن حمار، وأني لك شيعة ومحب، فقال: أنت حبيب بن حمار؟، قال: نعم، فقال له ثانية: والله إنك لحبيب بن حمار؟، فقال: إي والله، قال: أمَّا والله إنّك لحاملها ولتحملنها، ولتدخلن بها من هذا الباب، وأشار بها إلى باب الفيل بمسجد الكوفة، قال ثابت: فواللهِ ما مات حتى رأيت ابن زياد وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي (عليه السلام) وجعل خالد بن عرفطة على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحب رايته، فدخل بها من باب الفيل"(١). وإن شئت المزيد فراجع المصدر السابق ففيه كثير.

فكلُّ هذه الأمور مغيّبات تدلُّ على وجود علاقة خاصَّة بالله تعالى، وتدلُّ على صدق الإمام المعصوم (عليه السلام).

ولو نظرنا إلى تاريخ الصحابة على اختلاف مستوياتهم الثقافيَّة لا

(١) شرح نهج البلاغة ج٢/ ٢٩٢

نجد عندهم ما عند الأئمة الهداة (عليهم السلام) من معرفة تفصيليَّة بالأحكام الشرعيَّة العامَّة، فضلاً عن معرفة الغيب، ولم نعهد أثراً في كتب المناقب عن علمهم بالغيب، وإعطاء تفاصيل عن وقائع وأحداث محدَّدة بالأسماء والمواصفات أنها ستقع، ثمّ وقعت بالفعل، في حين نجد في سيرة أهل البيت (عليهم السلام) من أمير المؤمنين علي (عليه السلام) والى آخر إمام الكثير من العلوم الغيبيَّة التي تؤكّد امتلاكهم معرفة ربّانيَّة إعجازيَّة.

وبيَّن أهلُ البيت (عليهم السلام) طرقَ تلقّي المعرفة العلميَّة والدينيَّة، وربطوها بالله تعالى، وأكّدوا على أنَّ لا نبوّة بعد نبينا محمّد (صلى الله عليه وآله)، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنَّ خصائصهم المعرفيَّة مستمدة من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إلّا أنَّ ذلك لا يمنع من أن تكون لهم صلة مباشرة لتلقّي المعرفة في إطار نبوّة نبينا محمّد (صلى الله عليه وآله)؛ لأنَّ الأئمة امتداد للنبوّة في الأدوار القياديَّة والتشريعيَّة والتربويَّة وغيرها، وأنَّ لكلِّ زمان متطلباته الخاصَّة ومستجدّاته التي تفرض تحديد موقف شرعي معيّن لها؛ لأنَّ ما من واقعة إلّا ولله فيها حكم، فلا يُعقل أن تتوقّف مسيرة التشريع، أو تحصر بالتشريعات والوقائع في زمن نزول الوحي، ولا سيَّما وأن التقادم يؤدّي – عادة – إلى صعوبة فهم الدلالات الحقيقيَّة للنصّ، فكيف يمكن أن يلبّي الدين حاجات الناس والحياة، إذا لم يكن للإمام ارتباط مباشر بالله عزَّ وجلَّ.

من هنا حدَّدَ أئمةُ أهل البيت (عليهم السلام) مصادر علومهم ومعارفهم الغيبيَّة بالطرق الآتية:

الطريق الأول: جمع ما أملاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكتبه (عليه السلام) من أحكام وعلوم ومعارف وأسرار علميَّة وحوادث إلى يوم القيامة في كتاب اسمه (الجامعة)، فعن محمّد بن عمير عن محمّد بن حمران، عن سليمان بن خالد قال: "سمعته يقول – يعني الباقر (عليه السلام) -: إنَّ عندنا لصحيفة يقال لها: الجامعة ما من حلال ولا حرام إلا هو فيها حتى أرش الخدش"(١).

وفي نص آخر عن الأصبغ بن نباته عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال: "إنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) علّمني ألف باب من الحلال والحرام مما كان ومما هو كائن إلى يوم القيامة، كلّ باب منها يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب حتى علمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب"(٢).

مما تقدّم نفهم أنَّ (النص النبوي) محفوظ عند أهل البيت (عليهم السلام) كما هو، من دون تغيير أو تحريف، فهو (بليغ في العبارة واضح في الدلالة)؛ لأنَّه بإملاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخط علي (عليه السلام) لا يؤثر التقادم

---

(١) بحار الأنوار ج٢٦/ ١٨

(٢) المصدر السابق

في دلالاته، وفيه جميع الأحكام (مما كان ومما هو كائن إلى يوم القيامة)، أي أحكام تفصيليَّة كاملة لما يستجدّ من موضوعات.

وقد يسأل بعضهم عن كتاب (الجامعة) لماذا لم يظهره الأئمة(عليهم السلام) للناس، ويسمحوا بتداوله؟

ونقول في الجواب: إنَّ طبيعة الحياة لا تسمح بذلك، بل إنَّ المجتمع في حينه يعجز عن استيعابه، بل سيراه عبارة عن جمل وعبارات مشفّرة، فمثلاً لو قال الإمام (عليه السلام) (إنَّ استنساخ البشر حرام، وإنَّ استنساخ الكلى والكبد جائز)، أو يتحدّث عن الموقف من تعديل الجينات الوراثيَّة للإنسان والحيوان والنبات، أو أحكام بيع الأعضاء وزرعها، أو بطاقات الائتمان والبنوك ونحو ذلك مما هو موجود في عصرنا هذا، ولم يكن في زمانهم، فكيف يمكن تفهيم الناس؟ وهل سيكون هذا الكتاب مفيداً لهم؟ أم سيكون مثاراً للسخرية والاستهزاء، والاتهام بالأسطوريَّة والخرافات، أو قد يؤدّي ببعض المعجبين إلى تأليه الأئمة (عليهم السلام) واتّخاذهم أرباباً من دون الله تعالى، لما سيجدون فيه من عجائب العلوم والمعرفة التي سبقت عصرها. ونفس الشيء ينطبق علينا اليوم إذا ما رأينا فيه من غرائب المعرفة والعلوم والأحكام.

ونلحظُ في النص التالي شيئاً يعبّر عن عدم قدرة المجتمع على فهم الأبعاد العلميَّة واستيعابها للإمام المعصوم (عليه السلام) إذ يروي بكير بن أعين

قال: "قبض أبو عبد الله (عليه السلام) على ذراع نفسه وقال: يا بكير هذا واللهِ جلد رسول الله، وهذه واللهِ عروق رسول الله، وهذا واللهِ لحمه وهذا عظمه، واللهِ إنِّي لأعلم ما في السماوات، وأعلم ما في الأرض، وأعلم ما في الدنيا وأعلم ما في الآخرة.

فرأى تغيّر جماعة، فقال(عليه السلام): يا بكير إنّي لأعلم ذلك من كتاب الله تعالى إذ قال: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾[(١)].

فلاحظْ قوله (فرأى تغيّر جماعة) أي عدم تحمّلهم لما قاله (عليه السلام)، في حين نرى في عصرنا حصول بعض ذلك لأناس غير معصومين كرواد الفضاء مثلاً، ومراكز الرصد والتلسكوبات الأرضيَّة والفضائيَّة التي علموا عن طريقها ببعض ما في السماوات من أسرار كانت غيباً بالنسبة لنا، فكيف يمكن في ذلك الوقت أن ينشر أهل البيت (الجامعة) التي فيها من العلوم ما لا يمكن تخيّله في حينها.

ولو تمعّنا في كتاب الله تعالى وتدبّرناه لوجدنا أن ما قاله الإمام الصادق هو عين الحق؛ لأن أهل البيت(عليهم السلام) ما ادّعوا الاستقلالية عن الله ورسوله، لا في صغيرة ولا كبيرة، والنصوص في هذا متواترة ومتضافرة.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٦/ ١٨

وعلى ضوء عقيدتنا فإنَّ من معجزات الرسول (ﷺ) الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير**﴾(١) فقد اطّلع على الأرض وما فيها من آيات ثمّ عرج به إلى السماء فقال عز وجل: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى** – إلى قوله – **لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾(٢)، فاطّلع على أسرار السماوات، وعلى آيات ربّه الكبرى، بل رأى ما لم يره جبرائيل (عليه السلام).

ونسأل عن الهدف من (الإسراء والمعراج) هل كان لتعزيز إيمان الرسول، أو تعزيز النبوّة وترسيخ قواعدها، أو هما معاً.

ومهما كان الجواب فإنَّ مما لا شكّ فيه أنَّ الرسول(ﷺ) كسب حجماً هائلاً من المعرفة الدقيقة والعميقة مباشرةً من الله تعالى: ﴿**فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾ من دون واسطة.

ولم ينعكس ذلك الوحي الخاص في القرآن، ولا نعرف أبعاده، فهل يعقل أن تضيع أحداث الإسراء والمعراج ولا يعرفها أحد، أو أنّها لا تورّث لأحد كرصيد علمي ومعرفي يخدم الرسالة الإسلاميَّة على المدى البعيد؟

---

(١) الاسراء/ ١

(٢) النجم / ١-١٨

إنَّ الجواب بنعم يتضاد مع مسلمات الإسلام وثوابته؛ لأنّ (الهدفيَّة) من أهم سماته.

ولكن لماذا لم تنعكس أبعاد تلك الرحلة وتفاصيلها على المسلمين، ليعرفوا تلك الآيات والحقائق - اللهم إلا مقاطع قليلة ومحدودة، ليست مهمة - التي رويت عن رسول الله (صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ)؟

إنَّ ممّا لا شكّ فيه أنَّ (العقلية) العامَّة للناس لم تكن تتحمل معرفة عميقة تفوق مستوى العقل وتصوراته في بيئة الجزيرة العربية، إذ كيف يمكن أن يتعقل (العقل) قياسات الضوء للمسافات الهائلة للكون، وهو لا يعرف إلا الذراع والفرسخ وأمثالها!

إنَّ جميع المعارف والحقائق الدينيَّة، ومنها الآيات الكبرى ورّثها رسولُ الله (صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ) إلى وصيه أمير المؤمنين (عَلَيْهِالسَّلَامُ)، ومنه إلى الأئمة الأوصياء(عَلَيْهِمُالسَّلَامُ)، ومن المسلّم به أنَّ المعرفة الشاملة والعميقة التي اكتسبها رسول الله (صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ) في جميع مراحل حياته ودعوته ورحلته إلى السماوات العلى وما تلقّى من ربّه، لا يعقل أن تموت بموته، ولا تورث لأحد من بعده، ليواصل مسيرة النبوّة ويحقق أهدافها؛ لذا ليس بدعاً أن يكون الإمام الصادق يعلم ما في السماوات والأرض؛ لأنَّه علم موروث عن رسول الله (صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ).

وبالوقت نفسه فإنَّ معجزة الإسراء والمعراج ليست عمليَّة عبثيَّة، ولا نزهة فضائيَّة، بل هي رؤية ومشاهدة لحقائق وآيات كبرى ترتبط بحقائق الدين ومستقبله، فلا بدَّ أن يورّث (صلى الله عليه وآله) تلك العلوم لأوصيائه.

وقد يقال إنَّ الادّعاء بأنَّ الأئمة (عليهم السلام) يعلمون الغيب، ويعرفون ما في السماوات والأرض، وما كان وما يكون، فيه نوع من عدم الانسجام مع التوحيد الخالص؛ لأنَّ علم الغيب لله وحده، ولأنَّ القرآن يقول: ﴿**قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(١).

ولكن نجد الاستثناء في قوله تعالى: "**إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ**"، وفي قوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾(٢).

وعلى كلّ حال فإننا نقول إنَّ الأبعاد المعرفيَّة التي نعتقدها في أئمة أهل البيت(عليهم السلام) تكمن في ثلاثة أطر:

---

(١) الأعراف / ١٨٨

(٢) الجن / ٢٦-٢٧

الأول: إطار التوحيد الخالص، فلو افترضنا أنَّ الإمام المعصوم قال: (إن معارفي وعلومي مني وهي مستقلة عن الله تعالى) فسيكون لنا موقف آخر منه.

الثاني: إنَّها في إطار النبوّة وأبعادها، بمعنى أنَّ مصدرهم هو النبي(ﷺ) وما ترك لهم من آثار وعلوم.

الثالث: التلقّي من الله بنحو ما كان لأم موسى(عليه السلام) من دون نبوّة ورسالة.

وليس في هذا أي تضاد، أو عدم انسجام مع التوحيد الخالص، أو مقام الربوبيَّة مادام ذلك بإذن الله وإرادته، بل نجد أنَّ الاعتراف بمقام الأئمة بتلك الخصائص يعزّز من عقيدة التوحيد؛ لأنَّه صورة من صور تجلّي الله تعالى لخلقه. فكما نفهم الرحمة واللطف في صور الحياة التي خلقها الله تعالى، ونرى فيها آثار الربوبيَّة والرحمة والحنان، ونرى قدرته في جميع ما خلق، وما وضع لها من أنظمة تكوينيَّة تدلُّ على وجوده وقدرته وحكمته، كذلك يتجلّى لنا المولى فيما أودع في حججه من علوم غيبيَّة تكشف عن عظمته وجلاله ووحدانيته وقدرته.

بل نحس بأهمية ذلك وتأثيره في تعميق العبوديَّة لله تعالى، وتأصيل العقيدة في النفوس؛ لأنَّنا نشعر بعمق ارتباط المعصوم بالله تعالى عندما

يخبرنا بوقائع وأحداث ستقع في المستقبل ثمّ تتحقق، خذ مثلاً قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) لابنته سيدة نساء العالمين فاطمة (عليها السلام) "إنَّك أول أهل بيتي لحاقاً بي"[(١)]. فوقع كما أخبر، وقوله لعلي (عليه السلام): "ألا أحدثك بأشقى الناس رجلين؟، قال: بلى يا رسول الله، قال: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه – ووضع يده على قرنه – حتى يبل منها هذه، وأخذ بلحيته" [(٢)] فوقع كما أخبر (صلى الله عليه وآله)، وقوله(صلى الله عليه وآله): "إن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف..." [(٣)] فوقع كما أخبر (صلى الله عليه وآله).

وقوله لأبي ذر الغفاري (ه): يا أبا ذر تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتدخل الجنة وحدك، يسعد بك أقوام من أهل العراق يتولون تجهيزك وغسلك ومواراتك في قبرك"[(٤)] فوقع ما أخبر به.

وإذا تحدّثنا عن تأثير الأخبار الغيبي فينا في إطار عقيدتنا بأهل بيت النبوّة من أنَّهم خلفاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وورثته وأوصيائه، ونستجلي بعض

---

(١) صحيح البخاري ج٢ / ٢٢٩ علامات النبوّة

(٢) مسند أحمد ج٤ / ٢٦٣

(٣) الصواعق المحرقة لابن حجر / ١٩٠

(٤) بحار الأنوار ج٢٢ / ٤٣٠

تلك المواقف، ومدى تأثيرها في تعزيز العقيدة الإسلاميَّة بكلِّ أبعادها، ندرك الحجم الهائل لما يمكن أن يفعله ذلك من تعميق للنبوّة في قلوبنا، وترسيخ للإمامة في نفوسنا.

وقد ضمَّت مصادرنا الموثوقة المئات من الوقائع والأحداث التي أخبر فيها أئمتنا (عليهم السلام) عن علوم غيبيَّة وأحداث وقعت بكلّ التفاصيل التي ذكروها دلّت على حجم صلتهم بالله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) على الرغم من الصعوبة البالغة في تفهيم الأمّة للتفاصيل الدقيقة للحدث.

ونرى أنَّ كلّ إمام منهم ترك بصمات إعجازيَّة في موضوع الأخبار الغيبيَّة تدلُّ على إمامته، وأنَّه حجّة الله على الخلق.

وقد تكون تلك البصمات فرديَّة تخصُّ شخصاً ليس لديه اعتقاد بالإمامة، أو أن في نفسه درجة من الشكّ أو عدم الوضوح، فيظهر المعصوم من (علم الغيب) ما يثبت به أنَّه الإمام الحجّة المفترض الطاعة.

وكمثال لذلك ما رواه الكشي عن طاهر بن عيسى قال: حدّثني جعفر بن أحمد قال: حدثني الشجاعي عن محمّد بن الحسن عن صفوان بن يحيى عن حمزة بن الطيار عم أبيه محمّد قال: "جئت باب أبي جعفر (عليه السلام) أستأذن عليه، فلم يأذن لي، وأذن لغيري، فرجعت إلى منزلي وأنا مهموم، فطرحت نفسي على سريري في الدار وذهب عني

النوم، فجعلت أفكر وأقول : أليست المرجئة تقول كذا، والقدريَّة تقول كذا، والحروريَّة تقول كذا، والزيديَّة تقول كذا فيفسد عليهم قولهم، وأنا أفكر في هذا حتى نادى المنادي، فإذا الباب يُدَق فقلت من هذا؟، فقال: رسول لأبي جعفر (عليه السلام) يقول لك أبو جعفر (عليه السلام) أجب. فأخذت ثيابي عليّ ومضيت معه فدخلت عليه، فلما رآني قال: يا محمّد لا إلى المرجئة، ولا إلى القدريَّة، ولا إلى الحروريَّة، ولا إلى الزيديَّة، ولكن إلينا إنَّما حجبتك لكذا وكذا، فقبلت، وقلت به"(١).

وقد نجدُ الإمامَ المعصومَ (عليه السلام) يرسم معالم مرحلة كبيرة من مستقبل الأمّة الإسلاميَّة قبل حدوثها، بل مع عدم وجود مؤشرات معقولة تشير إليها، فمثلاً يتحدّث الإمام الباقر(عليه السلام) عن الدولة العباسية، وكيفيَّة نشأتها وأفولها، فعن "علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي محبوب، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير قال: كنت مع أبي جعفر (عليه السلام) جالساً في المسجد إذ أقبل داود بن علي(٢) وسليمان بن خالد، وأبو جعفر عبد الله بن محمّد أبو الدوانيق، فقعدوا ناحية من المسجد، فقيل لهم: هذا محمّد بن علي جالس، فقام إليه داود بن علي وسليمان بن خالد، وقعد أبو الدوانيق مكانه، حتى سلموا على أبي جعفر (عليه السلام)، فقال لهم أبو

---

(١) رجال الكشي ص٣٤٨ ح٦٤٩

(٢) داود بن علي عم السفاح

جعفر (عليه السلام): ما منع جاركم من أن يأتيني؟، فعذروه عنده[1] فقال عند ذلك أبو جعفر محمّد بن علي (عليه السلام): أما والله لا تذهب الليالي والأيام حتى يملك ما بين قطريها، ثمّ ليطأن الرجال عقبه، ثمّ لتذلن له رقاب الرجال، ثمّ ليملكن ملكاً شديداً، فقال له داود بن علي: وإن ملكنا قبل ملككم؟، قال: نعم يا داود إن ملككم قبل ملكنا، وأن سلطانكم قبل سلطاننا.، فقال له داود: أصلحك الله فهل له من مدة؟، فقال: نعم يا داود والله لا يملك بنو أمية يوماً إلا ملكتم مثليه، ولا سنة إلا ملكتم مثليها، وليتلقفها الصبيان منكم تلقف الصبيان الكرة، فقام داود بن علي من عند أبي جعفر (عليه السلام) فرحاً يريد أن يخبر أبا الدوانيق بذلك، فلما نهضا جميعاً هو وسليمان بن خالد، ناداه أبو جعفر من خلفه: يا سليمان بن خالد: لا يزال القوم في فسحة من ملكهم ما لم يصيبوا منا دماً حراماً — وأومأ بيده إلى صدره — فإذا أصابوا ذلك الدم فبطن الأرض خير لهم من ظهرها، فيومئذ لا يكون لهم في الأرض ناصر ولا في السماء عاذر، ثمّ انطلق سليمان بن خالد فأخبر أبا الدوانيق فجاء أبو الدوانيق إلى أبي جعفر (عليه السلام) فسلّم عليه ثمّ أخبره بما قاله داود بن علي وسليمان بن خالد فقال له: نعم يا أبا جعفر دولتكم قبل دولتنا، وسلطانكم قبل سلطاننا، سلطانكم شديد، عسر لا يسر فيه، وله مدة طويلة، والله لا يملك بنو أمية يوماً إلا ملكتم مثليه، ولا سنة إلا ملكتم مثليها، ليتلقفها صبيان

(١) أي أظهروا عذره

منكم فضلاً عن رجالكم كما يتلقف الصبيان الكرة أفهمت؟، ثمّ قال: لا تزالون في عنفوان الملك، ترغدون فيه ما لم تصيبوا منا دماً حراماً، فإذا أصبتم ذلك الدم غضب الله عز وجل عليكم، فذهب بملككم وسلطانكم، وذهب بريحكم، وسلط الله عزَّ وجلَّ عليكم عبداً من عبيده أعور[١] وليس بأعور من أل أبي سفيان[٢]، يكون استئصالكم على يديه وأيدي أصحابه، ثمّ قطع الكلام"[٣]كان هذا الكلام في زمن بني أمية.

وفعلاً فإنَّ العباسيين ملكوا ملكاً مديداً بدأ عام ١٣٢هـ إلى عام ٦٥٦هـ، فسفكوا الدماء ولا سيَّما دماء أهل البيت (عليهم السلام) ثمّ سلَّط الله عليهم هولاكو فقضى عليهم.

إنَّنا نشعر بتأثير هذا المنهج الغيبي في تعميق الإيمان ليس بالإمام المعصوم فحسب، بل بالرسالة المحمديَّة بكلّ أبعادها؛ لأنَّه يثبت أن هناك صلة دائمة بالله تعالى، هذه الصلة تجعل الإمام المعصوم (عليه السلام) أميناً على الرسالة والأمة؛ لأنَّ الرسالة تحتاج إلى من يصونها ليس من

(١) أعور أي الدني الأصل، السيء الخُلق، وهو إشارة إلى هولاكو خان. قال الجرزي فيه: لما اعترض أبو لهب على النبي (صلى الله عليه وآله) عند إظهار الدعوة قال له أبو طالب: يا أعور ما أنت وهذا لم يكن أبو لهب أعور، وقيل أنه يقولون للرديء من كلّ شيء من الأمور والأخلاق: أعور (الكافي ج٨/ ٢١٠)

(٢) أي الأعور ليس من آل أبي سفيان بل من غيرهم

(٣) الكافي ج٨ / ٣١٠

التحريف فحسب، ولا أقصد القرآن الكريم؛ لأنَّ الله تعالى تكفل بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، بل (السنة) التي قد يعتريها كثير من الأخطار، ولا أقل من سوء فهم دلالات النص النبوي.

إنَّ ارتباطنا بالإمام المعصوم (عليه السلام) الوارث لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) العالم بالغيب في إطار النبوّة، يجعلنا نوقن بأنَّ (السنة) التي رواها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هي المطابقة تماماً لما صدر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا أحد الآثار المهمّة لاعتقادنا بأنَّ الإمام المعصوم الوارث، يعلم الغيب؛ لأنَّه ممن ارتضاه الله تعالى لذلك. يشهد لذلك النصوص الواردة عنهم في مختلف المعارف والعلوم، وحتى النص أو الرواية الضعيفة يشهد سبكها على أنها من نبع النبوة والإمامة وإن كان علم الرجال لم ينصفها لقسوة حكمه على معظم الروايات.

وأمَّا الأمّة فإنَّها كذلك بحاجة إلى الإمام؛ لأنَّه الأمين على مسيرتها، والضامن لمصالحها، وتوجيهها نحو الهدى والرشاد، فقد روى إسحاق بن عمَّار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: "سمعته يقول إنَّ الأرض لا تخلو إلا وفيها عالم، كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردّهم، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم"(١). فالإمام (عليه السلام) يتدخل بطريقة ما في الأمور الكبيرة والمهمّة،

---

(١) غيبة النعماني / ٨٨

ويصحح مسيرة الأمّة ويصونها من الانحراف، أو يرشّد مسيرتها الصالحة.

وجاء في نص آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام) يكشف فيه عن أثر الإمام الحجّة (عليه السلام) في عصر الغيبة الكبرى وقد سأله سليمان بن مهران الأعمش فقال: "فقلت للصادق (عليه السلام) كيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟ قال: كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب" (١).

ونرى روعة التعبير وجماله بالتمثيل بالشمس إذا غطّاها السحاب، إذ إنَّ فائدتها تصلنا (الضوء والحرارة)، على الرغم من عدم رؤيتنا لها، وتأثيرها فينا سواء آمنا بوجودها أم لم نؤمن، فالتأثير قهري، كذلك تأثير الإمام (عليه السلام) على الرغم من عدم رؤيتنا له.

الطريق الثاني: المعرفة المباشرة.

ونعني بالمعرفة المباشرة التلقّي من القنوات الآتية:

١- عن طريق الروح: قال عزَّ وجلَّ: **﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كلّ أَمْرٍ"**(٢)، وقال تعالى: **"وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إليك رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإيمان وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**(٣)، وقال عزَّ وجلَّ:

---

(١) أمالي الصدوق / ١٦٤

(٢) القدر / ٤

(٣) الشورى/ ٥٢

"﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أو أَبْنَاءَهُمْ أو إِخْوَانَهُمْ أو عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ"[2].

جاء ذكر (الروح) في مواضع عديدة عن أهل البيت (عليهم السلام)، أنَّ (الروح) خلقٌ غير الملائكة، وأنَّ له مهمة كبيرة في إطار تأييد الأنبياء وأوصيائهم، وأن مهمّته تستمرّ ولا تنقطع بموتهم، بل تتّصل بوصيه، ومنه إلى باقي الأوصياء.

قال العلّامة الطباطبائي (رضي الله عنه): "وكيف كان فقد تكرّر في كلامه تعالى ذكر الروح في آيات كثيرة مكّيَّة ومدنيَّة، ولم يرد في جميعها المعنى الذي نجده في الحيوان، وهو مبدأ الحياة الذي يتفرّع عليه الإحساس والحركة الإراديَّة كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا﴾[3]، وقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِنْ كلّ أَمْرٍ﴾[4].

---

(١) النحل / ٢

(٢) المجادلة / ٢٢

(٣) النبأ / ٣٨

(٤) القدر / ٤

ولا ريبَ أنَّ المراد به في الآية غير الروح الحيواني وغير الملائكة، وقد تقدّم الحديث عن علي (عليه السلام) أنه احتجَّ بقوله تعالى: ﴿**يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾[1]، على أنَّ الروح غير الملائكة، وقد وصفه تارة بالقدس، وتارة أخرى بالأمانة لطهارته عن الخيانة وسائر القذارات المعنويَّة والعيوب والعاهات التي لا تخلو عنها الأرواح الأنسيَّة، وهو وإن كان غير الملائكة غير أنه يصاحبهم في الوحي والتبليغ كما يظهر من قوله: ﴿**يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾[3]، فنسب تنزيل القرآن على قلبه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى جبريل، ثمّ قال: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ*بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾"[4] وقال: ﴿"**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ**﴾[5]، فوضع الروح وهو غير الملائكة بوجه مكان جبريل وهو من الملائكة فجبريل ينزل بالروح والروح يحمل هذا القرآن المقروء المتلو.

---

(١) النحل / ٢

(٢) النحل / ٢

(٣) البقرة / ٩٧

(٤) الشعراء/ ١٩٣-١٩٥

(٥) النحل / ١٠٢

وبذلك تنحل العقدة في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إليك رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**﴾[١]، ويظهر من وحي الروح في الآية هو إنزال روح القدس إليه وإنزاله إليه هو الوحي القران إليه لكونه يحمله على ما تبين فلا موجب لما ذكره بعضهم على ما نقلناه آنفاً أن المراد بالروح في الآية هو القرآن"[٢].

ووضَّح سيد المتقين علي (عليه السلام) ذلك بأجلى بيان، فعن سعد الإسكاف قال: "أتى أمير المؤمنين (عليه السلام) يسأله عن الروح، أليس هو جبرئيل؟، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): جبرئيل من الملائكة والروح غير جبرئيل، فكرَّر ذلك على الرجل فقال له: لقد قلت عظيماً من القول، ما أحد يزعم أنَّ الروح غير جبرئيل، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): إنك ضال تروي عن أهل الضلال، يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ*يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ**﴾[٣]"[٤].

---

(١) الشورى / ٥٢

(٢) الميزان / ١٣/ ١٩٦

(٣) النحل / ١-٢

(٤) الكافي ج١ / ٢٧٤

ولو نظرنا إلى المسألة من ناحية واقعيَّة، وافترضنا أنَّ جبريل (عليه السلام) هو القناة الوحيدة للوحي والارتباط بالله عزَّ وجلَّ، وأنَّ مهمّته إنزال القرآن فحسب، ومهمّة الرسول (صلى الله عليه وآله) تلقّيه وإبلاغه للناس بما هو نصّ أو مفسر، فهنا يتساوى عامَّة الناس برسول الله (صلى الله عليه وآله) في العلم والمعرفة، وهذه نتيجة غير منطقيَّة؛ لأنَّها تصطدم مع قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿**"وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾(٢) ثمّ إنَّ الأمّة مأمورة بالسؤال كما في قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾(٣)، وهو يدلُّ على وجود طبقة خاصَّة وهم (أهل الذكر) تفوق في مستواها الأمّة الإسلاميَّة المخاطبة بالقرآن في كلّ زمان ومكان، فكيف تفوّقت هذه الطبقة على بقية المسلمين، إذا لم تكن لها قنوات أخرى متَّصلة تتلقَّى منها المعرفة؟.

بل كيف يمكن الرجوع إلى أهل الذكر ورسول الله (صلى الله عليه وآله) بينهم، إنْ كان المقصود هو؟ أليس المفروض الرجوع إليه من دون حاجة إلى أهل الذكر، فهل هم بمستواه علماً ومعرفةً؟

---

(١) آل عمران / ٧

(٢) النساء / ٨٣

(٣) النحل / ٤٣

إنَّه افتراضٌ غير منطقي وغير معقول؛ لأنَّ الرجوع إلى (أهل الذكر) كما يراد به الرجوع إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) كذلك يقصد به الرجوع إليهم إلى قيام الساعة؛ لأنَّهم مرجعيَّة حدَّد القرآن الرجوع إليها حتى بعد انقطاع الوحي ورحيل الرسول إلى الرفيق الأعلى، وإذا لابدَّ لهم من معرفة تواكب تطوَّر الحياة بل وتسبقها، وهذا لا يتحقّق إلا بوجود قنوات يرتبطون - عن طريقها – بالسماء، وسيأتي فيما بعد أنَّهم أهل البيت(عليهم السلام).

وفي هذا الموضوع يقول الإمام الصادق (عليه السلام): "علمنا غابر ومزبور، ونكت في القلوب، ونقر في الأسماع، وأن عندنا الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة (عليها السلام) وعندنا الجامعة فيها جميع ما تحتاج الناس إليه، فسئل عن تفسير هذا الكلام فقال: أمَّا الغابر فالعلم بما يكون، وأما المزبور فالعلم بما كان، وأمَّا النكت في القلوب فهو الإلهام، وأمَّا النقر في الأسماع فحديث الملائكة (عليهم السلام) نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم، وأمَّا الجفر الأحمر: فوعاء فيه سلاح رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولن يخرج حتى يقوم قائمنا أهل البيت، وأمَّا الجفر الأبيض: فوعاء فيه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وكتب الله الأولى، وأمَّا مصحف فاطمة(عليها السلام) ففيه ما يكون من حادث، وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة..."(١).

(١) بحار الأنوار ج٢٩/ ١٨

وعلى هذا الأساس فإنَّنا نعتقد أنَّ الإمامَ الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) يحمل تلك المواريث، ويمتلك تلك الخصائص، ومن يفتقدها فهو ليس بإمام.

وقد يستبعد بعضهم أو يستنكر ذلك، ويقول إنَّ الوحي انقطع برحيل رسول الله(صلى الله عليه وآله) فما معنى أن تحدّث الملائكة أحداً بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟.

إنَّ هذا الاعتراضَ وجيهٌ لوكان المدّعي يرى أنَّ الملائكة توحي إليهم قرآناً مختلف يُضاف إلى القرآن الذي تكفَّل المولى بحفظه ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1]، أو كان يدّعي أن ذلك نبوّة في طول نبوّة خاتم المرسلين(صلى الله عليه وآله).

والحقيقة أنَّه لا هذا ولا ذاك؛ لأنَّ النبوّة خُتمتْ بمحمّد (صلى الله عليه وآله) فلا نبيَّ بعده، والقرآن الذي بين أيدينا هو كتابُ الله تعالى، من دون زيادة أو نقصان، وهذا من ثوابت عقيدتنا.

أمَّا إمكانيَّة أنْ تحدّث الملائكة أحداً غير الأنبياء (عليهم السلام) ويتلقّى منها معارفَ وعلوماً وغيرها، فإنَّ القرآن ينصُّ على إمكانه بل وقوعه كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ**

---

(١) الحجر / ٩

وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(١).

وكذلك أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أمِّ موسى (عليها السلام) بقوله: **﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إليك وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**(٢).

ورأتْ زوجة إبراهيم (عليه السلام) الملائكة وحدّثوها وحدّثتهم، قال تعالى: **﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أهل الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾**(٣).

فإذا وقع ذلك لغير الأنبياء فما المانع من وقوعه للأوصياء (عليهم السلام)؛ لأنَّ الوقوعَ دليلُ الإمكان.

ولتوضيح هذا الموضوع نقول: إنَّ القرآن الكريم فيه إشارات

---

(١) آل عمران / ٤٢ – ٤٣

(٢) القصص / ٧

(٣) هود / ٧١-٧٣

ودلالات واضحة على عدم إمكانية تفسير بعض آياته من غير المعصومين (عليهم السلام)، ونلحظ أنَّ المفسرين وقفوا عندها موقف العاجز، فأوكلوا علمها إلى الله عزَّ وجلَّ، وإذا قالوا فيها شيئاً فلا يتجاوز غير التصوّرات والافتراضات غير الدقيقة، ولا نخرج بنتيجة منطقيَّة تنسجم مع تعريف القرآن لنفسه بأنَّه: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا**"[١]، ﴿**وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢]، ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾[٣]، ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾[٤]، ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[٥].

وتبقى تلك الآيات بحاجة إلى تفسير مقنع ينسجم مع هدف القرآن ومقاصده الحقيقيَّة، منها على سبيل المثال: ﴿**وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[٦]، فأين هذا الكتاب وعند من؟، ﴿**وَيَوْمَ**

---

(١) النساء/ ١٧٤

(٢) النمل / ٧٧

(٣) الاسراء/ ٩

(٤) البقرة/ ٢

(٥) البقرة/ ١٨٥

(٦) النمل/ ٧٥

نَحْشُـرُ مِـنْ كـلّ أُمَّـةٍ فَوْجًـا مِمَّـنْ يُكَـذِّبُ بِآيَاتِنَـا فَهُـمْ يُوزَعُـونَ﴾[١]، **﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾**[٢]، **﴿يَوْمَ نَدْعُو كلّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾**[٣]، **﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِلَّهِ الأمر جَمِيعًا﴾**[٤]، **﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إليك طَرْفُكَ﴾**[٥].

فأين المنهج الذي نعرف به كلّ غائبة في الأرض والسماء في القرآن؟ وكيف نوفق بين حشر الأفواج والحشر الشامل الذي لا يغادر أحداً؟، ومن هو إمام كلّ طائفة أو جماعة، هل أنَّ الله تعالى فرض على كلّ (أناس) إماماً، وسوف يدعون به يوم القيامة وهم لا يعرفونه؟.

ثمّ إنَّ (آصف) وصي سليمان، الذي عنده علم من (الكتاب) ما هو الكتاب الذي عنده؟ هل هو القرآن في قوله تعالى: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ**

---

(١) النمل/ ٨٣

(٢) الكهف/ ٤٧

(٣) الاسراء / ٧١

(٤) الرعد/ ٣١

(٥) النمل / ٤٠

بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[١]، فإنْ كان المقصود بـ(الكتاب) القرآن الكريم حينئذٍ نحتاج إلى فهم الحقيقيَّة، إذ كيف يمكن أنْ يعرفَ وصيُّ سليمان القرآنَ وأسراره قبل نزوله على نبينا محمّد(ﷺ)؟ وإنْ كان (الكتاب) هو مجموعة علوم فوق المعرفة الإنسانيَّة يحتاجها الأوصياء لإكمال مسيرة الأنبياء(عليهم السلام)، فيجب أن نعرف من هم ورثته؟؛ لأنَّ القرآنَ يؤكّد على أنَّ (الكتاب) قد أورثه الله لـ(**الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) فمن هم؟

ولا يمكن أن يكون (القرآن) هو الموروث؛ لأنَّ الرسولَ (ﷺ) كان حيًّا حين نزلت الآية (٣٣ فاطر) فكيف أورثه؟ بل كيف أورثه قبل إكمال نزوله؟ ثمّ كيف يمكن أن نتصوَّر توريث القرآن الذي هو (هدىً للناس) إلى بعض الناس ثمّ يحاسبون على ما فيه من أحكام وعقائد لم يبلّغوا بها؟؛ لأنَّ التوريث اختصاص وتمليك، فأين سيكون موقع قوله تعالى: **﴿لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾**[٢]؟.

ولأجل إعطاء إجابة منطقيَّة تنسجم مع ثوابت الإسلام وحقائقه يجب التأكيد على الأمور الآتية:

أولاً: ليس منطقيًّا حينما نعجز عن فهم شيء بسبب قصورنا،

---

(١) فاطر / ٣٣

(٢) الأنعام / ١٩

وضعف إدراكنا أن نقول: إنَّ علم ذلك عند الله، أو موكول إليه؛ لأنَّ ذلك يتضاد مع القرآن ذاته الذي هو آيات بيّنات وهدى للإنس والجن، فكيف يهدي الإبهام والغموض إلى الحقّ والهدى؟ ثمّ ما الحكمة من وجود (الإبهام والغموض)! وإرجاع فهمه إلى الله؟

قد يقال: إنَّ القرآن فيه آيات متشابهات، والجواب: إنَّ المتشابه هو الآيات ذات المداليل المتعدَّدة التي يشتبه في مطابقة أي مدلول منها للواقع. فمثلاً قوله تعالى: ﴿**الرحمن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾(١)، هل الاستواء الجلوس على العرش، أم سيطرته تعالى على كلّ ما في الوجود وتسييرها على وفق نظام معين، وكذلك القول عن مداليل كلمة (العرش) وماذا يُراد به.

فليس ذلك من الغموض، بل يجب فهمه من القرآن ذاته بإرجاع المتشابه إلى المحكم، أو إلى الراسخين في العلم، وهم أهل البيت(عليهم السلام).

ثانيًا: إنَّ القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد ووحيه المعجز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تحدَّى سبحانه الجن والإنس أن

(١) طه / ٥

يأتوا ولو ببعضه، ومازال التحدّي وإلى يوم القيامة. و(الهدفية) أحد معالم القرآن الكريم: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ إِنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾[١]، ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ**﴾[٢]، فليس من المنطقي أن يكون فيه شيء غير هادف؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ منزَّهٌ عن العبث، فما هو موقع هذه الآيات منه؟

ثالثاً: إنَّ القرآنَ نزل إلى العالم كلِّه، وللبشريَّة في كلّ أطوارها، فكان لابدّ من مواكبة تطوّر الحياة وتلبية حاجات الإنسانيَّة المتجدّدة. فكما لبَّى حاجات الناس في عصر النزول، كذلك يجب أن يلبّي حاجاتها اليوم وإلى يوم القيامة. فكيف يتم ذلك؟.

وللإجابة نقول: يُمكن أن نفترض أنَّ النبيَّ (ﷺ) ترك للمسلمين القرآن والسنّة، وبهما انقطعت صلة الإنسانيَّة بربّها، من دون الأخذ بالحسبان تطوّر الحياة وتقدّمها.

في ضوء هذا الفرض سيفقد القرآن والسنّة قدرتهما بعد مدَّة من الزمن؛ لأنَّ حاجات الناس متجدّدة والأحكام في القرآن والسنّة محدّدة، وهذا معناه عدم قدرة الإسلام على حكم الناس وإدارة شؤنهم.

ولعلَّ هذا السبب هو الذي جعل المذاهب الإسلاميَّة تلجأ إلى

---

(١) المؤمنون / ١١٥

(٢) الزخرف / ٣٨.

(القياس) ونحوه؛ لحلِّ المشكلات التي نشأت من التصادم بين الإيمان بأنَّ الإسلام هو دين الله إلى يوم القيامة **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾**(١)، وبين الحاجات المستجدّة التي لا جذورَ لها في الكتاب ولا في السنّة، أو أنَّ جذورها غير واضحة لنا فعلاً.

وإذا ما عملنا بـ(القياس) تكون النتائج عبارة عن حكمنا الشخصي واجتهادنا الخاص، وليس حكم الله عزَّ وجلَّ. وكذلك القول بالنسبة للاستحسان وغيره.

وقد نفترض أنَّ الحلَّ يكمن في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) والتي تقرن بين القرآن وأهل البيت (عليهم السلام) فيما تواتر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أنه قال: **"**إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**"**(٢).

هذا الحلُّ يضمن الصلة التفاعليَّة بين المرسل والرسالة إلى يوم القيامة. ونلحظ الدقة في تعبير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ قال: **"**كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض**"** الذي يعني أنَّ صلة القرآن الكريم بالسماء صلة

---

(١) المائدة / ٤٤

(٢) مستدرك الحاكم ج٣ / ١٤٨

دائميَّة أبديَّة لم تتوقف برحيل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى ربّه تعالى، بل تمتد إلى أهل البيت (عليهم السلام) بـ(لم يفترقا)،ونفي اقترانهما تكذيب لرسول الله (ص).

وقد يسأل بعضهم عن معنى (الصلة) بين القرآن والسماء وأبعادها، هل معنى ذلك أنَّ القرآن لم يكتمل تنزليه حتى يحتاج إلى هذه الصلة. إنَّ الاعتراف والاعتقاد بذلك يتضادّ مع القرآن وثوابت المسلمين؛ لأنَّ القرآن الذي بين أيدينا هو كتاب الله تعالى لا يأتيه الباطل، ولكنّ السؤال: هل تملك الأمّة الإسلاميَّة تفسيراً يبيّن مقاصده الحقيقيَّة كما أنزله الله تعالى، بحيث نفهم عمق المعرفة في قوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[١]، أو قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[٢]، ونحو ذلك من دون حاجة إلى التأويل والتسويغ الذي لا يدعمه دليل.

إنَّ معظم التفاسير لا تعطي رؤية مقنعة، ولا تفسر لنا ذلك، وتبقى هذه القضيَّة معضلة للمذاهب الإسلاميَّة التي لا تتبنى نهج الإمامة.

إنَّنا ببساطة نؤمن بحديث الثقلين ونعمل بمقتضاه، ونعتقد بأنَّ

---

(١) النحل/ ٨٩

(٢) يس/ ١٢

الفصل بين القرآن والعترة ما هي إلّا عملية تهديم للقرآن والإسلام؛ لأنَّ منهج الاعتماد على مبدأ التمسّك بالقرآن والسنّة من دون استمرار العلاقة - بنحو ما - بالسماء، تعني تجميد الإسلام بمرحلة محدودة من تاريخ الإنسانيَّة؛ لأنَّ الاستقراء يدلُّ على أنَّ الرسالات - سواءً أكانت ربّانيَّة أم علمانيَّة - تحيا وتبقى بمقدار ودرجة صلتها بمصادرها القادرة على إثرائها بالجديد والمزيد مما تقتضيه مسيرة الإنسانيَّة، ولا سيَّما إذا كانتِ الرسالة عالميَّة غير مقيَّدة بزمان ولا مكان.

ونلحظُ على مسيرة الأنبياء (عليهم السلام) وجود مسيرة أخرى تواكبها وتتربى في هداها، ومن ثمّ ترثها مع خصائص كبيرة تؤمّن لها (صلة) بالمولى عزَّ وجلَّ تضمن لها القدرة على مواكبة تطوّر الحياة، وتلبية حاجات الأمم والشعوب المتجدّدة، هذه المسيرة هي مسيرة الإمامة التي لا تكون إلّا بنصّ قطعي وبأمر الله تعالى، إذ نجد في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1].

إنَّ الإمامةَ عهدٌ ربَّاني لا يُمكن لأيِّ أحد أنْ يكون إماماً من دون نصّ محكم في دلالته على إمامته ومقروننا -على طول الخط- بظواهر وأدّلة

(١) البقرة/ ١٢٤

إعجازيَّة تثبت أنَّه (إمام)؛ لأنَّنا لا نستطيع معرفة تحقّق العهديَّة في هذا الإنسان من عدمه، إذا لم يتمتع بما يثبت ذلك. ثمّ كيف يعرف (المعهود إليه أنَّه إمام إذا لم تكن له صلة - بنحو ما - تثبت علاقته بالسماء)؛ لأنَّ (العهديَّة لا تؤدّي الغرض ولا تحقّق الهدف ما لم تملك مقوّمات أساسيَّة تمكّنها من حكم الأمّة بالنحو الذي يريده الله تعالى)؛ ولهذا السبب فإنَّ هذا المعهود إليه لا يخلو أمره من فرضين: إمَّا أنْ يحكم بعلمه الشخصي الكسبي وتصوّراته الذاتيَّة، أو أنْ يحكم بإرادة الله تعالى، فإنْ حكم بعلمه وتصوّراته الشخصيَّة فعلى (القرآن) السلام، وإنْ حكم بما يطابق إرادة الله تعالى فهذه هي الإمامة التي نؤمن بها، وهي تستلزم الصلة التفاعليَّة مع السماء بشكل دائم.

ومن هنا نجد أنَّ عناية النبي (ﷺ) بأمر الإمامة والاستخلاف بدأ منذ فجر الدعوة الإسلاميَّة، إذ صدرت منه محاولات لتكريس هذا المبدأ وتأكيده في الحياة الإسلاميَّة، ومنها:

المحاولة الأولى: كانت حين نزل عليه قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾، فدعاهم (ﷺ) إلى دار عمّه أبو طالب، وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصون، وفيهم أعمامه أبو طالب والعبَّاس وحمزة وأبو لهب، فكلّمهم رسول (ﷺ) وكان من جملة ما قال لهم: "يا

بني عبد المطّلب إنّي والله ما أعلم شابًّا في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على أمري هذا، على أن يكون أخي ووصيي وخليفي فيكم؟، فأحجم القوم غير علي (عليه السلام)، وكان أصغرهم، إذ قام فقال: أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رقبته وقال: إنَّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، فيقولون لأبي طالب، قد أمرك أنْ تسمع لابنك وتطيع"[١]

المحاولة الثانية: كانت في غدير خمّ بعد حجّة الوداع حين العودة إلى المدينة، فقد أخرج الحاكم عن زيد بن أرقم أنّه قال: "لمّا رجع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من حجّة الوداع، ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن فقال: "كأنّي دُعيت فأجبتُ، وأنّي قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، ثمّ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ مولاي، وأنا مولى كلّ مؤمن ومؤمنة، ثمّ أخذ بيد عليّ فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاده"[٢].

(١) الطبري ج٢/ ٣١٩

(٢) المستدرك ج٣/ ١٠٩

المحاولة الثالثة: أراد لها أن تكون (خطّية)، بمعنى وثيقة رسميَّة، وذلك حين كان (صلى الله عليه وآله) على فراش الموت فقال لهم: "ائتوني بدواة وكتف، أكتبُ لكم كتابا لن تضلّوا بعده أبدا، فقالوا فيه: هجر رسول الله"(١).

من هنا وجب أن يتميّز المعصوم (عليه السلام) بخصائص تؤهّله لإدامة مسيرة النبوّة إلى قيام الساعة، وهي خصائص تقتضيها طبيعة المهمَّة الرساليَّة، وتعطي (للعهد الربَّاني) مكانته الرفيعة ومقامه المقدَّس.

وإذا كان الموضوع يقتضي الإسهاب؛ لأهمّيته الكبيرة، فإنَّ الاختصار يفرض علينا أنْ نقتصر على أهم تلك الخصائص، ونكتفي بالرجوع إلى المصادر المتخصَّصة في هذا الشأن.

إنَّ من أهمّ خصائص الإمام المعصوم (الوارث) للنبوّة، التي تميّزه عن غيره وتؤهّله لقيادة مسيرة الأمّة وإثرائها فكريّا وعقائديّا وتشريعيّا على طول الخط وبلا حدود للزمان والمكان، يمكن تلخيصها فيما كتبه المرحوم الشيخ محمّد حسين المظفّر (قدس سره) في كتابه الرائع (علم الإمام)، ننقل منه ما يخصُّ موضوعنا بتصرّف يسير. قال (قدس سره): "ما دلّ من الكتاب على علمهم الحضوري: لقد نطق الكتاب المجيد في عدة آيات بعلمهم

(١) البخاري / كتاب الجهاد والسير، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة

الحضوري، نذكر منها بعض الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾، إنَّ النبيَّ وخلفاءه الأئمة من الراسخين في العلم، الذين قرن الله جلَّ شأنه علمهم بالتأويل بعلمه، فعلمهم بالتأويل في عرض علمه، وكيف يعلمون التأويل وعلمهم غائب عنهم؟ وكيف يقرنهم جلَّ شأنه في العلم بعلمه وعلمهم غير حاضر لديهم؟. ومنها قوله سبحانه: ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**﴾، ولا شكَّ في أنَّ نبيّنا الأكرم ممّن ارتضاه تعالى للاطّلاع على غيبه بالاخبار في تفسير هذه الآية الكريمة صريحة بهذا، وهل العلم الحضوري إلّا الاطّلاع على الغيب؟

وهل المستبعد المستعظم لحضور علمهم إلّا لكونه غيبيًّا، والغيب ممّا استأثر به العلام شأنه. فأين هو عمّا نوّهت به هذه الآية الكريمة؟ وأمَّا الإمام فهو الوارث لعلم الرسول، وخصائله كافَّة. ومنها قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾، وقد جاء في تفسيرها أنّ الأذن الواعية هي أذن أمير المؤمنين عليه السلام، وأنَّها وعت ما كان وما يكون. ومنها قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ**﴾ إلى غيرها من الآيات المصرِّحة بوجود الشاهد على الأمّة يوم البعث والحساب، وقد فُسِّر بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

وأوصيائه الأمناء. وكيف يكونون الشهداء على الناس، وهم لا يعلمون شيئًا من حالهم، ولا يدرون ما يعملون...؟ وهل يكون الشاهد إلّا الحاضر المطَّلع؟. وقوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾، فبهذا نفهم أنَّه (صلى الله عليه وآله وسلم) عالمٌ بكلِّ شيء، ولا يكون ذلك إلا بالحضوري، وما انتهى إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد انتهى إليهم.

ما دلّ من الحديث على علمهم الحضوري ما صرَّحتِ به الأخبار، وأنبأت بوضوح، بما كان عليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من ولده، من ذلك العلم الحاضر، ونورد طرفا منه في ضمن طوائف.

الطائفة الأولى: الأئمةُ خزنةُ العلم والحجّة البالغة: صرَّحتْ طائفة من الأحاديث أنَّ الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) هم خزنة علم الله وعيبة وحيه، وأنَّهم الحجّة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض، إنَّ علم الله سبحانه لا يُحصيه حاسب ولا يحصره كاتب، وهل يكون الخازن جاهلاً بما في الخزانة والعيبة؟ وكيف تكون تلك الحجّة البالغة؟ وليس لديهم علم بالحوادث والأعمال، لتكون مخبرة لهم عمّا يعملون عند الإعجاز والكرامة، وإنَّ عمومَ العلم المخزون عندهم شاملٌ لكلِّ أمر من حكم أو موضوع كلّي أو جزئي.

الطائفة الثانية: علمهم بما في السماء والأرض: صرَّحتْ هذه الطائفة من الأحاديث بأنَّ الله سبحانه وتعالى أجلُّ وأكرمُ من أن يفرض طاعة عبد يحجب علم السماء والأرض عن الإمام ما يستلزم النسبة إلى الله بما ينافي كرمه وجلالة شأنه، بل لو حجب ذلك العلم عنه لما صحَّ أن يكون مفترَضَ الطاعة، وكيف تكون طاعته مفروضة وليس لديه علم ما يسأل عنه.

الطائفة الثالثة: إنَّ الأئمة هم الراسخون في العلم والذين أوتوا العلم، ونطقت هذه الطائفة من الأحاديث بأنَّ الراسخين في العلم عُلّموا تأويل القرآن، والمقرون عليهم بالتأويل بعلمه جلّ شأنه هم الأئمة من أهل البيت، وأنَّهم هم الذين قال الله تعالى عنهم في مُحكم كتابه ﴿**آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾، كيف يا ترى شأو العلم يقرنه الجليل تبارك وعلا بعلمه؟ وكيف يا ترى شأنهم والله تعالى يُخبر عنهم بأنَّهم الراسخون في العلم وأنَّهم أوتوه وأثبت في صدورهم؟

ولو أمكن وصف علمهم بأعلى وأرفع من الحضوري لكانَ في هذه الأحاديث المفسّرة لتلك الآيات الكريمة مجال لذلك الوصف، وإنّما نسمّي علمهم بالحاضر لقصورنا عن إدراك وصف أسمى منه بل لجهلنا

لحقيقة ذلك العلم.

الطائفة الرابعة: الأئمة معدن العلم ووارثه: أنبأت هذه الطائفة أنَّ الأئمة (عليهم السلام) شجرة النبوّة، وبيت الرحمة، ومعدن العلم ومختلف الملائكة وموضع الرسالة، وورثة العلم يورثه بعضهم بعضا.

وهل يريد المرء بالإفصاح عن علمهم الحضوري بأجلى من هذا البيان وأظهر من هذا المفاد؟ وكيف يكونون معدنا للعلم ولا علم يحضر هذا المعدن؟ وكيف يتوارثون العلم، والمتوارث شيء غير موجود؟

ولو ادّعي أنَّها تختصّ بالعلم بالأحكام وموضوعاتها الكليّة، فلا نجد مسوِّغا لهذه الدعوة، واللفظ عام والعموم أليق بتلك المنزلة. ومن يتحلّى بتلك الصفات الشريفة التي أخبرت عن بعضها هذه الأحاديث لا يستغرب من علمه إذا كان حضوريا وحاصلاً لديه في كلّ حين، ومن يكون مختلفا للملائكة وموضعا للرسالة وبيتا للرحمة وشجرة للنبوّة كيف لا يكون حاضر العلم يدري بما يعمل الناس ويصف لهم ما تنطوي عليه سرائرهم.

الطائفة الخامسة: الأئمة ورثة علم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): نطقت هذه الطائفة بأنَّ الأئمة (عليهم السلام) ورثة علم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنَّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورث جميع علوم الأنبياء والرُّسل ومنهم أولي العزم، فهذه الطائفة أخبرتنا بأنَّ علم العالم كلّه وصل إليهم، واجتمع عندهم، فكلُّ ما كان للأنبياء والرسل

وأوصيائهم من علم فهو قد انتهى إليهم وورثوه منهم.

وهل بعد هذا العلم الذي كان عليه كافة الرسل وصار لديهم يبقى مجال لأن يُقال بأنَّ علمهم ليس بحاضر، بل حضوره تابع للإشاعة فإذا لم يكن حاضرًا لديهم فأيّ شيء ورثوه إذا؟

الطائفة السادسة: إنَّ لديهم جميع الكتب ويعرفونها على اختلاف ألسنتها: أخبرت هذه الطائفة بأنَّ عند الأئمة (عليهم السلام) جميع الكتب السماويَّة ويقرؤونها على اختلاف ألسنتها.

إنَّ في الكتب علم الأول والآخر والسالف والحاضر، وعلم الأحكام والحوادث والمنايا والبلايا وكل شيء، فليت شعري هل يقرؤون تلك الكتب وهم يجهلون ما يقرؤون أو يعرفون بعضها وينكرون بعضها؟ إنَّ هذا لشيء عجاب.

الطائفة السابعة: الأئمة يعلمون الكتاب كلّه: صرَّحت هذه الطائفة من الأحاديث بأنَّ الأئمة يعلمون ما في القرآن المجيد، حتّى قال الصادق(عليه السلام): "والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره كأنَّه في كفّي، فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾.

وهل يطلب الباحث أثرا بعد عين، أفترى أنَّه أراد من العلم بكتاب الله

الذي فيه تبيان كلّ شيء من خبر السماء والأرض وما كان وما هو كائن هو العلم بالأحكام أو موضوعاتها، لا الحوادث والأعمال وما وقع وما يقع من شؤون العالم، وهل يجوز لذي علم أو ذوق أن يحمل هذا البيان على ذلك القصد؟ وهل أصرح من هذا البيان بالعلم بشؤون العالم سابقه وحاضره ولاحقه.

الطائفة الثامنة: عندهم جميع العلوم: أفصحت هذه الطائفة من الأحاديث عن سعة ذلك العلم الذي كان عند الأئمة الأمناء، فإنَّها أفادت أنَّ لله تعالى علمين، أولهما: علم أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله، فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه علمناه، وثانيهما: علم استأثر به، فإذا بدا لله في شيء منه أعلمنا بذلك، ولا أدري ما وراء هذا يراد من الحضوري؟ ولأيِّ شيء بعد هذه الصراحة يصار إلى الأشياء؟

الطائفة التاسعة: يعلمون حتى بانقلاب جناح الطائر: بيّنت هذه الطائفة من الأحاديث بأنَّه ما ينقلب جناح طائر في الهواء إلّا وعند الأئمة علم منه، أوليس هذا صريحا في شمول علمهم حتى للجزئي من الحوادث، ووقوفهم على كلّ ما يقع ويكون، فوق ما وقع وكان.

الطائفة العاشرة: إنَّ الأئمة شهداء على الناس: نطقت الأخبار الكثيرة

بأنَّ النبيّ والأئمة عليهم السلام يكونون شهداء على الناس يوم العرض والحساب، أترى يكون أحد شهيدا على أحد، وهو لا يعلم ما اقترف، ويخبر عمّا كان عليه وهو لا يدري ما عمل؟، هذا كلّه هو بعض ما نطقت به الأخبار، إذ ليس الغرض الاستقصاء، بل القصد عرفان ما كانوا عليه من ذلك العلم الزاخر"[١].

سادسا: وراثته لجميع مواريث الأنبياء:

من العلامات الإعجازيَّة والتشخيصية للإمام المهدي (عليه السلام) التي نصَّت عليها طائفة كبيرة من النصوص هي إنَّ الإمامَ الحجّة (عليه السلام) يمتلك جميع مواريث الأنبياء(عليهم السلام)، وهذه المواريث بحدها الأدنى هي:

١- الكتب السماويَّة السابقة: التي هي التوراة والانجيل وصحف إبراهيم ومزامير داود: ولابدّ أن تكون هذه الكتب بهيأتها الأولى، وليست نسخا أو مضامين مُترجمة وما شابه، كي تكون دليلَ صدق على تشخيص هوية الإمام الوارث (عليه السلام). ولكن كيف يمكن أن نتأكَّد أنّها هي النسخ

(١) علم الإمام: الشيخ محمّد حسين المظفر: ٤٣-٤٥

الأصليَّة التي أنزلها الله تعالى، أو أنّ تاريخها يعود إلى أزمنتهم السالفة؟

الجواب: إنَّ الكتب السابقة إمَّا أن تكون فيها عناصر إعجازيَّة ذاتية تجعلنا نقطع بأنَّها حقّا هي الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، وإمَّا أن يثبت الإمام الحجّة ذلك بطريقة أو بأخرى، بحيث يحصل القطع بأنَّها الكتب الأصليَّة المُنزلة من عند الله تعالى.

٢- معجزات الأنبياء التي أثبتوا بها نبوتهم، والتي أيَّدهم الله تعالى بها نحو عصا موسى (عليه السلام)، وقميص يوسف، وما ترك آل داود وأمثال ذلك، فالإمام هو الذي يمتلك عصا موسى (عليه السلام) التي إذا ألقاها تتحوّل إلى ثعبان، وقميص يوسف الذي إذا ألقي على وجه الأعمى صار بصيرا وهكذا.

٣- ما ترك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من بعده (عليه السلام): ومنها كتبه التي أملاها وهي بخطّ أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، ورايته وسيفه، وكذلك سيف علي (عليه السلام) ذو الفقار، والقرآن على وفق ما أُنزل ونحو ذلك.

ونحن نلحظ – بل هو من صميم عقيدتنا – أنَّ أئمة أهل البيت(عليهم السلام) هم ورثة الأنبياء (عليهم السلام) وأنَّ الإمام المهدي (عجَّل الله تعالى فرجه الشريف) هو الوارث للجميع. وجعلوا مفهوم الوراثة بِبُعديه – المادي والديني – دليلاً على أحقيتهم لحُكم الأمّة بعد رسول

الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان بإمكان أيّ حاكم أموي أو عباسي أن يُبطل هذا (المدعي) بمحاجتهم والمطالبة بالموروث الماديّ للأنبياء (عليهم السلام) فإنْ عجزوا ثبت عدم أحقيتهم، وهذا ما لم يحدث؛ لأنّهم على يقين بأنَّ أهل البيت (عليهم السلام) ورثة الأنبياء، وعندهم تركة الأنبياء المقدَّسة.

ومن المؤكد أنّ (ادّعاء) وراثة الأنبياء ليست بالعملية السهلة؛ لأنها بطبيعتها تقتضي الدليل المادي المحسوس، ونجد على طول خطّ الإمامة أنّ كلّ إمام منهم (عليه السلام) يؤكّد أنّ عنده مواريث الأنبياء، وليس فقط ما ورثوه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي يكون عادة مفهوما وممكنا، إلا أنّ وراثة الأنبياء عملية إعجازيَّة خارجة عن نطاق القدرة الإنسانيَّة، لأنّ الاحتفاظ بكتبهم التي نزلت قبل آلاف السنين من دون أن يعتريها البلى خارج عن قدرة الإنسان، ولاسيما في تلك الأزمنة، فإذا أظهرها أهل البيت (عليهم السلام) وبخاصَّة قائمهم (عليه السلام) كانت دليلاً ماديا محسوسا على صدق إمامته، وهناك كثيرٌ من النصوص التي تؤكّد هذا المعنى نذكر منها على سبيل المثال ما جاء عن ضريس الكناسي قال: "كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) وعنده أبو بصير، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إنّ داود ورث الأنبياء وإنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمدا ورث سليمان وما هناك، وإنّا ورثنا محمدا، وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى، فقال له

أبو بصير: إنّ هذا لهو العلم، فقال: يا أبا محمّد ليس هذا هو العلم إنَّما هذا هو الأثر، إنَّما العلم ما حدث بالليل والنهار يوما بيوم وساعة بساعة"[١].

وكذلك رواية عبد الله بن مسكان وشُعيب الحداد عن أبي بصير قال: "قال أبو عبد الله (عليه السلام): عندنا الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى، فقال له ضريس: أليست هي الألواح؟، قال: نعم"[٢].

ومنها رواية الاختصاص عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال: كانت عصا موسى لآدم سقطت إلى شُعيب ثمّ صارت إلى موسى، وأنّها لعندنا، وإنّ عهدي بها آنفا، وإنّها لخضراء كهيأتها حين انتزعت من شجرتها، وإنّها لتنطق إذا اُستنطقت، أُعدّت لقائمنا، يصنع بها ما كان موسى(عليه السلام) يصنع بها، وإنّها لتروع وتلقف ما يأفكون، وتصنع ما تُؤمر، فكان حيث أقبلت تلقف ما يأفكون"[٣]. وأمثال ذلك كثير تجده في كتاب الكافي للكليني، والبحار للعلامة المجلسي، فمن شاء فليراجع ليتعرف بشمولية على خصائص الإمام المعصوم وسعة علمه ووراثته للنبي (صلى الله عليه وآله)

(١) بصائر الدرجات / ١٥٧

المصدر السابق

(٣) الاختصاص للشيخ المفيد / ٢٧٠

والأنبياء(عليهم السلام) وأمور أخرى في غاية الأهمية.

الثالث: حديث الملائكة: تقدَّم الكلام عن إمكانية سماع كلام الملائكة، بل رؤيتهم إذا شاء الله ذلك لمن ارتضى من عباده من غير الأنبياء، ونعتقد أنّ الأئمة (محدثون)؛ لأنّ الله تعالى ارتضاهم: فقد جاء عن عبيد بن زرارة قال: "أرسل أبو جعفر (عليه السلام) إلى زرارة أن يُعلم الحكم بن عتيبة أنّ أوصياء محمّد عليه وعليهم السلام محدثون"[١].

وعن علي بن يقطين عن أبيه قال: "سألت أبا الحسن (عليه السلام) عن شيء من أمر العالم، فقال: نكتٌ في القلب، ونقر في الأسماع، وقد يكونا معا"[٢]. وعن الحارث بن مغيرة النضري قال: "قلت لأبي عبد الله(عليه السلام): ما علم عالمكم؟ جملة يقذف في قلبه أو ينكت في أذنه؟، قال فقال: وحي كوحي أم موسى"[٣].

والنصوص متضافرة في تأكيد هذا المصدر المهم من المعرفة لدى الأئمة (عليهم السلام)، وأنّه لولا ذلك لنفد ما عندهم من رصيد علمي، فقد قال

---

(١) الكافي ج١ / ٢٧٠

(٢) بصائر الدرجات / ٩١

(٣) بصائر الدرجات/ ٩٢

الإمام الصادق (عليه السلام): "إنّه إذا كانت ليلة وافى رسول الله (صلى الله عليه وآله) العرش، ووافى الأئمة (عليهم السلام) معه، ووافينا معهم، فلا ترد أرواحنا إلى أبداننا إلا بعلم مستفاد، ولولا ذلك لنفد ما عندنا"(١).

ونجد في النصوص تأكيدا على سلامة هذا المصدر وأنّه ليس من إلقاء الشيطان، أو شياطين الجن وأمثالها وإنّما هو فيض وتأييد رباني لهم؛ لأنّ الإمامة بذاتها تحتاج لهذا الدعم الذي فيه قوام حركتها القياديَّة. فقد روى زرارة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: "قلت: كيف يعلم أنّه كان المَلَك، ولا يخاف أن يكون من الشيطان إذا كان لا يُرى الشخص؟، قال: إنّه يُلقي عليه السكينة فيعلم أنّه من المَلَك، ولو كان من الشيطان لاعتراه فزع. وان كان الشيطان لا يتعرّض لصاحب هذا الأمر"(٢).

إنَّ الإمامَ يشير إلى أهمّ عناصر صحَّة وسلامة عملية التلقي، التي من جملتها أنّ المعصوم (عليه السلام) لا يتسلّط عليه الشيطان؛ لأنّ ولاية الشيطان إنَّما تكون على الذين يتولونه ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾(٣) وليس له سلطان على المؤمنين: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ**

(١) البحار ج١٧ / ١٥١

(٢) بصائر الدرجات / ٩٢

(٣) النحل / ١٠٠

عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١).

ولو استقرأنا ما صدر عن أئمتنا (عليهم السلام) – على الرغم من البُعد الزمني بين أوّل وآخر إمام – (عليه السلام) نجده يتطابق مع حقائق القرآن وثوابت الإسلام، بل يدعم حقائق التوحيد وتكريس العبودية لله وحده لا شريك له، وأهمّ عنصر فيها إقرارهم بالافتقار إلى الله تعالى في كلّ شيء، والاعتراف له بالعبودية وعدم الاستقلالية عن الله في كلّ شيء، وأنّ علومهم ومعرفتهم مكتسبة. وعلم الله عين ذاته، والمعصوم ليس كذلك.

ولو تتبعنا النصوص الواردة بهذا الشأن لوجدنا فيها عناصر كثيرة تؤيّد ذلك وتثبت أنّ المعصوم (عليه السلام) إنَّما يعمل لترسيخ حقائق الدِّين، ويدفع عنها الزيغ والتحريف، وهذا يتضاد مع دور الشيطان في الإضلال والدعوة إلى الشرك والكفر.

وذكر الإمام (عليه السلام) عنصرا مهمّا لإثبات صحة التلقي وهو (السكينة) التي ترافق عملية (التحديث)، وهي ثابته باستمرار مع كلّ عملية (تحديث).

وقد جاء ذكر السكينة في القرآن الكريم بوصفها عنصر اطمئنان يقترن

---

(١) النحل / ٩٩

مع أحداث مهمة تقتضيه، لتأكيد صحّة المبدأ، أو صحة الموقف، وتأكيد ارتباطه بالله، قال تعالى: ﴿**فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**﴾(١). وقال عز وجل: ﴿**فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا**﴾(٢).

فاشترك في (السكينة) الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وطائفة من المؤمنين، لتأكيد حالة الارتباط بالله عز وجل، وتأكيد حالة الاطمئنان القلبي اليقيني بصحة (الموقف).

وذكر (عليه السلام) أنّها لو كانت من الشيطان لاعتراه الفزع؛ لأنّه لم يكن مُهيّاً (للتحديث) بل يُفاجأ بصوت يفزعه؛ لأنّه لم يكن ضمن منهج يستند إلى حقائق الدِّين، في حين تسبق (السكينة) الحدث أو تقترن به فتُوجب الاطمئنان واليقين.، ثمّ أنّ (السكينة) عنصر خارج عن اختيار الإنسان بل هي شيء (ينزل) وقد نسبها الله عز وجل إليه (سكينته)، فإذا ما أنزلها على أحد من عباده ظهرت آثارها سلوكيا وقلبيًّا، على وفق ما هو ظاهر الآيات المباركات.

ونجد في سيرة أئمتنا كثيرا ممّا يثبت صحة هذا المنهج، وأنّ الملائكة تحدِّثهم وتخبرهم بما يلزم من أجوبة للأمور الحادثة والمُستجدة التي لا جذور لها في الكتاب والسنة.

---

(١) الفتح / ٢٦

(٢) التوبة / ٤٠

علامات الظهور

علامات الظهور:

علامات الظهور بمُجملها إشراقات نبويَّة تدعم حقائق الدين، وتكشف عن حجم ارتباطها بالله عز وجل، وتؤكّد صحّة الإمامة وأنّها لا تنطق عن الهوى وإنّما تستند إلى منابع الوحي والرسالة.

نستيقن بهذه النتيجة حينما نتتبع مسيرة العلامات على امتداد تاريخها الذي بدأ بالغيبة الكبرى عام ٣٢٩هـ ومازالت، فنجد تحقق بعضها وكأنّه وحي يُوحى، وآيات باهرات تثبت حجم ارتباط (الإمامة) بالله تعالى، وأنّها عهده إلى خيرة خلقه الذين جعلهم حُججا على عباده، **إلّا** أنّ المُؤسف أنّ معظم النصوص الموجودة بين أيدينا فيها شيء من الغموض أو التشويش، أو نجد لغة غريبة تتحدّث عن أماكن وأسماء وعلامات واصطلاحات غير مفهومة وغير واضحة.

وبما أنّ لهذا الموضوع أهمية بالغة؛ لأنّه يتعلَّق بعصر الظهور لبقية الله الأعظم (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) كان لابدّ من بحثه بشكل موضوعي ومنطقي لتحديد وتشخيص الموقف من علامات الظهور، وكيفية التعامل معها عمليا؛ لأنّ الغموض والتشويش الذي يكتنف معظم النصوص، يؤثر سلبا في فهم أبعاد النهضة المهدوية، وعملية التهيؤ لها فكان لابدّ من إجلاء الصورة بما يقرب من الواقع؛ ولأجل رفع اللبس وكشف الغموض يجب أن نُشير إلى عدة حقائق تمسّ الموضوع، وتوضح بعض أبعاده:

١- من المنطقي حينما يتحدّث المعصوم (عليه السلام) عن علامات ستقع بعد مئات السنين، تكون الحياة قد تغيّرت، والعقول البشريَّة قد تطوّرت، والإمام يُدرك ذلك ويعرف أنّ لكلّ زمان خصائصه ومواصفاته ولغته العلميَّة، فكان لابدّ من استعمال (لغة) رمزية تُشير إلى المعنى، أو تُعطي صورة قد يتباين الناس في فهمها ووضوحها ولكنّها في النهاية ستكون حقيقة مفهومة فيما بعد.

ونحن إذا لحظنا النصوص الواردة عن النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته(عليهم السلام) التي تتحدّث عن (المستقبل) وأعني: معرفة التغيير الذي يلازم الحياة نجدهم القمّة في التعامل مع أصعب عنصر يمكن أن يخطر على البال في عملية التعايش معه قبل وقوعه، إذ ليس من اليسير أن يتخطّى الإنسان بيئته وما تفرض عليه من معرفة وتقاليد وعادات ويعيش في زمن سيأتي بعد ألف سنة مثلاً. إنّها مُهمة تحتاج إلى دعم غيبيّ ربّاني.

وعلى سبيل المثال لو أخذنا المناهج التربويَّة، أعني الكتب والمؤلفات التي تتحدّث عن تربية الأبناء قبل ألف عام سوف لا نجد فيها ما يلبّي حاجة المجتمع الحاضر؛ لأنّ المؤلِّف لم يكن يرى إلا الواقع الذي يعيشه، والمشاكل التي يعاصرها، وهي ليست محلّ ابتلاء مجتمعنا الحالي، فضلا عن أنّنا اليوم لا نستطيع أن نكتب منهجا تربويّا لأجيال ما

بعد ألف سنة؛ لأننا لا نعرف طبيعة المُتغيرات التي ستحصل. ولو قدر لأحدنا أن يُؤتى (علم الغيب) ويعرف ما يُكتب فسوف لن يستغني عن اللغة الرمزية (اليوم) الواضحة (غدًا).

واعتقد أنّ المهم هو نوع اللغة الرمزية التي تُصاغ بها الحقائق، فتارة تكون من الوضوح بحيث يفهمها الجميع مع اختلاف في درجة الاستيعاب والتعمّق، ومثال ذلك قول أمير المؤمنين: "لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم"(١).

فلا نجد عبارة أجلى وأوضح تعبّر عن أهمية تحديث مناهج التربية الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة من هذه العبارة إلى يوم القيامة، اذ نرى اليوم أنّ هذه العبارة في غاية الوضوح؛ لأننا نشعر بسرعة التغيّرات الاجتماعيَّة وسرعة حركة الزمن، فما كان قبل عشر سنين غير ما هو الآن، إلا أنّ المجتمع قبل ألف وأربعمائة سنة لا يشعر بما نشعر به الآن؛ لأنّ وتيرة الحياة كانت بطيئة والزمن ثقيل، ومن الطبيعي أن تكون هذه العبارة حينها (مرمزة) عند معظم الناس.

ونجد كذلك لغة رمزية تتحدّث عن مرحلة الذروة بعد الظهور المقدس واستقرار الدولة المهدوية تبيّن الطريقة التي يتواصل بها قادة

---

(١) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢٠ / ٢٦٧

وأركان الإمام المهدي (عليه السلام) معه، ونرى اليوم أنّ (الترميز) ينخفض إلى درجة تمكننا من فهمها، فقد ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال: "إذا قام القائم بعث في أقاليم الأرض، في كلّ إقليم رجلا يقول: عهدك في كفّك، فإذا ورد عليك ما لا تفهمه ولا تعرف القضاء به فانظر إلى كفّك واعمل بما فيها..."[١].

ونص آخر عن ابن مسكان جاء فيه: "قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إنّ المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذلك الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق"[٢].

فمن الواضح أنّ قوله: (فانظر إلى كفّك واعمل بما فيها) قد يقرب معناه ما بأيدي الناس من أجهزة محمولة، وأجهزة حاسوب صغيرة تجعل عملية النظر إلى الكفّ مفهومة ومعقولة، وقربتنا من فكّ الشفرة، وإن كان ليس بالشكل الكامل، فقد يكون في عصر دولة الحقّ تطوّر أكبر يحصل على يد الإمام (عليه السلام).

---

(١) غيبة النعماني / ٢١٩

(٢) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٩١

والنصّ الآخر أكثر وضوحا إذ نرى أنّ إمكانية التخاطب السمعي والبصري بين المشرق والمغرب أصبحت مألوفة لا يهتم بها أحد، وهي من العلامات المُبشِّرة بقرب الظهور. ولو نظرنا إلى زمان صدور النص عن الإمام الباقر (عليه السلام) المولود عام (٨٣هـ) فإنّ امكانية التخاطب السمعي والبصري لا يتجاوز الوسائل الطبيعية (الأذن والعين) ولا يمكن للعقل أن يتصور وسيلة أخرى غيرهما، ولا يمكن أن يفترض أجهزة أخرى تقوم بهذا الدور؛ لذلك نرى الإمام (عليه السلام) أهمل بيان الكيفية واكتفى بالنتيجة، وها هي النتيجة نراها بأمّ أعيننا.

وتارة أخرى تكون اللغة الرمزية مُعقدة جدًّا بحيث لا يمكن فهمها إلا بمستوى افتراضات واحتمالات، وفي النتيجة لا نصل إلى نتيجة واضحة؛ لأنّ السبب يعود إلى طبيعة الموضوع المقصود، الذي لا يقبل إلا لغة التشفير ويترك أمره إلى الزمن، وإمّا أنّ الإمام (عليه السلام) قصد ذلك بسبب الظروف السياسيَّة والأمنية التي تفرض نوعا من التعمية على السلطة القائمة آنذاك، أو لأسباب أخرى يطول البحث بذكرها.

٢- إنّ أحد أسباب الغموض والضبابية في بعض نصوص علامات الظهور (التصحيف) وعدم الدقة في كتابة الكلمات وعدم ضبط النصّ، ما أسهم في إيجاد حالة من الغموض، ومثال على ذلك ما جاء عن أمير

المؤمنين علي (عليه السلام) في سبب خراب البصرة قائلا: "خراب البصرة بالريح"[١]. فلمّا دخل الزنج وخرَّبوها بعد المئتين من الهجرة علم الناس كلمة (الريح) هي (الزنج)، وعليه لو فرضنا أنّ الكلمة كانت (الزنج) فقد تحقّقت العلامة، وإنْ كانت (الريح) فهي لم تُخرَّب إلى الآن.

ومن المعلوم أنّ الكتابة كانت من دون تنقيط، وتُعرف الكلمات من السياق الذي يُحدد معناها، ولكن في بعض الأحيان يعجز السياق عن أداء دوره كما هو الحال في كلمتي (الريح والزنج).

٣ – الخلط بين علامات الظهور وعلامات القيامة، إذ نجد تداخلاً كبيراً يسبب اضطرابا في تحديد العلامات. وقد يُعزى السبب إلى أنّ معظم الكتّاب والمؤلفين أدخلوا مصادر إخواننا أهل السُّنة في موضوع عقيدتنا بالإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، إذ نلحظ مثلاً دخول (الدَّجّال) عنصرا من عناصر الظهور المقدس، ولا نجد لذلك أثرا في مصادرنا الأصلية نحو غيبة النعماني المولود في أوائل الغيبة الصغرى، وتتلمذ على الشيخ الكليني (رضي الله عنه)، وهو من علماء القرن الثالث الهجري. وكتابه (الغيبة) من أهمّ المصادر في موضوعه وأوثقها.

(١) إلزام الناصب ج١ / ٢١٣

ومن المعروف أنّ خلافا كبيرا وقع بين السُّنة والشيعة في العقيدة بالمهدي (عليه السلام) انعكس في نصوصهم عن المهدي وعلامات الظهور، فليس من الصحيح منهجيا إدخال تلك النصوص في تحديد حركة الظهور بسبب اختلاف النظرة العقائديَّة بيننا وبينهم في عقيدة المهدي عجل الله فرجه الشريف.

٤ – التحريف الكلّي أو الجزئي سبّب غموضا وارباكا في بعض النصوص المتعلقة بالظهور، أو بعقيدة المُصلح الأكبر (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وهي كثيرة ومنتشرة في الكتب المُختصة، ولكن لحُسن الحظّ أنّ كثيرا منها واضح التحريف، بيّن الزيف والزيغ، من ذلك ما رواه الطوسي (ره) عن عبد الله بن مسعود قال: "قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً منّي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض عدلا كما مُلئت ظلما"[١]. وهذا خلاف ما أجمعت عليه الطائفة وما تواتر عن أهل اليت (عليهم السلام) من أنّ اسمه الإمام (محمّد بن الحسن) (عليه السلام)، والروايات التي تؤكِّد هذ المعنى كثيرة جدّا.

ومن الواضح أنّ تحريف الاسم يُقصد به ابطال عقيدة الإمامة؛ لأنّه لو كان اسم الإمام (محمّد بن عبد الله) لاختل تسلسل الأئمة إلى

(١) الغيبة للشيخ الطوسي / ١٨١

الحسين (عليه السلام) ولبطُل إخبار النبي والأئمة بأنّه التاسع من ولد الحسين (عليه السلام)، وبالنتيجة انهيار عقيدة الإمامة وتصحيح فكرة الشورى. والتحريف ليس من شيخ الطائفة قدس سره وإنّما من بعض الرواة أو النُّساخ.

وكذلك يقصد بالقول إنّ الإمام العسكري لم يخلف، وإنّه لا ولد له، وأنّه أوصى بتركته إلى أمّه، ابطال تسلسل الأئمة وتكذيب رسول الله والأئمة (عليهم السلام) في الموضوع نفسه.

ومن المحاولات المعروفة ابدالهم لكلمة عُترتي بـ (سُنتي) في حديث الثقلين المشهور. وهي محاولات معروفة يُراد بها نفي عقيدة الإمامة التي هي عندنا أصل من أصول الدين.

٥ – ونرى تأثير العنصر الذوقي المعبّر عن ثقافة وعقلية وآمال بعض الكتّاب في تفسير أو تأويل بعض النصوص، واقحامها بحقّ أو بغير حقّ في مسألة الظهور، من دون تريّث أو احتياط، اذ نرى (الحُكم العباسي) حُكمين، الدولة العباسية الأولى وقد انتهت، والدولة العباسية الثانية قبل الظهور. ونرى (الحرب اللبنانية الداخلية) عام ١٩٨٤م من علامات الظهور، وكتب عنها كثير بأنّها (فتنة الشام)، أو أنّ المهدي (عليه السلام) يظهر في زمن المرجع الفلاني استنادا إلى رؤىً شخصية وأمثال ذلك.

لقد أثّر ذلك وأسهم في إسباغ قدر كبير من التشويه والتشويش في فهم العقيدة، وقد يتسبب ذلك في تشكيك الناس فيها وتنفيرهم، أو تخاذلهم عن الاستعداد لعصر الظهور، والعمل بالتكاليف الشرعيَّة المقررة لهذه المرحلة، بل قد أسهم في زعزعة الناس بأصل من أصول الدين المُهمة.

علامات لا علاقة لها بالظهور:

وإذا لحظنا مُجمل النصوص الواردة بشأن علامات الظهور نجد أنّ بعضها لا علاقة له بالظهور وإنما أقحمها بعض الكتّاب والمؤلفين فيما كتبوه عن الإمام المهدي(عليه السلام)، فولّد ذلك ارتكازا على اعتبارها من علامات الظهور.

ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى منهج علمي نُحدد عن طريقه النصوص المتعلّقة بالظهور ممّا عداه؛ لأهمية النتائج التي تترتب عليه، التي تكون في بعض الأحيان خطيرة جدًّا، ولاسيما إذا كانت العلامات حدّية تشبه إلى حدٍّ كبير التوقيت للحظة الظهور المقدّس، وحين لا يحصل الظهور بعدها تبدأ عملية التشكيك بأصل وأسس العقيدة بالإمام المهدي(عليه السلام).

ومن الطبيعي أنّ التقصير في هـذا لا يرجـع إلـى العقيـدة نفسـها، وإنّمـا إلى افتقارنا للمنهج الصحيح الـذي يُحـدد معـالم القضـية المهدويـة، التـي منهـا روايـات عصـر الظهـور، فلـيس مـن الصـحيح خلـط جميـع الأوراق وإلقائها في خانة العقيدة، وتحميلها ما لا تحتمل. ومن جملة ذلك تحميـل الإمامة لانشقاق الشيعة إلـى زيديـة وإسـماعيلية وغيرهمـا، واعتبـاره دلـيلا على عدم صـحة الإمامـة. إن العقيـدة لا تتحمـل جهـل النـاس واجتهـادهم فيما هو ليس اختصاصهم.

وعلى هذا الأساس وجدتُ من الضروري الإشارة إلى بعض الأبعـاد التي يمكن أن تُسهم في إعطاء رؤية منهجية عن علامات الظهـور، وتضـييق دائـرة النصـوص التـي تتحـدّث عـن العلامـات دون سـواها مـن الأحـداث دفعـًا للشـبهات التي تـرد علـى أذهـان الشـباب الـذين لا يملكـون دراسـة تخصصية في هذا المجال.

إشـراقـات نـبـويّـة:

نجد نصوصًا كثيرة تمثل اشراقات نبويَّة تتحدّث بعين الحضـور، عـن واقع آخر الزمان، وهي تتنـوع بتنـوع الموضـوعات، فتـارة يتحدّث رسـول الله (ﷺ) عن تبدُّل نوايا الناس عن الفطرة التي فطر الله النـاس عليهـا إلـى

نوايا السوء والشرّ، وأخرى تتحدّث عن عقوق الأبناء لآبائهم وتبدّل القيم الأخلاقيَّة والروحية داخل الأسرة أو المجتمع، ويتحدّث عن الانحطاط الأخلاقي وعدم العناية بالقيم الربّانيَّة وأمثال ذلك.

وهذه الأمور تعدّ إشراقات نبويَّة تكشف عظمة نبوته (صلى الله عليه وآله وسلم) وحجم ارتباطها بالسماء، ومواكبتها للأمة وترشيد مسيرتها، وتقديم النصح لها بعد رحيله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الرفيق الأعلى، من تلك الإشراقات قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): "يأتي على الناس زمان يكون فيه حجّ الملوك نُزهة، وحج الأغنياء تجارة، وحجّ المساكين مسألة"[(١)].

وقال أيضا (صلى الله عليه وآله وسلم): "يأتي على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه إلا بالمعصية"[(٢)]، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): "يأتي على الناس زمان لا يُبالي الرجل ما تلف من دينه إذا سلمت له دنياه"[(٣)]، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): "يأتي على الناس زمان يكون الناس فيه ذئابا، فمن لم يكن ذئب أكلته الذئاب"[(٤)]. وقال أيضًا(صلى الله عليه وآله وسلم): "كيف بكم إذا فسدت نساؤكم، وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟، فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟،

---

(١) منتهى المطلب ج٢ / ٨٨٥

(٢) التحصين لابن فهد الحلي / ٤

(٣) تحف العقول / ٥٢

(٤) تحف العقول / ٥٤

فقال: نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا أُمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟! فقيل له : يا رسول الله ويكون ذلك؟، فقال: نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف مُنكرا والمُنكر معروفا"[١].

وقال(ﷺ): "سيأتي على أمّتي زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا اسمه، يُسمّون به وهم أبعد الناس منه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى"[٢].

هذا غيض من فيض ممّا أخبر به رسول الله (ﷺ) عن الواقع الديني والاجتماعي والتردي الأخلاقي الذي وصلت إليه الأمّة اليوم، ونرى كلامه (ﷺ) باللغة التحذيرية الضمنية التي تهيئ النفوس إلى الاحتياط والحذر من الانغماس في الواقع المُنحرف، والدعوة الضمنية إلى الإصلاح عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر.

وهي على وفق ما نرى لا علاقة لها باليوم الموعود، وليست من علامات الظهور، إنّما تدلّ على انحراف المجتمع وابتعاده عن القيم الربّانيَّة والقرآنية، وهذا الانحراف لا تعدو أسبابه إمّا إلى عدم قدرة الإسلام على بناء المجتمع، وهذا لا يقول به إلا خارج عن الإسلام، وإمّا

---

(١) وسائل الشيعة ج١٦ / ١٢٢

(٢) إثبات الهداة ج١ / ٢٩٢

إلى خطأ في المنهج القيادي الذي اختارته الأمّة بعد الرسول وأدّى إلى هذه النتيجة التي تنبّأ بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو ما يصدقه الواقع ويشهد به التاريخ.

إشراقات الإمامة:

ونجد ما يشاكل ذلك في أحاديث أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وقد تحدّثوا عن أمور قد وقعت، وأحداث قد تحققت، وهي تدلّ على أنّ الأئمة (عليهم السلام) همُ لسان الوحي وتراجمته، وورثة النبوّة والأمناء على مسيرتها ومستقبلها.

وقبل أنْ نتحدّث عن أهمية هذا الموضوع وتأثيره وافرازاته نعرض نماذج ممّا صدر عن أهل البيت(عليهم السلام) التي رسمت معالم بعض الأحداث المُهمة قبل وقوعها، ثمّ صدقها الواقع بكلّ التفاصيل، منها إخبار أمير المؤمنين عن بناء بغداد، واتخاذها عاصمة للخلافة العباسية، ومركزا للترف والفسوق والفجور، ومرتعا للطغيان والظلم والاضطهاد، ثمّ أوضح كيفية زوال مُلك العباسيين على يد المغول بقيادة هولاكو.

يقول (عليه السلام): "الزوراء وما إدراك ما الزوراء؟! أرض ذات أثل، يشيّد فيها البُنيان، ويكثر فيها السكان، ويكون فيها مهارم وخزان، يتخذها ولد العباس موطنا، ولزخرفهم مسكنا، تكون لهم دار لهو ولعب، يكون بها

الجور الجائر، والحيف المحيف، والأئمة الفجرة، والقُّراء الفسقة، والوزراء الخونة، تخدمهم أبناء فارس والروم. لا يأتمرون بينهم بمعروف إذا عرفوه، ولا ينتهون عن منكر إذا أنكروه، تكتفي الرجال منهم بالرجال، والنساء بالنساء. فعند ذلك الغمّ الغميم، والبكاء الطويل، والويل والعويل لأهل الزوراء من سطوات الترك، وما هم الترك؟ قوم صغار الحدق، وجوههم كالمجان المطرقة، لباسهم الحديد، جُرد مُرد، يقدمهم ملك يأتي من حيث بدأ مُلكهم، جهوري الصوت، قويّ الصولة، عالي الهمة، لا يمرّ بمدينة إلا فتحها، ولا ترفع عليه راية إلا نكسها، الويل الويل لمن ناواه، فلا يزال كذلك حتى يظفر..."[١]. وقد وقع ذلك تماما.

ومنها: إخباره عن غرق البصرة وخرابها بما في ذلك مسجدها في خطبة خطبها بعد معركة الجمل قائلا: "وأيمُّ الله لتغرقنّ بلدتكم حتى كأنّي أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامَّة جاثمة"[٢]. وفعلا غرقت البصرة مرّة في زمن القادر بالله الذي بويع بالخلافة سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م، ومرة في زمن القائم بأمر الله سنة ٤٢٢هـ ١٠٣١م بحسب المصادر التاريخية.

---

(١) ميزان الحكمة عن كشف اليقين ج٣/ ٢٣٢١

(٢) نهج البلاغة ج١/ ٤٥

ومنها: إخباره بالتفاصيل الدقيقة عن تأسيس الدولة البويهية، قال في كتاب الغارات ما نصه: "...ويخرج من ديلمان بنو الصياد ،، إشارة إليهم وكان أبوهم صياد السمك يصيد منه بيده ما يتقوَّت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكا ثلاثة ونشر ذريتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم"[١].

وقوله (عليه السلام) فيهم: "ثمّ يستشري أمرهم حتّى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء، فقال له قائل: فكم مدَّتهم يا امير المؤمنين؟، فقال: مائة أو تزيد قليلاً". وقوله فيهم أيضا: "والمُترف ابن الأجذم يقتل ابن عمّه على دجلة"[٢].

وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن مُعزّ الدولة أبي الحسين، وكان عزّ الدولة أقطع اليد، قُطعت يده النكوص في الحرب، وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترفا صاحب لهو وطرب وقتله عضد الدولة فناخسرو ابن عمّه بقصر الجصّ على دجلة في الحرب وسلبه ملكه. وأمّا خلعهم للخلفاء فإنّ مُعزّ الدولة خلع المستكفي ورتّب عوضه المُطيع، وبهاء الدولة أبو

(١) البحار ج٤١/٣٥٢

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٧/ ٤٩

نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتّب عوضه القادر، وكانت مدّة مُلكهم على وفق ما أخبر به عليه السلام"[١].

ولو تتبعنا سيرة بقية الدلائل والوقائع التي أعطت رؤية غيبيَّة – في أغلبها تفصيليَّة – عن المستقبل وما يؤول إليه أمر الأمّة الإسلاميَّة، أفرادا وجماعات، منها مثلا قول سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) لعمر بن سعد (لع): "ما لك ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك، فوالله إنّي لأرجو أن لا تأكل من بُرّ العراق إلا يسيرا. فقال ابن سعد: في الشَّعير كفاية عن البُرّ. مستهزئا بذلك القول"[٢]. فكان كما قال الحسين (عليه السلام) فلم يصل إلى الري وقتله المختار.

وأمثال ذلك كثير قد صدر عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ومن شاء فليراجع كتاب (إثبات الهداة) للحر العاملي ففيه كثير ما يشبه ذلك. ومن جميع ما تقدّم نصل إلى نتيجتين مهمتين هما:

١- ليس كلّ ما تحدّث به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) له علاقة مباشرة بعلامات الظهور، وليس من الصحيح تصنيفها في هذا النطاق؛ لأنّ ذلك يُعطي انطباعا مؤدّاه: إنّ العلامات وقعت ولم يقع الظهور.

---

(١) الغارات ج٢ / ٦٨٠- ٦٨١

(٢) بحار الأنوار ج٤٤ / ٣٨٩

٢- نستفيد من الموضوع أنّ أهل البيت (عليهم السلام) يملكون معرفة إعجازيَّة خارقة لم يتمتع بها أحد من الصحابة، تدلّ على أنّهم الأوصياء لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وورثة النبوّة؛ لأنّ الأمر لا يخلو إمّا أنْ يكون رسول الله(صلى الله عليه وآله) أخبر الصحابة بتلك الأمور الغيبيَّة ولم يرووها. وهذا غير منطقي؛ لأنّهم رووا ما هو أقلّ شأنا وأهمية. وإمّا أنْ يكون (صلى الله عليه وآله) قد اختصّ أهل بيته (عليهم السلام) بتلك المعرفة لإثبات الإمامة وبيان دورها في مسيرة الإسلام والمسلمين. وهو التحليل المنطقي الذي ينسجم مع غائية الدِّين؛ لأنّ تحقق ما أخبروا به يدلّ كذلك على إمكان وقوع الباقي من العلامات، ومنها ظهور خاتم الأوصياء الحجّة محمّد بن الحسن (عليه السلام) والآيات والعلامات التي تدلّ عليه.

علامات تحققت وأخرى لم تزل:

إنّ علامات كثيرة قد تحققت، وأصبحت حقيقة واقعة، وأخرى ما زالت تنتظر الوقوع. من هنا يمكن أن نُدخل فقرة مُهمة في المنهج الذي ينبغي على أساسه دراسة عصر الظهور وهو أنْ نقسِّم العلامات إلى ما يأتي:

١- علامات عامَّة داخلة في مُجمل الحركة باتجاه عصر الظهور، وهي التي تُحدد مواصفات المدة الزمنية العامَّة.

٢- علامات حدّية متعلِّقة بالظهور بشكل مباشر. و(الحدّية) لها مراتب، فتارة تتعلّق بمدّة قريبة جدًّا من الظهور، وأخرى تتعلّق باليوم الموعود من دون فصل.

أما علامات القسم الأول فيمكن أنْ نعدّها من جملة (تاريخ) حركة الظهور، فلا نقحمها ضمن العلامات المرتقبة. نعم يمكن، بل من الضروري، أنْ نعكس افرازاتها ومردوداتها العقائديَّة على أحقّية الفكر الإمامي العقائدي، ومتانة القواعد التي يقوم عليها، والتمسك بأهل بيت النبوّة، أمناء الله في أرضه، إذ لاحظنا إخبارهم بتأسيس الحُكم الأموي ومن بعده العباسي ثمّ احتلال المغول لبغداد، وهي حقائق تاريخيَّة ثابتة، عن طريق ذلك نصل إلى النتيجة المُهمة التي ذكرها أهل البيت (عليهم السلام) ضمن إخبارهم بتلك الحقائق وهي التأكيد على أنّ دولتهم هي آخر الدول، يقول الإمام الباقر (عليه السلام) للدوانيقي وهو يخبره عن حتمية قيام دولة العباسيين (قبل قيامها): "نعم يا أبا جعفر دولتكم قبل دولتنا، وسلطانكم قبل سلطاننا"(١).

(١) الكافي ج٨ / ٣١٠

وإذا صدق المُقدُّم صدق التالي منطقيا، وكان الدوانيقي وقتها مشرّدًا خائفًا من بني أُمية. وهذا العنصر – وأمثاله كثير – من أهمّ العناصر التي يمكن أنْ تدعم منهج الكتابة عن مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وعن علامات الظهور، المُمهدة لليوم الموعود.

ومن حيث الواقع القائم فإنّ أيّ مذهب من المذاهب الإسلاميَّة لا يملك هذه الحيوية، ولا هذا التوهج العقائدي الذي يدعم مذهب أهل البيت (عليهم السلام) مُنذ رحلة الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى، إذ نلحظ أنّ الراوي للنصّ هو المُحدِّث الأعظم الشيخ الكليني (رضي الله عنه) المعاصر للغيبة الصغرى (٢٦٠هـ) وللحُكم العباسي في خلافة (المقتدر العباسي)، فلو فرض الخصم أنّ الكليني وضع النصّ وكذب على الإمام الباقر (عليه السلام) نجد النص ذاته يأبى ذلك؛ لأنّ (النصّ) في الوقت الذي أعطى رؤية تفصيليَّة عن حتمية قيام حكم العباسيين بالمواصفات المذكورة، ورسم كذلك خطّ النهاية الذي حدَّده بـ: سفك دماء بعض أهل البيت(عليهم السلام) الذي سيثير غضب الله تعالى فيُسلط عليهم (هولاكو): "لا تزالون في عنفوان المُلك ترغدون فيه ما لم تُصيبوا منّا دما حراما، فإذا أصبتم ذلك الدم غضبَ الله عز وجلّ عليكم، فذهب بمُلككم وسلطانكم، وذهب بريحكم، وسلّط الله عز وجل عليكم عبدا من عبيده أعور، وليس

بأعور من آل أبي سفيان، يكون استيصالكم على يديه وأيدي أصحابه"[١].

فكيف استطاع الكليني أنْ يدوِّن هذه التفاصيل الدقيقة عن نهاية الحكم العباسي وهو يعيش في ظل حكمهم؟ بل كيف أمكنه أنْ يُحدد مدّة ملكهم بقوله: "والله لا يملك بنو أمية يوما إلا ملكتم مثليه، ولا سنة إلا ملكتم مثليها"[٢].

إنّ (وضّاعا) بهذه البلادة سيجتث مذهبه من الأساس بدلا من أنْ يجذِّر قواعده، لأنّ المستقبل سيحكم عليه بقسوة يستحقها في حالة التصادم مع الواقع، وتخلّف وقوع تلك العناصر في وقتها. إلا أنّ الواقع أكد تحقق كلّ تلك الأحداث، بدقّة كبيرة وعلى وفق ما يُقال فإنّ الدراية صدقت الرواية.

إنّ العلامات العامَّة التي تحققت، من المجالات الخصبة التي يمكن أن تُعزز العقيدة بالمهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وترسِّخ عملية الإعداد الذاتي لعصر الظهور، إذا ما أحسنّا التعامل معها ضمن منهج علمي صحيح، بعيد عن المسبَّقات الذاتية، والفهم الذوقي لنصوص علامات الظهور.

---

(١) الكافي ج٨ / ٣١٠

(٢) المصدر السابق

أما القسم الثاني الذي أسميناه بـ(العلامات الحدّية) فيجب أنْ ينال قدرا أكبر من العناية والدراسة ويجب قبل كلّ شيء أنْ نفهم لغة نصوصها ضمن المنهج العلمي المعتمد لدى الفقهاء، وأنْ نفهم المضمون والدلالة بدقة، وأن نتيقَّن من المصادر الأصلية للنصوص، وأن نتأكّد من توافقها أو عدم معارضتها للقرآن الكريم، ومع منهج أهل البيت عليهم السلام، بعد ذلك يمكن أن تُصنف تلك العلامات في حدودها الزمنية فنعرف ما هو الملتصق منها بفترة الظهور مباشرة، أو ما يسبقها ويمهد لها.

وللدخول في بحث هذا الموضوع نشير إلى حقائق مهمة تساعدنا على فهم أدقّ لموضوع العلامات والظهور، بعد تسليمنا بالوعد الإلهي بأنّ الأرض لا تخلو من حُجّة لله تعالى، وأنّه سيظهر في آخر الزمان يملأ الأرض قسطا وعدلا، وعليه نقول:

١- إنّ كُتب الرواية الموثوقة مليئة بالنصوص التي تذكر علامات الظهور، وقد جمع أكثرها الشيخ المفيد في كتابه (الارشاد)، فقال: "قد جاءت الأخبار بذكر علامات لزمان قيام المهدي (عليه السلام) وحوادث تكون امام قيامه، وآيات ودلالات فمنها:

(١) خروج السفياني، (٢) وقتل الحسني، (٣) واختلاف بني العباس في الملك الدنيوي، (٤) وكسوف الشمس في النصف من شهر رمضان،

(٥) وخسوف القمر في آخره على خلاف العادات، (٦) وخسف بالبيداء، (٧) وخسف بالمغرب، (٨) وخسف بالمشرق، (٩) وركود الشمس من عند الزوال إلى وسط أوقات العصر، (١٠) وطلوعها من المغرب، (١١) وقتل نفس زكية بظهر الكوفة في سبعين من الصالحين، (١٢) وذبح رجل هاشمي بين الركن والمقام، (١٣) وهدم سور – مسجد – الكوفة، (١٤) وإقبال رايات سود من خراسان، (١٥) وخروج اليماني، (١٦) وظهور المغربي بمصر وتملكه للشامات، (١٧) ونزول الترك الجزيرة، (١٨) ونزول الروم الرملة، (١٩) وطلوع نجم بالمشرق يضيئ كما يضيئ القمر ثمّ ينعطف حتى يكاد يلتقي طرفاه، (٢٠) وحمرة تظهر في السماء وتنتشر في آفاقها، (٢١) ونار تظهر بالمشرق طولاً وتبقى في الجو ثلاثة أيام أو سبعة أيام، (٢٢) وخلع العرب أعنتها وتملكها البلاد وخروجها عن سلطان العجم، (٢٣) وقتل أهل مصر أميرهم وخراب الشام واختلاف ثلاث رايات فيه، (٢٤) ودخول رايات قيس والعرب إلى مصر، (٢٥) ورايات كندة إلى خراسان، (٢٦) وورود خيل من قبل المغرب ونحوها، (٢٧) واقبال رايات سود من المشرق نحوها، (٢٨) وبثق في الفرات حتى يدخل الماء أزقة الكوفة، (٢٩) وخروج ستين كذابا كلهم يدعي النبوّة، (٣٠) وخروج اثني عشر من آل أبي طالب كلهم يدّعي الإمامة لنفسه،

(٣١) وإحراق رجل عظيم القدر من شيعة بني العباس بين جلولاء وخانقين، (٣٢) وعقد الجسر مما يلي الكرخ بمدينة السلام، (٣٣) وارتفاع ريح سوداء بها في أول النهار، وزلزلة حتى ينخسف كثير منها، (٣٤) وخوف يشمل أهل العراق، (٣٥) وموت ذريع فيه، (٣٦) ونقص من الأنفس والأموال والثمرات، (٣٧) وجراد يظهر في أوانه وفي غير أوانه حتى يأتي على الزرع والغلات، (٣٨) وقلة ريع لما يزرعه الناس، (٣٩) واختلاف صنفين من العجم وسفك دماء كثيرة فيما بينهم، (٤٠) وخروج العبيد عن طاعة ساداتهم وقتلهم مواليهم، (٤١) ومسخ لقوم من أهل البدع حتى يصيروا قردة وخنازير، (٤٢) وغلبة العبيد على بلاد السادات، (٤٣) ونداء من السماء حتى يسمعه أهل الأرض كلّ أهل لغة بلغتهم، (٤٤) ووجه وصدر يظهران من السماء للناس في عين الشمس، (٤٥) وأموات ينشرون من القبور حتى يرجعون إلى الدنيا فيتعارفون فيها ويتزاورون، (٤٦) ثمّ يختم ذلك بأربع وعشرين مطرةً تتصل فتحيى بها الأرض بعد موتها وتعرف بركاتها، وتزول بعد ذلك كلّ عاهة عن معتقدي الحقّ من شيعة المهدي (عليه السلام)، فيعرفون عند ذلك ظهوره بمكة فيتوجهون نحوه لنصرته"[1].

(١) الارشاد ج٢ / ٣٦٩

هذه هي أهمّ العلامات الواردة عن النبي وأهل بيته الطاهرين، وهي قد تشير إلى تاريخ سير العلامات التي تحققت، أو العلامات المستقبليَّة المُنتظرة.

وعلى وفق ما نرى يشوب بعضها الغموض، أو تطغى فيها لغة الرمزية. وهناك عدم وضوح لبعض الاحداث والذوات والمُسميات، وفي الوقت نفسه فإنّ بعض العلامات قد تحققت (كعقد الجسر ممّا يلي الكرخ بمدينة السلام) و(اختلاف صنفين من العجم وسفك دماء كثيرة فيما بيهم) في الخلاف المعروف (بالمشروطة)، أو (خلع العرب أعنتها وتملكها البلاد وخروجها عن سلطان العجم)، وأقرب ما تنطبق عليه هو تقسيم المنطقة العربية إلى دول بعد ان تحرروا من سلطان (العجم) الإنكليز، وأصبحت ممالكا وجمهوريات.

وعليه فما هو الموقف العملي تجاه هذا النوع من العلامات التي نراها من الناحية العقائديَّة قد تكون صادرة عن المعصومين(عليهم السلام) الذين هم أمناء الله وحجته في أرضه، فلا يصدر منهم إلا الحقّ، ويؤيد ذلك تحقق بعضها على صعيد الواقع فلا يكون الموقف غير التصديق والتسليم.

ومن جانب آخر نجد حالة الغموض تكاد تطغى على معظم العلامات، ولا يمكن أن نفهم كثيرا من أبعادها ولا نعرف حقيقتها، وقد لا يقبل العقل بعضها. ثمّ نجد مفهوما قرآنيًّا يحكم تلك العلامات وغيرها وهو: ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[(١)]، فما هو الثابت وما هو المتغيّر؟ وكيف يمكن أن نعرفه؟ وما هو الموقف منه؟

الجواب يتلخص بأنْ نقف موقف المُؤمن المسلم – على فرض صدورها عن المعصوم – ونعزز موقفنا هذا بالوجدان الذي يشهد بتحقق بعضها، وكان حينها غامضا ومُبهمًا فيما سبق، ثمّ تكشفت حقيقته وعرفت أبعاده فيما بعد. أمّا العلامات التي لم تتحقق فتُترك إلى وقتها، فإنْ كان الله عز وجل وعد بوقوعها فسوف تقع حتما، وإن علّقها فالأمر إليه؛ لأنّه يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره.

واعتقد أنّ لا حاجة إلى استعجال الظهور عن طريق تفسير أو تأويل بعضها بما نظنّ أنّه المُراد وهو المقصود. وقد أوضحنا سابقا الملابسات التي اكتنفت كلمة أمير المؤمنين عن خراب البصرة، إذ كانت تروى (خراب البصرة بالريح)، فلمّا دخلها الزنج وخرّبوها عرفنا الكلمة أنّها

---

(١) الرعد/ ٣٩

(الزنج) لا الريح، والفرق في وضع النقاط على الحروف، ولولا ذلك لوجدنا اليوم أكثر من تفسير – وهمي – لكيفية خرابها.

ويجب أنْ نُشير إلى قضية مهمة وهي: أنّه ليس من أدب الاعتقاد والإيمان بالغيب التشكيك والاستبعاد، أو الاستغراب، فضلاً عن التكذيب بالحقائق الدينيَّة ولاسيما فيما يتعلّق بالإمام المهدي (عليه السلام)؛ لأنّ التخطيط الربّاني لحركته(عليه السلام) يقتضي نوعا من التعتيم لبعض مفاصلها بما تقتضيه المصلحة، أو تقتضيه المرحلة الزمنية الطويلة من بداية التبشير به عليه السلام في عصر الوحي والرسالة إلى يومنا هذا.

وعليه فيجب أنْ ننظر إلى علامات الظهور بوصفها مؤشرات تدعم حركة الظهور المباركة، ونتفاعل معها سلوكيا؛ لأنّ ما تحقَّق منها يكفي لخلق حالة التحفز للقيام بدور الانتظار الواعي والعملي، واتخاذ الموقف الصحيح الذي ينسجم ويتوافق مع مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وهو: التريُّث والانتظار، والحياد تجاه علامات الظهور، والالتزام بالخطّ العقائدي الأصيل المتمثل بالاعتقاد الكامل بالإمام الحجّة (عليه السلام) وأنّه حجّة الله المنتظر الذي سيملأ الأرض قسطا وعدلًا، وأنّ العلامات ما هي إلّا دلالات مساعدة على التعرُّف عليه، ولا ضرورة إلى الاسهاب في تفاصيل بعض العلامات التي لا ضرورة لها.

٢- جاءت نصوص كثيرة تؤكد أنّ من العلامات ما هو (حتمي)، أي لابدّ من وقوعه، وما هو (غير حتمي)، أي قد يقع أو لا يقع، ومن النصوص التي تؤكّد حتمية وقوع بعض العلامات ما رواه زياد القندي عن غير واحد من أصحابه عن "أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: قلنا له: السفياني من المحتوم؟ فقال: نعم، وقتل النفس الزكية من المحتوم، والقائم من المحتوم، وخسف البيداء من المحتوم، وكفّ تطلع من السماء من المحتوم، والنداء. فقلت: وأي شيء النداء؟، فقال: منادٍ ينادي باسم القائم واسم أبيه"[1].

ومن البديهي أنْ يجعل الله عز وجل لحجته في أرضه وعلامات وآيات تدلّ عليه؛ لأنّنا بملاحظة تاريخ الأئمة (عليهم السلام) نجد أنّ السياقات الطبيعية لمعرفة الإمام (عليه السلام) هو تعيين الإمام الحاضر (النافذ الإمامة) لمن يليه، وتعريف الشيعة به، وظهور بعض الكرامات والآيات التي تدلّ على إمامته.

أما بالنسبة إلى الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) فإنّ لعنصر (الزمن) أثرًا على تلك السياقات، على الرغم من اليقين بأنّ الإمام المنتظر هو الإمام محمّد

(١) غيبة النعماني / ١٧٢

بن الحسن العسكري (عليه السلام)، ولكن المُشكلة في التشخيص وتحديد الهوية من جانب، وكون مهمة المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) مهمة عالمية وموجهة إلى البشريَّة كافة تحقيقا لوعده تعالى: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾(١) بإقامة دولة العدل الإلهي على الأرض كلِّها، فإنّها تحتاج إلى قفزة كبيرة في أدلّة إثبات هوية الإمام (عليه السلام) وتعريف الأئمة بشخصيته وهويته، وأنّه هو الذي سيملأ الأرض قسطا وعدلًا بإقامة دولة الحقّ، وسوف يأتي الحديث عن هذا الموضوع بشكل أشمل فيما بعد بإذن الله تعالى. فكان من الضروري وضع دلالات تهدي إليه، وتشكل قناعة تامة للبشريَّة على اختلاف أديانها ومذاهبها به؛ لذلك نرى علامات الظهور تتنوَّع بحسب الغاية، فمثلًا (النداء) يعدّ من العلامات العالمية التي لا تخصّ المسلمين وحدهم بل تعمّ البشريَّة كلّها. وسيسمع بلغات العالم كُله، فقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: "إنّ القائم لا يقوم حتى ينادي منادٍ من السماء تسمع الفتاة في خدرها، ويسمع أهل المشرق والمغرب، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾(٢). ومضمون النداء على وفق بعض النصوص "ينادي منادٍ

(١) الفتح / ٢٨

(٢) الشعراء / ٤

من السماء باسم القائم عليه السلام "[١]، وفي بعضها يسمعه أهل كلّ لغة بلغتهم: "يسمعه كلّ قوم بألسنتهم"[٢].

ومن العلامات ما هو موضعي يخصّ منطقة أو جماعة أو مدة زمنية معيّنة وليس عاما أو عالميًّا. وهي علامات تأتي في سياق التخطيط الربَّاني لإبقاء جذوة الظهور متوقِّدة، لتشدَّ من آمال واستعداد المنتظرين للإمام الحجّة (عليه السلام) حتى لا تؤثِّر المدة الزمنية الطويلة (الغيبة الكبرى) سلبيًّا في نفوسهم.

وهنا يمكن أنْ نقول إنّ العلامات الكونية ضرورة لابدّ منها، لأنّ طبيعة العقيدة المهدوية وغاياتها الشاملة والعالمية تقتضيها.

العلامات الكونية:

ومن جملة العلامات الكونية ما يأتي:

١- **كسوف الشمس وسط الشهر** وخسوف القمر في آخره. وهو أمر يُخالف السُّنن الكونية المعروفة فعن عبيد بن الخليل الأسدي قال: "كنت عند أبي جعفر محمّد بن علي الباقر (عليه السلام) فذكر شيئين يكونان قبل

(١) البحار ج٥٢/ ٢٣٠

(٢) الخرائج والجرائح ج٣ للراوندي

القائم لم يكونا منذ أهبط الله آدم صلوات الله عليه أبدًا وذلك أنّ الشمس تنكسف في النصف من شهر رمضان، والقمر آخره. فقال له رجل: يا بن رسول الله لآبل الشمس في آخر الشهر والقمر في النصف. فقال له إنّي لأعلم بالذي تقول"[١].

٢- **هدّة في السماء**: رُوي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: "إذا كانت صيحة في رمضان... قيل يا رسول الله وما الصيحة؟ قال هدّة تكون في النِّصف من شهر رمضان... توقظ النائم، وتقعد القائم"[٢].

٣- **ركود الشمس**: ومن العلامات الكونية الكبرى ركود الشمس، فعن أبي بصير قال: "سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قوله تعالى: ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾، قال: سيفعل الله ذلك بهم. قلت: من هم؟ قال: بنو أُميّة وشيعتهم. قلت: وما الآية؟ قال: ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر"[٣].

٤- **ظهور وجه ويد بارزة في القمر أو الشمس**: عن أبي عبدالله(عليه السلام) أنّه قال: "العام الذي فيه الصيحة قبله الآية في رجب. قلتُ: وما هي؟،

---

(١) غيبة النعماني / ١٨١ ط الأعلمي.

(٢) عقد الدرر / ١٠٣

(٣) الارشاد للشيخ المفيد ج٢ / ٣٧٣

قال: وجه يطلع في القمر، ويد بارزة"(١). وعن الإمام الباقر(عليه السلام) أنّه قال: قال: "خروج صدر ووجه في عين الشمس، ويعرف بحسبه ونسبه"(٢).

٥- **نار المشرق:** عن أبي بصير عن أبي جعفر محمّد بن علي عليهما السلام أنّه قال: "إذا رأيتم نارا من المشرق شبه الهردي(٣) العظيم، تطلع ثلاثة أيام أو سبعة، فتوقعوا فرج آل محمّد عليهم السلام إنْ شاء الله عز وجل إنّ الله عزيز حكيم"(٤).

وهذه العلامة قد تكون موضعية إذا ظهرت في المشرق الجغرافي للجزيرة العربية، أي من أفغانستان أو إيران أو العراق. وقد تكون عالمية إذا تكررت في مشارق متعددة بحيث تشمل جميع الكرة الأرضية، فتكون آية سماويَّة. والله أعلم.

ويمكن أن نعرف أهمية (الحتمية) من حجم تأثير العلامة على تحديد هوية الإمام، ومقدار تأثيرها في ربط البشريَّة به؛ لأنّ العلامات السابقة تجري خلافا لقوانين الكون المعروفة والثابتة علميًّا.

ولو حاولنا الآن أنْ نتحدّث مع علماء الفلك في العالم كلّه عن إمكانية شروق الشمس من المغرب، أو خسوف القمر في أواخر الشهر

(١) غيبة النعماني / ١٦٩ ط الاعلمي

(٢) الارشاد ج٢ / ٣٧٣

(٣) الهردي أي لون الكركم

(٤) غيبة النعماني ج١ / ٢٦٠

الهجري، أو عن صوت يأتي من السماء، أو هدّة تُرعب البشريَّة مصدرها الفضاء لضحكوا على عقولنا؛ لأنّ ذلك خلاف بدهيات المعرفة الثابتة، بل هي الاستحالة ذاتها، إلا أنّ هذه الاستحالة لها أهمية كبيرة في إثبات مدعانا؛ لأنّ إخبار الأئمة عن إمكان وقوعها، بل حتمية وقوعها بوصفها علامات دالّات على الإمام المهدي (عليه السلام) ومن ثَمّ تتحقق على صعيد الواقع فتشكل دليلا إعجازيًّا على صحة مدعانا، وتُلزم كلّ من يراها بالايمان بالإمام المهدي (عليه السلام)؛ لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) أخبرونا بالعلامات الكونية مقرونة ببقيتهم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) قبل وقوعها.

ولتأكيد هذه الحقيقة نجد أنّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أشاروا إلى بعض افرازات الحركة الكونية الجديدة على علم الفلك وهدم قواعده، اذ يقول الإمام الباقر (عليه السلام): "إنّ بين يدي هذا الأمر انكساف القمر لخمس تبقى والشمس لخمس عشرة وذلك في شهر رمضان، وعنده يسقط حساب المُنجمين..."(١). وعن أبي عبدالله (عليه السلام) أنّه قال: "علامة خروج المهدي كسوف الشمس في شهر رمضان في ثلاث عشرة وأربع عشرة منه"(٢).

---

(١) الغيبة للنعماني ج١ / ٢٧٨

(٢) غيبة النعماني / ١٨٢ ط الاعلمي

ومن المؤكد أنّ بعض الاتجاهات العلمانية وغيرها ستتصدّى إلى تسويغ تلك الظواهر، وتفسّرها بما ينسجم مع مبانيها اللادينيَّة، وعدّها ظواهر استثنائية لا تدلّ على شيء.، إلا أنّ أئمة أهل البيت(عليهم السلام) قطعوا الطريق على جميع محاولات التشويه والتشويش؛ لأنّ بعض تلك العلامات تحمل عنصرا دينيًّا لا يخضع للتفسيرات العلميَّة، اذ تصرِّح الروايات بأنّ النداء يكون باسم الإمام المهدي (عليه السلام)، ويدعو إلى الإيمان به والتمسك بقيادته.

وورد أنّ الإمام (عليه السلام) إنما يعرف بالنداء، قال لي أبو عبد الله: أمسك بيدك: "هلاك الفلاني، وخروج السفياني، وقتل النفس، وجيش الخسف، والصوت. قلت: وما الصوت هو المنادي؟، فقال: نعم، وبه يُعرف صاحب هذا الأمر"(١).

وفي نصّ آخر جاء التأكيد على أنّ النداء إنَّما يكون باسم الإمام(عليه السلام)، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: "قلنا له: السفياني من المحتوم؟ فقال: نعم، وقتل النفس الزكية من المحتوم، وكفٌّ تطلع من السماء من المحتوم، والنداء. فقلت: وأي شيء النداء؟ فقال: منادٍ ينادي باسم القائم واسم أبيه"(٢).

---

(١) غيبة النعماني / ١٧٢ ط الاعلمي

(٢) المصدر السابق

وإذا كان كذلك فلا يبقى شكّ أنّ الحدث الكوني (النداء) هو آية من آيات الله تعالى تدلّ على شخص الإمام عجل الله فرجه، قد أخبر به أهل البيت (عليهم السلام) قبل وقوعه. وتصف بعض الروايات أهمية النداء، وحجم تأثيره الهائل في البشريَّة، وردود الفعل التي تعقبه، فأول ما سيحصل (صدمة) تذهل الناس وكأنّ على رؤوسهم الطير، فقد روى محمّد بن راشد البجلي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: "أما النِّداء من السماء باسم القائم في كتاب الله لبين. فقلت: فأين هو أصلحك الله؟ فقال في: ﴿**طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾(١)، وقوله: ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾، قال: إذا سمعوا الصوت أصبحوا وكأنّما على رؤوسهم الطير"(٢).

ويصفها أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: "صيحة في شهر رمضان تُفزع اليقظان تُوقظ النائم وتُخرج الفتاة من خدرها"(٣)، فالصيحة حدث مذهل لم تعتد البشريَّة سماعه، تذهل الجميع وتجعلهم في حالة من الوجوم.

والثاني أنّها تحدث يقظة إيمانية فيؤمن معظم الناس بالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

يقول الإمام الصادق (عليه السلام): "فلا يبقى في الأرض يومئذ أحد إلا خضع

---

(١) القصص/ ١-٢.

(٢) غيبة النعماني / ١٧٥ ط الاعلمي

(٣) المصدر السابق

وذلّت رقبته لها فيؤمن أهل الأرض إذا سمعوا الصوت من السماء"[١].

ويقول الإمام الباقر (عليه السلام): "إنّه ينادي باسم القائم واسم أبيه عليهما السلام حتى تسمعه العذراء في خدرها فتحرِّض أباها واخاها على الخروج"[٢].

فلا يبقى شكٌّ في أنّ النداء إعجاز إلهي، وإرادة ربّانيَّة قاهرة لا يمكن للعلم إلا الإذعان لها والاعتراف بها، ولكن في الوقت نفسه يُحذِّر أهل البيت (عليهم السلام) من وقوع ظاهرة مشابهة تعقب النداء بساعات أو يوم، وهي سماع نداء آخر يخالف النداء الأول في المضمون. فالأول نداء بصوت جبرئيل (عليه السلام) يدعو الناس إلى قائم آل محمّد (عليه السلام)، والثاني بصوت الشيطان يخالفه في الاتجاه والمضمون، ويتسبب في إيجاد رِدَّة عند من لا يملك معرفة بعلامات الظهور وحركة الإمام (عليه السلام).

إشاعة ثقافة الظهور

من هنا كان من الضروري **إشاعة ثقافة عصر الظهور** على مستويين:

المستوى الأول: ثقافة عامَّة عن العناصر الأساسية في حركة الظهور، عند جميع المسلمين وفي مقدمتها علامات الظهور الثابت منها والمتغيّر، وما تحقق على صعيد الواقع.

---

(١) غيبة النعماني / ١٧٣ ط الاعلمي

(٢) غيبة النعماني / ١٧٠ ط الاعلمي

والمستوى الثاني: ثقافة عالمية بكلّ لغات العالم تعرّف وتبشر بدولة المُصلح الأكبر، وتركِّز على العلامات الكونية المنصوص عليها، وهي علامات تعريفية بيانية ستكون منطلقا وأساسًا رصينا لدخول الإسلام والتمسك بالإمام الحجّة (عليه السلام)، والعمل تحت رايته في حال تحققها أو تحقق بعضها؛ لأنّها في هذا الفرض ستكون في نظر الشرق والغرب ليست سبقا علميًّا، وإنّما إعجازاً يفتح أمامهم آفاق الإيمان؛ لذلك نجد في منهج أهل البيت (عليهم السلام) أنّ الثقافة المُسبقة، والمعرفة الصحيحة بالحقائق الدينيَّة تخلق المناعة الكاملة من الوقوع في الشُّبهات أو الانحراف عن طريق الحقّ.

روى عن زرارة بن أعين: "قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: ينادي منادٍ من السماء أنّ فلانا هو الأمير، وينادي منادٍ: أنّ عليًّا وشيعته هم الفائزون. قلت: فمن يقاتل المهدي بعد هذا؟ فقال: رجل من بني أميّة، وأنّ الشيطان ينادي أنّ فلانا وشيعته هم الفائزون. قلت: فمن يعرف الصادق من الكاذب؟ قال: يعرفه الذين كانوا يروون حديثنا، ويقولون إنّه يكون قبل أن يكون، ويعلمون أنّهم هم المحقون"(١).

فنرى أنّ الإمام (عليه السلام) يؤكد أنّ العلم المُسبق والمعرفة العقائديَّة

(١) غيبة النعماني / ١٧٦ ط الاعلمي

تشكل ضمانا من الوقوع في الشبهات التي عادة ما تقترن ببعض علامات وحالات الظهور، ونجد المنهج المنطقي والوجداني الذي يحدده الإمام(عليه السلام) لمعرفة الواقع وإصابة الحقيقة، ففي علامة (النداء) التي هي من أهمّ علامات الظهور نرى عناصر مترابطة أولها: أنّ نداءً من السماء بصوت جبرئيل (عليه السلام) يدعو إلى المهدي المنتظر (عليه السلام)، وهو صوت الحق ويكون بجميع لغات العالم، وثانيها: أنّ صوتا آخر يعقبه بعد مدّة يكون من الشيطان يخالفه في المضمون ويعاكسه في الاتجاه، وهو نداء الباطل الذي سيخلق حالة من الشكّ ويزعزع الثقة بالنداء الأول، وثالثها: أنّ من سيشكّ ويقع في الشبهة هم الذين لا معرفة لهم بأصل وقوع النداء ولا تفاصيله بل يفاجئوا به، ورابعها: معرفة المقياس الصحيح للتمييز بين الندائين وهو: أنّ من أخبر بالنداء أخبر به قبل وقوعه وأكد أنّ الأول هو الحقّ والثاني هو الباطل، فإذا ما وقع النداء لزم التصديق والتمسك بالنداء الأول، وتكذيب الثاني وبطلانه.

وعلى وفق هذا المنهج فإنّ النداء الثاني سوف لا يحدث شكًا ولا ردّة عند المؤمنين، بل سيزيدهم إيمانًا على إيمانهم، بسبب تصديق الواقع لما أخبر به الإمام (عليه السلام)؛ لأنّ العلامات الكونية تمثل الخطاب التعريفي والتشخيصي للإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وحركته إلى العالم كلّه وشعوب الأرض

كافة، فإنّنا نلحظ أنّ من مفردات مسيرة الأنبياء والأوصياء لهداية البشر هو الحركة الكونية الاستثنائية التي تشكّل ظاهرة إعجازيَّة قاهرة. ولا نعجب أنْ نرى بداية هذه الظاهرة من زمن ابني آدم إذ قرَّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر، قال تعالى: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾**(١).

قال العلامة الطباطبائي (رضي الله عنه) في تفسير الآية: " إنّه كان من المعهود عند الأمم السابقة أو عند بني إسرائيل خاصَّة تقبّل القربان المُتقرَّب به بأكل النار إيّاه، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**، آل عمران: ١٨٣ – والقُربان معروف عند أهل الكتاب إلى هذا اليوم، فمن الممكن أن يكون التقبّل للقربان في هذه القصة أيضا على ذلك النحو، وخاصَّة بالنظر إلى إلقاء القصة إلى أهل الكتاب المعتقدين لذلك، وكيف كان فالقاتل والمقتول جميعا كانا يعلمان قبوله من أحدهما وردّه من الآخر"(٢).

---

(١) المائدة ٢٧

(٢) الميزان في تفسير القرآن ج٥ / ٣٠٠

فنرى أنّ القرآن الكريم يؤكّد دخول الظواهر الكونية الإعجازيَّة في تأكيد حقائق الدين، وأنّ النار التي كانت تنزل من السماء وتلتهم القربان المُتقبّل حقيقة كونية: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾، آل عمران: ١٨٣. ثمّ نجد في تاريخ نوح (عليه السلام) حينما نزل بقومه العذاب: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأمر وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١].

وفي دعوة موسى (عليه السلام): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣]. ونجد في دعوة محمّد (صلى الله عليه وآله) سيد رسل الله: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[٤].

وما بين ذلك كثير من الأنبياء (عليهم السلام) ممّن دخل العنصر الكوني في مساندة دعوتهم مساندة إعجازيَّة لا يسع العلم تسويغها بأيّ قانون من قوانينه.

---

(١) هود/ ٤٤

(٢) البقرة/ ٦٣

(٣) الأعراف/ ١٧١

(٤) القمر/ ١

وهذا المنهج ذاته يواكب حركة الظهور بشكله الإعجازي فنرى خسوفا وكسوفا في غير وقتهما، ويدا تمتدُّ من السماء، وخسفا بجيش ظالم وركودا للشمس عند استوائها تمتدّ إلى العصر في الوقت المقدَّر، وهدّة في السماء، ونداء في السماء وغير ذلك.

وهي ظواهر استثنائية أخبر بها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) مقرونة بظهور الإمام المهدي (عليه السلام) ستشكل حال تحققها كليًّا أو جزئيًّا منعطفا كبيرا في حركة الجذب الإيماني في جميع دول العالم، ولاسيما الدول التي لا تدين بالإسلام إذا أحسنّا تقديمها لهم بالأسلوب المناسب، بعيدا عن التفاصيل التي عادة ما تكون غير واضحة الدلالة، ولا تشكِّل نقطة جذب لمن لا يعرف الإمامة ولا عقيدة المهدي (عليه السلام).

ولا نشكّ أنّ التحضير للظهور والإسهام فيه، والإعداد لبناء قاعدة عريضة من المؤمنين الواعين من ذوي الثقافة العالية الواسعة الآفاق، المُدركين بدقّة مقاصد الظهور، وأهداف الإمام (عليه السلام)، هذه الأهداف التغييرية الجذرية التي تستهدف بناء الحياة الإنسانيَّة، بعد هدم قواعد الظلم والجور والفساد والانحطاط، يعدّ من المسؤوليات التي يجب أن يُباشرها الواعون من المؤمنين؛ لأنّ ذلك سيُسهم في تعجيل الظهور وتحقيق اليوم الموعود.

وعن طريق العلامات الكونية وغيرها يمكن أنْ نعرِّف العالم بحركة الإمام (عليه السلام) واشراقات النور والهدى والحقّ والعدل التي فيها. وأنْ نبتعد عن خطابنا عن المُبهمات، وعن صور الرُّعب والقتل والحرائق والآفات والزلازل التي قرنها – بعض الكتّاب – بالإمام ونهضته المباركة، فلا يرى القارئ إلا السيف قبل كلّ خطوة وحركة للإمام (عليه السلام)، استنادا إلى نصوص غير ثابتة، أو ثابتة ولكن يُقصد بها اجتثاث القتلة وسفاكي الدماء، ومن يقف بوجه تحقيق العدالة الاجتماعيَّة والاقتصادية وأمثال ذلك.

وإذا كانت حركة الإمام (عليه السلام) قد تلجأ إلى استعمال القوّة لمعالجة بعض الحالات التي تأبى منطق العقلانية فيجب أن نرفقها بالحيثيات التي اقتضتها؛ لأنّ السياق يُسهم بشفافية الدلالة وتأثيرها الإيجابي في فهم الحقيقة، فالعالم يعرف أنّ كلّ مُهمة تغييرية مُحقّة سوف تصطدم بكثير من الأعداء الأشداء الذين لا يرون منهجا غير منهج القوة لمواجهتها، ولا مساحة للعقل والمنطق والأخلاق في وجدانهم.

فماذا يمكن أنْ يفعل المصلح للظالم الذي لا يرتدع بالقانون؟ وللقاتل المُوغل في القتل؟ وللمجرم الذي يوغل في الإفساد والتخريب ونهب الأموال وهتك الأعراض؟، وما هو الموقف من الحاكم الظالم

الذي يظلم باسم القانون فيجعل موازين الفقر تفوق حتى مستوى الكفاف وحفظ الكرامة؟

أليس منطق العقل يحكم – وحتى القوانين الوضعية – بضرورة الردع لاجتثاث الظلم بكلّ أشكاله وألوانه؟، فإذا كان هذا المنطق صحيحا فإنّ حركة الإمام المهدي (عليه السلام) لا تستهدف إلا هذه الحالات لتطهير الأرض من الظلم المترقَّب الذي سيعمّ الأرض كلّها.

ويصف لنا الإمام الباقر (عليه السلام) وضع الحياة والمجتمعات قبل الظهور بقوله: "لا يقوم القائم إلا على خوف شديد وزلزال وفتنة وبلاء يصيب الناس، وطاعون قبل ذلك، ثمّ سيف قاطع بين العرب، واختلاف بين الناس وتشتت في دينهم، وتغيّر في حالهم، حتى يتمنّى المُتمني الموت صباحا ومساءً من عظيم ما يرى من كَلَب الناس وأكل بعضهم بعضا"[١].

لقد عاثت الأنظمة الوضعية فسادا، وألقت بكلّ ما فيها من دمار على جميع مرافق الحياة، الاقتصادية والاجتماعيَّة وغيرهما، ومسخت معالم الفطرة الإنسانيَّة التي فُطر الناس عليها، فحوّلت الإنسان إلى كيان آلي يعيش بلا كرامة، وحررته من كلّ القيود الأخلاقيَّة وجعلته عبدا للاقتصاد

(١) غيبة النعماني ١٢٣

والمادة، وألقت به في المنحدر الذي سيسلبه الاستقرار والاطمئنان ويحول الإنسانيَّة إلى ضحيّة كبرى من ضحايا الحضارة التي نمت على دماء الضحايا وفتات الأشلاء، وليس غريبا أنْ تمتدّ موجة التدهور إلى الدِّين نفسه (وتشتت في دينهم) الذي هو الضامن الحقيقي للاستقرار الأخلاقي والاجتماعي وجميع القيم الصالحة.

ولو دققنا في النصوص التي جاءت عن أهل البيت (عليهم السلام) والتي تصف وصفا دقيقا حالة المجتمعات في الأرض كلّها من وقوع حروب دمار شامل، وما تسببه من أمراض وآفات، وتأثيرها على الزراعة، وما ينتج عنها من مجاعات مُرعبة، وفساد في اختلاف الناس وسلوكياتهم. نجد من المنطقي ضرورة ظهور (مصلح) تؤيّده السماء، وتُسخَّر له جميع الإمكانات الماديَّة في الأرض والسماء، فعن سعيد بن جبير قال: "إنّ السَّنة التي يقوم فيها القائم تمطر الأرض أربعًا وعشرين مطرة ويُرى آثارها وبركاتها"(١).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: "يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض. لا تدع السماء من قطرها شيئا إلا صبَّته، ولا الأرض من خباتها

(١) كشف الغمة ج٣/ ٢٥٠

شـيئا إلا أخرجتـه" (١). وقـال أيضـا: "ويُظهـر الله لـه كنـوز الأرض ومعادنها"(٢).

وهذه النصوص كثيرة وهي تتحدَّث عن عناية السماء والأرض به، وأنّ جميع الإمكانات ستسخَّر له ليكون المصلح المؤهَّل لحلِّ جميع مشاكل الإنسانيَّة على الأرض، إلى حدّ الرفاه الكامل والاستقرار التام، فعن النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: "تخرج له الأرض أفلاذ أكبادها، ويحثو المال حثوا ولا يعدّه عدًّا"(٣). وقال الإمام الباقر (عليه السلام): "وتُجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض وظهرها فيقول للناس: تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدماء الحرام، وركبتم فيه ما حرّم الله عزّ وجل. فيُعطي شيئا لم يُعطَه أحدٌ قبله، ويملأ الأرض عدلًا وقسطا ونورا، كما ملئت ظلما وجورا وشرًّا"(٤).

وليس هذا فحسب بل نجد في خطاب أهل البيت (عليهم السلام) عن دولة المهدي (عليه السلام) حالة التعايش والتفاعل مع الأديان السماويَّة السابقة يقول الإمام الباقر (عليه السلام): "إذا قام قائم أهل البيت قسَّم بالسويّة وعدل في

(١) مستدرك الحاكم النيسابوري ح٨٤٣٨

(٢) ميزان الحكمة ج٤ / ٣٠٧٠

(٣) البحار ٥١/ ٦٨

(٤) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٥١

الرعية، فمن أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وإنّما سُمّي المهدي؛ لأنّه يهدي إلى أمر خفيّ. ويستخرج التوراة وسائر كتب الله عز وجل من غارٍ بأنطاكية، ويحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل القرآن بالقرآن..."(١).

وقد يكون لحكمه (عليه السلام) بين أهل الأديان بكتبهم الحقيقية معنى أعمق ممّا نتصوَّر، من حيث أنّ الكتب السماويَّة تتطابق مع القرآن في الأصول وبعض التشريعات، ولا تتنافى معه في شيء فيكون الدين واحداً موحداً.

إنّ خطابا دينيًّا متينًا يُحيط بجميع مفاصل ومراحل وأهداف حركة الإمام المهدي (عليه السلام) ينسجم في أسلوبه وبيانه مع مستوى وثقافة العصر حريّ بأن يفتح المجال واسعا للطاقات العلميَّة والكوادر المثقفة في العالم كلّه للإيمان والعمل في إطار حركة الإمام المهدي (عليه السلام) وتبنّي أهدافها وتثقيف الناس عليها.

الحتمي والمتغيّر: صنفت علامات الظهور على:

١- علامات حتمية، ويُقصد بها العلامات التي لابدّ من وقوعها

---

(١) البحار ج ٥٢/ ٣٥١

على كلّ حال، ولا يمكن أن يكون ظهور ما لم تتحقق بحسب الروايات الموجودة.

٢- علامات غير حتمية، ويُقصد بها أنّها قد تقع أو لا تقع، وهي راجعة إلى إرادة الله تعالى.

وقد نسأل عن المقياس الذي نركن إليه في التمييز بين العلامات الحتمية وغيرها ما هو؟ وهل هناك معايير معيّنة لمعرفتها؟.

وقد نستفيد من القرآن (المقياس) الحقيقي للتمييز بينها من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾"(١)، وقوله: ﴿**لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ**﴾(٢). وأمثالهما من الآيات الكريمة، فما وعدَ الله عز وجل بوقوعه لابدّ أن يقع؛ لأنّه تعالى لا يخلف الميعاد، بشرط ثبوت صدور النصّ ووضوح دلالته، وأنّ معنى الحتمية مقصود بذاته.

أما الروايات التي تذكر (العلامات الحتمية) فهل هي صادرة عن المعصومين (عليهم السلام) أم لا؟، فإنّه أمر متروك إلى علم التحقيق في صدور النصّ؛ لأنّه هو الذي يحدد ذلك، ولكن على صعيد الواقع نجد أنّ علم الرجال أو الدراية قد لا ينفعنا في كشف الواقع، وإنما يفيدنا بالاعتقاد

---

(١) آل عمران / ٩

(٢) الروم / ٦

بالنصّ في حال ثبوته وحصر دلالته على المعنى المطلوب، ولا يكشف لنا عن العلم الواقعي عند الله تعالى.

وعلى كلّ حال تبقى هذه النقطة بحاجة إلى المزيد من البحث والتحقيق لوضع صورة نقيّة عن علامات الظهور المبارك، ولعلّ سبب التراخي في تحقيق هذا المطلب هو أنّ العلامات بطبيعتها متروكة إلى حكم الزمن، فهو الحدّ الفاصل للتمييز بين الصادر يقينا عن المعصوم(عليه السلام) أم لا.

ومع ذلك فإنّ طبيعة الأمور تقتضي وجود علامات حتمية غايتها إثبات شخصية الإمام الحجّة (عليه السلام) ، وتحشد له جميع الطاقات البشريَّة العالمية، ولابدّ أن تكون تلك العلامات إعجازيَّة قاهرة لجميع البشر على وجه الأرض بسبب طبيعة مهمة الإمام (عليه السلام)، التي تقتضي قيادة العالم، وتحديد مسار البشريَّة في ظلّ قيادته وحكومته. وهذا يتطلّب دلائل إعجازيَّة تثبت أنّ المهدي ظاهرة ربّانيَّة مُسدَّدة من قبل الله عز وجل.

ونجد من المنطقي الذي تقتضيه طبيعة حركة الإمام (عليه السلام) تحقق ظاهرة كونية بشريَّة تتمثل بنزول المسيح (عليه السلام) من السماء واندماجه في حركة التغيير الكبرى؛ لأنّ أوروبا وغيرها التي تمثل اليوم الشطر المتقدِّم علميا وتكنولوجيا في الحياة تحتاج عمليًّا إلى المسيح الذي تُدين بدينه لتندمج في حركته وتسير على هداه، فهو العنصر المنطقي والظاهرة

الكونية الإنسانيَّة التي تكون قادرة على تغيير الأسس العقائديَّة للمسيحيين الذين هم الأكثرية المُطلقة من الشعوب التي تدين بكتاب سماوي على وجه الأرض، لتنسجم مع حركة الإمام (عليه السلام). قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "منّا الذي يصلّي عيسى بن مريم خلفه"[١].

وقال (صلى الله عليه وآله): "لن تهلك أمّة أنا في أوّلها، وعيسى بن مريم في آخرها، والمهدي في وسطها"[٢]، ويصف أمير المؤمنين(عليه السلام) الحدث الكوني الرهيب قائلا: "ثمّ إنّ المهدي يرجع إلى بيت المقدس فيصلّي بالناس أياما، فإذا كان يوم الجمعة وقد أُقيمت الصلاة ينزل عيسى بن مريم في تلك الساعة من السماء، وعليه ثوبان أحمران، كأنّما يقطر من رأسه الدهن. وهو رجل صبيح المنظر والوجه، أشبه الخلق بإبراهيم. فيأتي المهدي ويصافحه ويبشرّه بالنصر، فعند ذلك يقول له المهدي: تقدَّم يا روح الله وصلِّ بالناس. فيقول عيسى: بل الصلاة لك يا بن رسول الله. فعند ذلك يؤذِّن عيسى ويصلّي خلف المهدي"[٣]، ونزول عيسى بعد الظهور بمدّة وليس من علامات الظهور.

---

(١) كشف الغمة ج٣/ ٢٦٤

(٢) كشف الغمة ج٣/ ٢٦٥

(٣) الزام الناصب/ ٢٠٢

أما كيف سيثبت عيسى (عليه السلام) للمسيحيين أنّه (عيسى بن مريم) وأنّه لم يُقتل بل رفعه الله إليه فإنّه أمر متروك لوقته، ولابدّ من آية تثبت ذلك وحجّة تسنده.

وقد نجد في مُجمل العلامات بعض الغموض والابهام، حتى في العلامات الحتمية، اذ نرى اختلاف في تحديد عددها، بل في سماتها ومعالمها، ممّا يُسبب شيئا من الاضطراب في فهم دلالاتها الحقيقيَّة بغضِّ النظر عن (اللغة الرمزية) التي يقتضيها منهج الاخبار عن الحقائق التي لا يمكن بل يستحيل توصيفها إلا عن طريق اللغة الرمزية بسبب فارق المرحلة والزمن، فكيف يمكن أن نعدّها دلالات على شخص الإمام(عليه السلام)؟

إنّنا بملاحظة النصوص الواردة بهذا الشأن نرى أنّ أئمة أهل البيت(عليهم السلام) ركزوا على إفرازات وحوادث ومراحل ثلاث في مسيرة الإمام الحجّة (عليه السلام) ويمكن أن نعدّ الرواية التالية من الروايات المهمة التي رسمت أهم مراحل حركة الإمام (عليه السلام) ومسيرة الظهور، وتمثل إجابة منطقيَّة تزيل الضبابية عن بعض العلامات فقد ورد "عن أبي جعفر(عليه السلام) قال: "يقوم القائم (عليه السلام) في وتر من السنين، تسع، واحد، ثلاث، خمس، وقال: إذا اختلف بنو أميّة وذهب مُلكهم، ثمّ يملك بنو

العباس، فلا يزالون في عنفوان من المُلك وغضارة من العيش، حتى يختلفوا فيما بينهم، فإذا اختلفوا ذهب ملكهم.

واختلف أهل المشرق وأهل المغرب، نعم وأهل القبلة. ويلقى الناس جهد شديد ممّا يمرّ بهم من الخوف، فلا يزالون بتلك الحال حتى ينادي منادٍ من السماء، فإذا نادى فالنفير النفير. فوالله لكأنّي أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس بأمر جديد، وكتاب جديد، وسلطان جديد من السماء. أما أنّه لا يرد له راية أبدا حتى يموت"(١).

فنرى الإمام الباقر ركز في **المرحلة الأولى** على زوال مُلك قائم، ملك بني أمية وحتمية مجيء حكم آخر – حكم بني العباس – وزواله، بسبب سفكهم دماء أهل البيت(عليهم السلام) ووقوع اختلاف بينهم. وقد ربط(عليه السلام) هذه الحقبة الزمنية بحركة الإمام المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) لا بشيء آخر، وأخبر بها قبل وقوعها. وقد تحقق ذلك بشكل قطعي، بل هو من الحقائق التاريخيَّة اليقينية التي تدعم العقيدة بالمهدي.

والمرحلة الثانية: هي مرحلة اختلاف الشرق والغرب والمسلمين فيما بينهم، وهي المرحلة المعاصرة ونحن نعيش افرازات الاختلاف المتمثل بكلّ ألوان الظلم الحديث وأشكاله، التي عمّت العالم كلّه، الذي

(١) غيبة النعماني / ١٧٥ ط الاعلمي

عبّر عنه (عليه السلام): "يلقى الناس جهد شديد" وهذا الاختلاف حقيقة معاصرة لا يمكن إنكارها.

والمرحلة الثالثة: هي التي تلي ذلك، إذ تضيق البشريَّة من شدّة الجهد، فتطلب المُنقذ "فلا يزالون بتلك الحال حتى ينادي منادٍ من السماء"، وهي مرحلة الظهور المبارك لبقية الله الأعظم (عليه السلام)، التي ركز فيها الإمام الباقر (عليه السلام) على (النداء) بأنّه علامة حدّيّة من علامات الظهور، فقال لجابر الأنصاري: "والقائم يا جابر رجل من ولد الحسين بن علي صلّى الله عليهما، يصلح الله أمره في ليلة، فما أشكل على الناس من ذلك. يا جابر: ولا يشكلنَّ عليهم ولادته من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ووراثته العلماء عالما بعد عالم. فإنْ أشكل عليهم هذا كلّه، فإنّ الصوت من السماء لا يُشكل عليهم إذا نُودي باسمه واسم أبيه واسم أمّه"(١).

وعلى هذا الأساس يمكن أن نجعل النصّ السابق المحور الأول لعصر الظهور، بمعنى أنّ المرحلة النهائية للغيبة هو (النداء)، والمرحلة الأولى هي مرحلة الإخبار عن الحُكمين الأموي والعباسي وقد تحققت، ويترك امر العلامات الأخرى إلى مرحلة: (واختلف أهل المشرق وأهل المغرب، نعم وأهل القبلة)، وهي المرحلة الحاضرة فما تحقَّق من

(١) نهج السعادة ج٨ / ٨٢

العلامات نسلِّم به ونذعن له، وما لم يتحقَّق نتركه لمشيئة الله ونبقى ننتظر النداء ونسأل الله أن يعجِّله.

أما المحور الثاني فيجب أن نربط جميع علامات الظهور – الحتمية وغير الحتمية – بمشيئة الله عز وجل، فإنّها الحاكمة على كلّ شيء. وبما أنّ العلامات الحتمية التي نرددها على أنّها علامات (حتمية) وعددناها بحسب فهمنا لازمة الوقوع من دون أن نتأكّد أنّها بمستوى (الوعد الإلهي)، الذي لا يتخلّف أبدا ﴿**إِنَّ اللهَ لا يخلفُ المِيعادَ**﴾[١] فإنّ هذا يمكن أن يُوقعنا في ردّة وعدم التصديق بالإمام (عليه السلام)؛ بحجّة أنّ العلامات (الحتمية) أو بعضها لم تقع؛ لذلك يجب أن يكون واضحا أنّ كلّ شيء من هذا القبيل ما لم يدخل في دائرة (الميعاد) فإنّ لله تعالى فيه الإشاءة، وهذا ما رواه داود بن القاسم الجعفري قال: **"**كُنّا عند أبي جعفر محمّد بن علي الرضا (عليه السلام) فجرى ذكر السفياني، وما جاء في الرواية من أنّ أمره من المحتوم، فقلت لأبي جعفر (عليه السلام): هل يبدو لله في المحتوم، قال: نعم، قلنا له: فنخاف أنْ يبدو الله في القائم، فقال: إنّ القائم من الميعاد، والله لا يخلف الميعاد**"**[٢].

---

(١) آل عمران/ ٩

(٢) الغيبة للنعماني/ ٢٠٥ ط الاعلمي

وعليه لو شاء الله تعالى أنْ يجعل الظهور مفاجئا، فلا ينبغي أن نتردد من الإذعان له وتصديقه، وأن نتهم فهمنا ونرجع إلى منهج أهل البيت(عليهم السلام) في معرفة الحقّ والحقيقة.

الدعاء وأهميته في تعجيل الظهور:

نجد مفردات ومفاهيم تلازم حركة الظهور المقدس أهمها:

الدعاء للإمام (عليه السلام) بالفرج، فقد ورد كثيرٌ من ذلك في كتبنا المعتبرة مقرونا بأنّ ثمرة الدعاء إنَّما هي للأمّة لا للإمام؛ لأنّ فرجه إنَّما هو فرجهم.

والدعاء له يمثل أبرز مصاديق الاعتقاد واليقين بالإمام (عليه السلام)، والتصديق الحقيقي برسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) بخاصَّة إذا كان بحرقة وحرارة المضطر الذي لا يجد لحاجته إلا الله تعالى، مقدما حاجات الإمام على حاجاته، مؤثرا ساحته المقدّسة على مهماته وطلباته، فإنّ ذلك يقرِّب صلة الداعي إلى الإمام(عليه السلام).

ولا ندري لعلّ دعوات الصالحين تعجّل حقًّا يوم الظهور وتقرِّبه، وتجعل الداعي من الثلّة المخلصة وممّن ينال قرب الإمام ورعايته، فقد ورد هذا المضمون في روايات كثيرة عن أهل البيت(عليهم السلام)، منها: النهي عن توقيت الظهور؛ لأنّه غيب اختصّ الله به نفسه، فقد جاء عن محمّد بن

مسلم قال: "قال أبو عبد الله (عليه السلام): يا محمّد من أخبرك عنّا توقيتا فلا تهابه أنْ تكذبه، فإنّا لا نوقِّت لأحد وقتا"(١).

ثمّ إن للظهور علامات لابدّ من تحققها، وهي العلامات التي تسمّى بالحتمية التي جاء ذكرها في نصوص كثيرة. فكيف نوفِّق بين حتمية العلامات، والأمر الشديد بالدعاء بتعجيل الفرج، وهي أمور تبدو غير منسجمة؟.

وللإجابة نقول: لو كان الظهور المقدس مؤقتا بزمن معيّن لما كان للدعاء موقع منطقيّ ولا أثرٌ مرجوٌّ، إذ ما معنى أن ندعو بتعجيل الفرج وهو مقرّر في يوم محدَّد؟ إن كلّ ما يمكن أن نفعله هو الانتظار للحظة الحاسمة لا غير.

أما وإنّ الحكمة الربّانيَّة قضت بإخفاء ذلك، فإنّ الباب يُفتح واسعا للدعاء بتقريب وتعجيل الفرج؛ لأنّ دعوة الأئمة (عليهم السلام) لشيعتهم بالدعاء يكشف عن أنّ يوم الظهور لم يُحدد، وإنّما هو رهن مشيئة الله تعالى، وهنا يكون للدعاء بالغ الأثر في تعجيل الظهور بأيِّ طريقة يختارها المولى تعالى.

---

(١) غيبة النعماني / ١٩٥ ط الاعلمي

من هنا أقترح على العتبات المباركات في العراق وإيران وغيرها تنظيم وقفات مُحددة في المسيرات الكبرى في محرّم وصفر والمناسبات الأخرى تخصص للدعاء بفرج الإمام (عجّل الله تعالى فرجه الشريف)، ولاسيما الأدعية الواردة، ومنها المقطع الذي يبدأ بـ (اللهمَّ وصلِّ على ولي أمرك – إلى قوله – وترزقنا بها كرامة الدُّنيا والآخرة) من دعاء الافتتاح. ودعاء (اللهمّ كُن لوليك...) وأمثالهما.

وادعو كذلك أصحاب المواكب والحسينيات والمساجد أنْ يخصِّصوا ليلة للدعاء بتعجيل الفرج بحيث تكون سُنّة حسنة تتمسك بها الأجيال، عسى أنْ تنال الإجابة من السميع فيرحمنا بظهور وليّه وحجته، إنّه سبحانه لا يخلف الميعاد.

وقد لا يعرف بعضهم أهمية هذا الأمر وتأثيره في تسريع اليوم الموعود، أو آثار الدعاء في تربية نفوس المنتظرين وتهيئتهم لمرحلة التغيير الشاملة، التي تعدّ من أصعب المهام وأشقِّها ما لم ينعم المولى تعالى بتقبّل وتحمّل مهمة التغيير وما يرافقها من آثار غير مألوفة "فوالله لكأنّي أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس بأمر جديد، وكتاب جديد، وسلطان جديد من السماء"، فهي تحتاج إلى عقل مُنفتح، وإيمان كبير،

وإعـداد نفسـي واسـع يتناسـب مـع حركـة الإمـام (عليه السلام) التغييريـة والتجديدية، التي قد تقتضي الخروج عن بعض الثوابت المألوفة.

لقد عدّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أنّ الدعاء بالفرج إنَّما هو لتحقيق آمال وطموحات البشريَّة في بناء المجتمع الكامل، وتحقيق الرفاهية للجميع، وليس حاجة خاصَّة من حاجات الإمام (عليه السلام).

أما بالنسبة للعلامات:

فقد نجد في لسان الروايات ما يؤكِّد أهمية وقوع بعض العلامات، وأنّ سير العلامات كنظام الخرز يتلو بعضه بعضا، نجد في نصوص أخرى التأكيد على أهمية الدعاء للإمام (عليه السلام) بتعجيل الفرج، إذ يقول الإمام الحجّة (عليه السلام): "وأكثروا الدعاء بتعجيل الفرج فإنّ في ذلك فرجكم"(١). فما هي منطلقات ذلك، وهل (الحتمية) تنسجم مع الدعاء بتعجيل الظهور الذي يقتضي غير ذلك؟ وللإجابة نقول ما يأتي:

١- إنّ الأمر بالدعاء للإمام (عليه السلام) أو تعجيل الفرج لظهوره يعني في جملة ما يعني تحقيق حالة من التعايش معه، والارتباط به عن طريق أهمّ القنوات الدينيَّة (الدعاء)؛ لأنّ الإمام المعصوم مفترض الطاعة،

---

(١) إكمال الدين – الصدوق / ٤٨٥

ولابدّ من معرفته والتمسك بأمره على وفق ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ: "من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية"[١].

فالدعاء للإمام (عليه السلام) يعني نوعا من الارتباط والتفاعل مع نهضته والتحضير النفسي لمرحلة الظهور، وهو صورة من صور التعايش معه. أما الدُّعاء بتعجيل الفرج فإنّه يعني وعي المنتظر لدور الإمام (عليه السلام) الحيوي في بناء دولة العدل الإلهي، وتحقيق الوعد الرباني، والاستعداد للمشاركة الفاعلة في عملية التغيير التي سيقودها الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، ويعني كذلك الوعي الكامل بالواقع الفاسد الراهن، على الرغم من التسميات البراقة التي يتستر بها، والبهرجة الإعلامية التي تمنحه تسميات لا تمتّ إليه بصلة. فالعصر الذي يُسمّونه بعصر الحضارة والمدنية وغزو الفضاء والتقدُّم التكنولوجي، تكتنف أنظمته السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصادية الظلم والجور والفساد والانحطاط وتمزيق القيم الإنسانيَّة، على الرغم من صورته البراقة الآخذة بالألباب.

إلّا أنّ هذه الصورة بالنسبة إلى المنتظر الواعي ما هي إلا غُثاء أو سراب ليس له إلا صورة وهمية فارغة من أيِّ محتوي قيمي صالح، لا تغري الذين عقولهم كبيرة وارادتهم قوية وقلوبهم كزبر الحديد؛ لأنّ هدفهم الكبير هو أنْ

(١) الفصول المختارة للمفيد / ٣٢٥

يجاهدوا من أجل أنْ تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. إنّ هذا الفهم غاية مهمة في حركة التهيؤ والتحضير لليوم الموعود.

٢- إنّ حركة الإمام حركة تفاعلية بين أمرين، **الأول**: أن تجري سياقات حركة الظهور ضمن الحركة الطبيعية التي فهمناها من لسان الروايات، ولكن ضمن نسق معيّن، فإذا ما اختل النسق تغيّر الأمر الربّاني إلى شيء آخر في التأثير في الفترة الزمنية، أو أيّ مظهر أو معلم من معالم (العلامة الحتمية) وأقرب مثال لذلك ما مرّ من تأكيدهم (عليهم السلام) أنّ دولة بني العباس ستكون دولة عظيمة في إمكاناتها، قوية في نفوذها وهيبتها، بشرط أنْ لا يسفكوا دما حراما من دماء أهل البيت (عليهم السلام)، فإذا ما فعلوا ذلك أخلّ في مدة حكمهم بسبب ما سيقع بينهم من خلاف يُودي بملكهم. فالعلامة (الحتمية) قد يكون لله تعالى فيها أو في بعض مقاطعها إرادات وتغييرات ترتبط ببعض المؤثرات فقد تطول – بحسب المثال – إذا لم يسفكوا دما حراما، وقد تقصر إذا ما فعلوا ذلك، وبالنتيجة يتأثر زمن الغيبة إيجابيا بذلك. وإذًا فالعلامة الحتمية قد وقعت وهي (الدولة العباسية) ولكنّها لن تستمتع بالمدة الزمنية المقررة بسبب سفك الدماء، فحدث اقتضاب للزمن سيعجل الظهور، ولم يؤثر في وقوع العلامة. وثانيا: أنْ يكون للدعاء بالفرج أثر كبير في إلغاء بعض العلامات، فلو فرضنا أنّ العلامات (غير الحتمية) مقدر لها في علم الله عز وجل أنْ

تستوعب ألف عام من مسيرة الانتظار، ثمّ دخل الدعاء الصالح الصادق (مؤثرًا)، فقد يلغي بعضها نهائيا، أو يسرِّع الأخرى بما يقتضب من عصر الغيبة؛ لذلك نجد في بعض النصوص ما يُشير إلى إمكانية تأثير الدعاء كما في قول الإمام الصادق (عليه السلام): "لا يخرج القائم إلا في وتر من السنين، تسع وثلاث وخمس وإحدى"[١].

فإذا كان في علم الله تعالى أنْ يأذن لحجته بالظهور في عام مُحدد بعينه في علم الله فلا معنى للترديد بين الأعوام الفردية، وإنْ كان مفتوحا على الأعوام الفردية يكون الدعاء بتعجيل الفرج منطقيًّا، وهو ما يظهر من أجواء الروايات المختصة بهذا الموضوع؛ لذلك لا ينبغي أن نعدّ (جميع) العلامات لازمة التحقق، إنّ ذلك يعبّر عن فهمنا لظاهر النصّ ليس إلّا، بل لابدّ من تقييدها بمشيئة الله تعالى.

أما العلامات (الحتمية) الداخلة ضمن الوعد الإلهي، فإنّ الدعاء لا يُؤثر في إلغائها، ولا يُستجاب فيها، إذا تأكدنا من مطابقة النص للوح الواقع. نعم يمكن أنْ يُقال إنّ العلامات (الحدّية) التي لابدّ من وقوعها بحسب التخطيط الرباني لأهمية تأثيرها في حركة الإمام (عليه السلام) وتوحيد الأمّة تحت رايته وقيادته التي هي مفصلية، فإنّ الدعاء لا يؤثر في حذفها

(١) إعلام الورى / ٤٢٩

من مسيرة الظهور، ولكنّه سيدخل عنصرًا مؤثرًا في اختصار الزمن بتغيير مسار الأحداث المُمهدة لها من الناحية الزمنية، أو يدخل في تغيير مسار حركة الكون بالنحر الذي يخدم أو يسرِّع الظهور المبارك فإنّ الله على كلّ شيء قدير.

أمّا العلامات ذات الطابع الاجتماعي والسياسي - وهي كثيرة - فيجب أن نعلم أنَّ دولة العدل الإلهي، دولة أهل بيت النبوّة (عليهم السلام) ستكون آخر الدول على الأرض، بعد أن يُتاح لكلِّ الأديان المحرَّفة والأنظمة الوضعيَّة أنْ تمارس الحكم وتسجّل للتاريخ فشلها وما تفرزه من ظلم ودمار، على وفق ما قال الإمام الباقر (عليه السلام): "دولتنا آخر الدول، ولن يبقى أهل بيت لهم دولة إلّا ملكوا قبلنا، لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله عز وجل: ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(١).

فيمكن أنْ نتصور تأثير الدعاء في تسريع تلك التجارب بأيِّ شكل تراه الإرادة الإلهيَّة، إمَّا بتقصير أعمار الحُكام أو خلق أزمات اقتصاديَّة أو عسكريَّة أو بيئيَّة تُودي بحكوماتهم أن تزول في مدَّة قصيرة جدًّا.

(١) الغيبة للطوسي / ٤٧٢

قد يكون هذا شكلاً من أشكال تسريع الحركة باتجاه تحقيق العلامات الحتميَّة، ويدخل الدعاء عنصرا مؤثّرا جداً في بناء أرضيَّة تعجيل الظهور المبارك، ولو لحظنا ما أشار إليه الإمام بقوله (عليه السلام): "دولتنا آخر الدول... الخ"، فإنَّ التجربة الإسلاميَّة التي قامت بمعزل عن أهل البيت(عليهم السلام) لم تُحقّق الأهداف القرآنيَّة التي حددها قوله تعالى: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾(١)؛ لأنَّ الخلافة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) لم تتمكّن من نشر الإسلام في كلّ الأرض، فقد توالتِ الفتن والاختلافات، وانتهت بحُكم العوائل والأسر، ثمّ حُكم القوميات والأعراق ثمّ انهارت بالاحتلال الأجنبي.

وبعد ذلك بدأ شوط الفكر العلماني اللاديني، وبدأ صراع الأيدولوجيات المتمثلة بالرأسماليَّة والشيوعيَّة، ثمّ سرعان ما انهار المعسكر الشرقي مع فلسفته التي تقوم على (الحتميات!) التي لم يتحقّق منها شيء، ثمّ بدأ اليوم المعسكر الرأسمالي ينهار من داخله انهيارا سريعا، إذ تكالبت عليه الأخطاء، وتراكمت عليه مخلّفات نظامه الوضعي، فأصبح الاقتصاد (العملاق!) يُعاني أزماته الاقتصاديَّة المدمّرة التي ستودّي به إلى الهاوية؛ لأنَّه يقوم على أساس واحد هو الاقتصاد.

---

(١) الفتح / ٢٨

ولعلَّ الرأسماليَّة – اليوم - تتمنّى لو كانتِ الشيوعيَّة باقية لتلقي بتبعات انهيارها عليها ليكون ذلك تفسيرا (معقولًا) لفشل فلسفتها، أمّا وقد صار العالم معسكرا واحدا تحكمه الرأسماليَّة، ثمّ يبدأ الانهيار الاقتصادي من داخله، فهو الفشل الفلسفي الفظيع الذي لا تفسيرَ له إلّا قول الحقّ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وبملاحظة التاريخ الماضي والمعاصر نجد أنَّ التجارب السماويَّة المحرّفة والفلسفات الماديَّة قد استنفدت قدرتها، وألقت بويلاتها على الإنسانيَّة، وتركت لها ركاما من الظلم والتدهور والطبقيَّة الاقتصاديَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة وغيرها، بل نرى أنَّ الفلسفات المادّيَّة وغير المادّيَّة في العالم كلِّه، قد أفرغت ما في جعبتها، فلا نجدَ أملًا ولا تطلعا إلى فلسفة جديدة يمكن أنْ تنقذ الإنسانيَّة من ليلها البهيم غير دولة الحقّ وحكومة أهل البيت (عليهم السلام) التي ترتبط بالسماء وتتوافق مع نظام الكون؛ ليكون الإنسان والكون كيانا متوافقا في ظل قيادة الإمام المهدي (عليه السلام).

(١) العنكبوت / ٤١

٣- نجدُ في بعض النصوص أنَّ حركة الظهور يمكن أنْ تكون حركة مفاجئة، فقد ورد عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال لبعض أصحابه: "كن لما ترجو أرجى منك لما ترجو، فإنّ موسى بن عمران (عليه السلام) خرج ليقتبس لأهله نارا فرجع إليهم وهو رسول نبي، فأصلح الله تبارك وتعالى أمر عبده ونبيّه موسى في ليلة، وكذا يفعل الله تعالى بالقائم الثاني عشر من الأئمة(عليهم السلام) يصلح الله أمره في ليلة كما أصلح الله أمر موسى (عليه السلام)، ويخرجه من الحيرة والغيبة إلى نور الفرج والظهور"(١).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: "... ثمّ يخرج المهدي من بعدي، يصلح الله أمره في ليلة واحدة"(٢)، وجاء عن الحسين بن علي أنّه قال: "في التاسع من ولدي سُنة من يوسف وسُنة من موسى بن عمران(عليه السلام) وهو قائمنا أهل البيت يصلح الله أمره في ليلة واحدة"(٣).

فقد نفهم من عبارة (يصلح الله أمره...) أن يتحقق الظهور بتحقق الأمور الآتية بسبب تأثير الدعاء:

<u>أولاً</u>: أن يُهيئ الله تعالى أصحاب الإمام (عليه السلام) الذين هم (٣١٣)

---

(١) بحار الأنوار ج١٣/ ٤٣

(٢) الصواعق المحرقة / ٩٧

(٣) كشف الغمة ج٣ / ٣٢٩

(هم أصحاب الألوية، وهم حكام الله في أرضه على خلقه) على وفق ما وصفهم الإمام الصادق (عليه السلام).

وعلى وفق ما يظهر من نصوص كثيرة فإنّ لهؤلاء القادة أهمية كبيرة في إيجاب الظهور أو تسريعه، وأن حركة الإمام(عليه السلام) تنتظر استكمال العدد المطلوب ليتاح لها إعلان الوجود.

ولا يراد بهذا العدد (٣١٣) ثلّة من المؤمنين المُخلصين المتفانين في حبّ الإمام وطاعته، الباذلين مهجتهم دونه. إنّ هذا العدد متوافر اليوم بالملايين في كلّ أنحاء الأرض، ولكنّه لا يحقق الهدف؛ لأنّ طبيعة حركة الإمام (عليه السلام) تستلزم توافر نماذج قياديَّة تتميّز بخصائص تؤهلها تمثيل الإمام (عليه السلام) تمثيلا حقيقيا؛ لأنّهم حكام الله في أرضه على خلقه، وتقع عليهم مهمة تطبيق (العدالة المطلقة) في الأرض، وهي مهمة تقتضي توافر كثير من اللياقات والمؤهلات التي تمكِّنهم من فعل ذلك.

ولا نعرف بالضبط كيف يتلقى هؤلاء التأهيل والتربية قبل أنْ يلحقوا بالإمام (عليه السلام) في مكة؟. هل أنّ الإمام (عليه السلام) هو الذي يؤهلهم على يده مباشرةً؟ في هذا الفرض لا تكون حاجة إلى انتظار تكامل عدتهم؛ لأنّ بإمكان الإمام (عليه السلام) في أيِّ وقت أن يفعل ذلك. وإنْ كان الأمر يجب أنْ يتحقق عن طريق جهدهم الشخصي – طبقـًا لسُّنة الله تعالى في التغيير –

فهو الأمر الطبيعي ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[(١)].

وعليه فهؤلاء يجب أن تتوافر فيهم بعض ما تقتضيه قوانين الحياة وطبيعة العمل التغييري الشامل وأهمها:

(أ) ثقافة عالية وإيمان مطلق بعملية التغيير والتجديد التي يقودها الإمام(عليه السلام): نحن وإنْ كُنّا لا نعرف أبعاد تلك العملية، إلا أنّ الروايات تشير إلى أنّها تماثل ما كان قد وقع لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في بداية البعثة المباركة، فعن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: "إنّ قائمنا إذا قام دعا الناس إلى أمر جديد كما دعا إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وإنّ الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء"[(٢)].

فهي عملية قد تتجاوز بعض ما نعتقدأنّه من الثوابت، أو أنّه سيُكشف عن دين الله الحقيقي في اللوح المحفوظ بحيث يفاجئ الناس، ولا يجد منهم قبولا، بل سيواجه معارضة شديدة، على وفق ما ورد عن الفضيل بن يسار قال: "سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إنّ قائمنا إذا قام استقبل من جهة الناس أشدّ ما استقبله رسول الله من جهال الجاهلية.

فقلت: وكيف ذلك؟ قال: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أتى الناس وهم

---

(١) الرعد/ ١١

(٢) بحار الأنوار ج ٥٢/ ٢٦٦

يعبدون الحجارة والصخور والعيدان والخُشُب المنحوتة، وأن قائمنا إذا قام أتى الناس وكلهم يتأوَّل عليه كتاب الله ويحتج عليه به، فإذا هؤلاء ممن لهم معرفة وعلم وليسوا من عامَّة الناس. ثمّ قال: أما والله ليدخلن عليهم عدله، أما والله ليدخلن عليهم عدله جوف بيوتهم كما يدخل الحر والقر"(١). وفي رواية أخرى: "وإنّ القائم يخرجون عليه فيتأولون عليه كتاب الله ويقاتلون عليه"(٢).

وهذه مجموعة أخطر من التي قبلها، نستجير بالله. وإذن فالمهمة ليست يسيرة؛ لأنّها في الوقت الذي تحمل الجديد المطابق لما في علم الله تعالى، تحاول تصحيح ما درج عليه الناس ممّا نسمّيه بالثوابت المقدسة عندهم.

ومن المؤكد أنّ كلّ أحد لا يقبل بهذا تبعًا لثقافته ودرجة اعتقاده، ولاسيما أنّ حكم الإمام وُصف بأنّه حكم آل داود، إذ سيقضي بين الناس بعلمه المطابق لما في علم الله عز وجل، وقد تبدو صورة هذا الحكم للناس – في بعض الأحيان والحالات – كما لو كان الإمام (عليه السلام) يحكم بخلاف سياقات العدالة، وأمثال ذلك من القضايا التي تحتاج إلى ثقافة عالية وإيمان عميق للاقتناع بها.

---

(١) غية النعماني / ٢٠٠ ط الاعلمي

(٢) غيبة النعماني/ ٢٠١ ط الاعلمي

ولا يمكن أنْ نعرف أبعاد عملية التجديد التي تحتاج إلى هذا الإيمان القوي، فقد تشمل أبعادا أكثر حساسية وأهمية ممّا ذُكر لا يقبلها كلّ أحد. ولكنّنا نشير إلى أنّ عملية التغيير والتجديد ستكون همًّا كبيرا للإمام(عليه السلام) قبل أنْ تألف الأمّة العملية، وتقتنع بأنّها التعبير المطابق تماما لإرادة السماء، وأنّها الدين الحقّ.

ونجد ضخامة العملية وصعوبتها حتى عند الثلة المختارة، الذين سمّتهم الروايات بالنجباء والأبدال والعصائب، والذين سيجتمعون بالإمام الحجّة(عليه السلام) بطريقة إعجازيَّة، فقد ورد عن علي بن حمزة قال: "قال أبو عبد الله جعفر بن محمّد (عليه السلام): بينا شباب الشيعة على ظهور سطوحهم نيام، إذ توافوا في ليلة واحدة على غير ميعاد فيصبحون بمكة"(١).

وروى المفضل بن عمر قال: "قال أبو عبد الله (عليه السلام) إذا أذن الإمام دعا الله باسمه العبراني فأُتيحت له صحابته الثلاثمائة والثلاثة عشر، قزع كقزع الخريف فهم أصحاب الألوية، منهم من يفقد عن فراشه ليلا فيصبح بمكة، ومنهم من يرى يسير في السحاب نهارا، يعرف باسمه واسم أبيه وحليته ونسبه.

قلت: جعلت فداك أيهم أعظم إيمانا؟ قال: الذي يسير في السحاب

(١) غيبة النعماني/ ٢١٥ ط الاعلمي

نهارًا، وهم المفقودون وفيهم نزلت الآية: ﴿**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعًا**﴾[(١)].

فهؤلاء الذين تطوى لهم الأرض، ويُسخر لهم السحاب فينتقلون إلى مكة للقائه (عليه السلام)، وهم رُهبان الليل وفرسان النهار قد تفاجئهم عملية التجديد في بعض مقاطعها الحساسة فيردون عليها. بموقف غير إيجابي على الرغم من قوة الدليل الدال على أنّ الإمام (عليه السلام) يعمل بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فعن المفضل بن عمر قال: "قال الصادق (عليه السلام) كأنّي أنظر إلى القائم على منبر الكوفة وحوله أصحابه، ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً عدّة أهل بدر. وهم أصحاب الألوية، وهم حكام الله في أرضه على خلقه. حتى يستخرج من قبائه كتابا مختوما بخاتم من ذهب، عهد معهود من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيجفلون عنه إجفال الغنم، فلا يبقى إلا الوزير وأحد عشر نقيبا كما بقوا مع موسى بن عمران(عليه السلام). فيجولون في الأرض فلا يجدون عنه مذهبا، فيرجعون إليه، والله إنّي لأعرف الكلام الذي يقوله لهم فيكفرون به"[(٢)].

نلحظ أنّ المُهمة كبيرة جدًّا تحتاج إلى فيض ربّاني وهداية خاصّة للثبات واليقين، ولا يكون هذا إلا بالدعاء والتوسل إلى الله تعالى؛ لذلك

---

(١) غيبة النعماني / ٢١٣ ط الاعلمي

(٢) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٢٦

وردت عن أهل البيت (عليهم السلام) أدعية خاصَّة للثبات على الإمامة وطلب العصمة من الارتداد بسبب طول الغياب، أو بعض الخصوصيات التي تتعلق بالظهور.

وعلى كلّ حال يجب علينا في زمن الغيبة أنْ نجعل من مفردات ثقافتنا العقائديَّة عنصرا حيويًّا وأساسيا وهو الاستعداد النفسي لقبول عملية التغيير والتجديد التي يقودها الإمام(عليه السلام)، ونعدّ فهمنا الحالي للدين كلِّه محكوما لحكم الإمام (عليه السلام)؛ لأنّه حجّة الله على خلقه وأمينه في أرضه، فهذا هو منطق العقل والدين بلا ريب، وعليه – في هذا الفرض – يجب أنْ نوطِّن أنفسنا على القبول بفعل الإمام(عليه السلام) وقوله مهما خالف ذلك قناعتنا.

ويجب أن تكون لنا عبرة بما حدث بين موسى والخضر عليهما السلام، فإنّ اختلاف العلمين بينهما أدّى إلى فراقهما على الرغم من أنّ موسى (عليه السلام) كان نبيًّا من أولي العزم، إلا أنّ علمه ظاهري، وهذا العلم هو تكليفه الشرعي. والخضر (عليه السلام) عبد صالح آتاه الله تعالى من لدنه علما، فوقع الاختلاف بينهما لاختلاف حكمهما في عدة موضوعات، وهي مذكورة في سورة الكهف من الآية (٦٤) إلى الآية (٨٢). وعادة ما تقرن السورة

المباركة بالإمام المهدي (عليه السلام)، وقد يُستحب قراءتها في كلّ يوم جمعة، ولعلّ السبب هو توعيتنا ثقافيا على أنّ الإمام الحجّة (عليه السلام) سيأتي بأحكام وأعمال تخالف قناعتنا وقد ألفناها وتربينا عليها، وهي مطابقة لظواهر القرآن الكريم. وقد نرى أنّ حكم الإمام (عليه السلام) ليس منطقي؛ لأنّه يخالف ظاهر القرآن بحسب فهمنا وتصوراتنا.

والحلّ بسيط جدًّا؛ لأنّنا مدّة عمرنا نبحث في كتب العلوم الدينيَّة عن الحكم الشرعي الواقعي، أو ما يقرب منه، وقد نصل أو لا نصل، وقد نتردد أو نحتاط فيه، فإذا أظهره الإمام يجب أنْ نلتزم ونذعن له(عليه السلام)؛ لأنّه ستكون بفضله ورحمته جميع تلك الأمور بشكلها الواقعي وحقيقتها الناصعة؛ لأنّ الله عز وجل يكشف له علم الواقع في الاحكام والموضوعات وفي كلّ الأمور الأخرى. فلماذا نتردد أو نعترض! أليس هذا هو الظلال المبين؟.

(ب) الثقافة العسكرية التخصصية في آفاقها العريضة التي تتناسب مع ما سيصل إليه العلم في فترة ارهاصات الظهور المقدس، ونحس بالوجدان أنّنا أمّة تؤمن بالمُصلح الأكبر (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) لا نملك العدد المطلوب من القادة العسكريين الأكفاء، المتخصصين في جميع العلوم العسكرية

الحديثة وأساليب قيادة المعارك، لأننا لم ندخل عناصر الإعداد العملي للظهور في ثقافتنا السلوكية المرتبطة بعقيدتنا في المهدي (عليه السلام) على الرغم من دعوة أهل البيت (عليهم السلام) لشيعتهم إلى إعداد (العدّة) التسليحية ليوم الظهور.

ونرى الشيخ المفيد (رضي الله عنه) يشير إلى أهمية تهيئة العناصر القياديَّة في حركة الإمام المهدي (عليه السلام) فيقول: "إنّ الشيعة وإنْ كانت في وقتنا كثيرا عددها حتى تزيد على عدة بدر أضعافا مضاعفة، فإنّ الجماعة التي (عدتهم تزيد عدّة أهل بدر إذا اجتمعت) فلم يسع الإمام التقية، ووجب عليه الظهور. لم تجتمع في هذا الوقت، ولا حصلت في هذا الزمان بصفتها وشروطها.

وذلك يجب أنْ يكون هؤلاء القوم معلوم من حالهم:

١- الشجاعة والصبر عند اللقاء.

٢- والإخلاص في الجهاد.

٣- إيثار الآخرة على الدنيا.

٤- ونقاء السرائر من العيوب.

٥- وصحة العقول.

٦- وأنهم لا يهنون ولا ينتظرون عند اللقاء، ويكون العلم عند الله تعالى بعموم المصلحة في ظهورهم بالسيف.

وليس كلّ الشيعة بهذه الصفة، ولو علم الله تعالى أنّ في جملتهم العدد المذكور على ما شرطناه لظهور الإمام عليه السلام لظهر لا محالة، ولم يغب بعد اجتماعهم طرفة عين، ولكن المعلوم خلاف ما وصفناه، فلذلك ساغ للإمام الغيبة على ما ذكرناه"(١).

ولا يمكن أنْ نمرَّ على كلام المفيد (رضي الله عنه) مرور الكرام بسبب معاصرته لمرحلة الغيبة الصغرى الذي يؤهله لإعطاء رؤية دقيقة عن أهم قضية تهم الشيعة والمسلمين عموما، ولما يظهر من كلامه من قاطعيه بقوله: "فلم يسع الإمام التقية ووجب عليه الظهور"، وقوله: "ولو علم الله تعالى أنّ في جملتهم العدد المذكور على ما شرطناه لظهر الإمام عليه السلام لا محالة ولم يغب بعد اجتماعهم طرفة عين"، وكذلك تعداده للشروط الستة التي لا تعدّ اعتباطية لما فيها من خصوصية، وغير ذلك.

وقد عبّر الشيخ المفيد (رضي الله عنه) عن الإعداد العسكري بكلمة السيف: (ويكون العلم من الله تعالى بعموم المصلحة في ظهورهم بالسيف)؛ لأنّه هو المصداق الأبرز للسلاح في ذلك الوقت، ولا يمكن لأحد أن يتصور مفهوم (التسلح والإعداد العسكري) إلا بما كان متداولاً في حينه، نحو السيف والنبل والشجاعة والصبر عند اللقاء وامثاله. ولو كان هناك تعبير

(١) رسائل في الغيبة ج٣/ ١٢

آخر يفي بالغرض لعبّر به، ونظيره ما جاء عن أبي بصير عن الإمام الصادق(عليه السلام) في إطار الدعوة إلى المشاركة في قوات الإمام (عليه السلام) بتهيئة العدّة القتالية فقال(عليه السلام): "ليعدّنّ أحدكم لخروج القائم ولو سهماً فإن الله إذا علم ذلك من نيته رجوت لأن ينسى في عمره حتى يدركه، ويكون من أعوانه وأنصاره"(١).

ومن المؤكد أنّ الخبرة والتخصص في العلوم العسكرية هو ما تتطلبه حركة الظهور المقدس عقلاً ووجدانا؛ لأنّه مقوم مهم من مقومات الحركة الكبرى، ولا يمكن لحركة تغييرية عالمية أن تعتمد على الكثرة الجماهيرية المؤمنة والمتحمسة والمتطلعة إلى يوم الظهور، وهي لا تملك خبرة عسكرية تتناسب مع حجم المهمّة، ولا تكون لها قيادة تتمتع بالخصائص المطلوبة التي تتناسب مع مستوى العصر بما يحمل من تطور وتقدّم في التسليح والإعداد وإدارة المعارك.

ومن الممكن أن تفرض الشروط السابقة نفسها على جيش الإمام(عليه السلام) الذي تذكر الروايات أنه يتكون من عشرة آلاف رجل، ولكن بدرجة أقلّ، فعن أبي بصير قال: "قال أبو عبد الله (عليه السلام): لا يخرج القائم من مكة حتى تكتمل الحلقة، قلت: وكم الحلقة؟ قال: عشرة آلاف: جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، ثمّ يهز الراية المغلّبة

---

(١) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٦٦

ويسير بها..."[١]. وستكون هذه القوة نخبوية في إيمانها، ومتخصصة في مهاراتها العسكرية؛ لأنّنا نجد حركة الإمام (عليه السلام) لا تعتمد على الكثرة العددية، ولا تذكر الروايات إلا أعدادا بسيطة جدّا لا تتناسب مع مهمة تحرير الأرض واجتثاث الظلم والجور، فلا بدّ لهذه القوة من ميزات فريدة تجعلها قادرة على القيام بما يعهد إليها.

وحينئذٍ لا يمكن أن نتجاهل شروط الخبرة والتخصص فيهم التي تجعل منهم نموذجا قتاليا يُلقي الرعب في قلوب أعداء الله عز وجل، وقد يكون هذا أحد عناصر (الرعب) التي تميّز القوة القتالية لجيش الإمام(عليه السلام) الذي أشارت إليه نصوص كثير منها ما روي من أنهم: "كأنّ قلوبهم القناديل، وهم من خشية الله مشفقون... شعارهم يا لثارات الحسين (عليه السلام)، يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر يمشون إلى المولى أرسالا، بهم ينصر الله إمام الحقّ"[٢].

وهنا يجب أن نشير إلى مسألة أخرى تتعلق بأمر الإعداد العملي الصحيح للظهور وهي أنّنا نعلم أن التأييد الربّاني للإمام المهدي (عليه السلام) بكلّ أبعاده وصوره عنصر ثابت في جميع مراحل حركته، إلا أننا نعلم كذلك أنّ مبدأ التمحيص والابتلاء عنصر ثابت في جميع مراحل الحياة

---

(١) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٦٨

(٢) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٠٨

الإنسانيَّة، لأنّه يكشف عمّا في علم الله عز وجل من استحقاق للثواب أو العقاب أو لنيل الدرجات العالية ومقدار القرب منه تعالى.

وإذا كان نوع العمل وكيفيته ودوافعه هو محور الجزاء فإنّ أصحاب المهدي (عليه السلام) لا يمكن استثناءهم منه، فقد ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: "كلا والذي نفسي بيده لو استقامت لأحد عفوا لاستقامت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أدميت رباعيته وشُج في وجهه، كلا والذي نفسي بيده حتّى نمسح نحن وأنتم العرق والعلق، ثمّ مسح جبهته"(١).

ورواية أخرى رواها المفضل بن عمرو قال: "سمعت أبا عبد الله(عليه السلام) وقد ذكر القائم (عليه السلام) فقلت: إني لأرجو أن يكون أمره في سهولة. فقال: لا يكون ذلك حتى تمسحوا العرق والعلق"(٢).

فحركة الإمام (عليه السلام) ستعيش تضحيات كبيرة بسبب طبيعة هدفها الشمولي، ولن يتحقق النصر بالمعجزات المعزولة عن جهد قواته المستبسلة، بل تقتضي على وفق ما عبّر الإمام الباقر (عليه السلام) أنّ (نمسح نحن وأنتم العرق والعلق)؛ لأنها "لو استقامت لأحد عفوا لاستقامت لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعليه فإنّ للجهد الذاتي الأثر الكبير في إيجاب

---

(١) غيبة النعماني/ ١٩١

(٢) المصدر السابق

الاستحقاق، فضلا عن أنّ للخبرة ومعرفة أسرار العمل العسكري التأثير الكبير في النجاح والتوفيق، وفقاً للمفهوم القرآني في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾[١].

نعم سيكون النصر الإلهي والتأييد الرباني حليفها في كلّ المراحل، لأنها وصلت إلى درجة الاستحقاق كما قال تعالى: "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين"[٢]، ونلاحظ في حركة الإمام المهدي (عليه السلام) عنصراً مهماً أكدت عليه روايات كثيرة وهو التأييد بالملائكة ومنهم جبرئيل وميكائيل وغيرهم فقد ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: "لو قد خرج قائم آل محمّد عليهم السلام لنصرهُ الله بالملائكة المسومين والمردفين والمنزلين والكروبيين. يكون جبرائيل أمامه، وميكائيل عن يمينه، وإسرافيل عن يساره ... والملائكة المقربون حذاه..."[٣].

وهذا العنصر بقدر ما يدلّ على تأييد السماء لحركته المقدسة وعنايتها به، يدلّ كذلك على حجم وقساوة المعارك، وحاجته (عليه السلام) إلى دعم رباني يعوّض عن النقص البشري الذي عادة ما يخلُّ بموازين القوى: "إذ تستغيثون

---

(١) الانفال / ٦٠

(٢) الروم / ٤٧

(٣) بحار الأنوار ٥٢ / ٣٤٨

ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين"[١] فتكون الإرادة الربّانيَّة رهن العون والمساعدة عند نفاذ الجهد البشري الإيماني طاقته.

وقد لا نصيب الحقيقة إذا فسرنا حركة الإمام (عليه السلام) وما سيحققه(عليه السلام) من إنجازات كبرى، وتقدم سريع لتطهير الأرض وبناء دولة العدل الإلهي بالدعم الغيبي المطلق معزولا عن الجهد البشري، أو التخطيط السياسي والعسكري، والثقافة الرفيعة لأصحابه وأنصاره، أو نغفل دور الإمام الشخصي والخاص في الإعداد لعملية التغيير الشاملة. فإنّ الأمر لو كان كذلك لأمكن لكلّ أحد أن يقوم بهذا الدور من عامَّة المؤمنين أو خاصتهم من غير الأئمة (عليهم السلام)، ولمّا كانت هناك حاجة إلى أن يتحمَّل صلوات الله عليه هموم ومشاكل وعذاب الغيبة، وما يرافق العمر الطويل من تراكم الآلام والمحن والصعوبات، كان بإمكان كلّ أحد إنْ كان معه جبرئيل وميكائيل وملائكة بدر وما لا يعلمه إلا الله أنْ يغيّر العالم من دون حاجة إلى مسوغات، بل لو شاء الله تعالى أن يفعل ذلك لفعله من دون حاجة إلى الإمام، إنَّما أراده الله تعالى أن تجري الأمور على وفق سننه، وهي بطبيعتها تقتضي توافر الجهد الشخصي للإمام (عليه السلام) ولأصحابه من قادة ومقاتلين ومثقفين في تحقيق شروط النصر الرباني والتأييد الإلهي لهم.

(١) الانفال / ٩

ولا يمكن أن نفترض أنّ الإمام (عليه السلام) الذي هو قمّة في كلّ شيء، حيث عاش تجارب الإنسانيَّة منذ أكثر من ألف عام أن يتعايش عمليـاً وتخطيطيا وفكريا وثقفيا وعسكريا وسياسياً مع ثلة لا تتمتع بالقدر المناسب من الكفاءات والمميّزات الذاتية التي تحقق الانسجام بينه وبينهم في القيام بعملية التغيير.

فمهما افترضنا حال الأوضاع في زمن الظهور، هل ستبقى التكنولوجيا سيدة الموقف، أم أنّ الحياة ستعود إلى عصر ما قبل التكنولوجيا، فإنّ الانسجام يبقى محورا ثابتا وشرطا ضروريا على كافة المستويات، فيجب أن يتوافر فيهم القدر الكبير من الوعي والمعرفة التي تؤهلهم فهم القائد، ومعرفة مقاصد حركته، وآليات العمل التغييري في الجانب العسكري وغيره ممّا يرتبط بعملية التغيير.

من هنا كان من الضروري أن نتنبه إلى معنى الانتظار، والتمهيد لقيام دولة أهل البيت(عليهم السلام)، ونأخذها بمنطقها الواقعي الذي تقتضيه سُنة الله وقوانينه في كلّ منعطفات الحياة ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾(١).

(١) الرعد / ١١

فيكون من الواجب تهيئة شبابنا المهدوي إلى تحصيل العلوم العسكرية بل التفوق فيها عسى أن يكون بعضهم من الثلة المختارة التي تقرّ بهم عين الإمام (عليه السلام) ويكمل بهم العدد المطلوب، فيعجّل الظهور إلى أقرب مدياته.

(ج) الخبرة السياسيَّة والإدارية:

حين نتحدَّث عن دولة عالمية يقودها بقية الله الأعظم (عليه السلام) هدفها اجتثاث الفساد وتحقيق العدالة المطلقة، لا بدّ أنْ تشاركه ثلة منتخبة هم (حكام الله في ارضه على خلقه) فلا بدّ أن يكون لهؤلاء الابرار من المقوِّمات ما يؤهلهم لأداء هذا الدور المقدس، وتحقيق أعلى نسب النجاح.

فليس منطقيا أن نفترضهم من عامَّة الناس في ثقافتهم ومهاراتهم العلمية والعملية، بل لا بدّ أن تكون لهم خبرات كبيرة تمكنهم من تحقيق اهداف حركة الإمام (عليه السلام) في أن (يملأ الأرض قسطا وعدلا) وهي مهمة بالغة الصعوبة، تحتاج إلى كوادر متخصصة في جميع المجالات التي تسهم في تحقيق الهدف المقدس.

إنّ الظهور المبارك من المتوقع أن يحدث في زمن التطور الهائل الذي تعيشه البشريَّة اليوم وفي المستقبل، وستقفز (دولة أهل البيت)

بالمعرفة إلى أرقى مستوياتها، وستكون التكنولوجيا الجديدة آية مشرقة وبراقة تميزها، وليس من المنطقي أن نفترض –على وفق ما هو الشائع– أن تقوم دولتهم بعد تعطل الحياة وعودتها إلى عصر البداوة والرعي. إنّ هذا التصور أو الافتراض لا يناسب قولهم (عليهم السلام) (إنّ دولتنا آخر الدول...) وهذا التعبير بطبيعته يقتضي أن تكون دولة أهل البيت (عليهم السلام) في ذروة الكمال، في جميع مجالات الحياة العلميَّة والاقتصادية والاجتماعيَّة وغيرها، وستكشف المقارنة بينها وبين من سبقها عن الفوارق الجوهرية الكبيرة فقد روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال: "العلم سبعة وعشرون جزءا، فجميع ما جاءت به الرسل جزءان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الجزأين، فإذا قام القائم اخرج الخمسة والعشرين جزءا فبثها في الناس وضمّ إليها الجزأين ، حتى يبثها سبعة وعشرين جزءا"(١).

ولا نشك أنّ من أبرز سمات هذا العصر أنّ المعرفة أصبحت تخصصا، فالاقتصاد له علم وعلماء، والإدارة لها علم وعلماء، والسياسيَّة والصحة والتعليم وكلّ مجالات الحياة الأخرى، وإذا فليس من المعقول أن يكون أصحاب الإمام (عليه السلام) ممّن لا يملكون هذه التخصصات

(١) الخرائج و الجرائح ج٢/ ٨٤١

الضرورية واللازمة لبناء الحياة، بل لابدّ أن يكونوا في القمّة من حيث التخصص الذي يؤهلهم لبناء دولة الحقّ ومشروع السماء في الأرض الذي لا يكون له مثيل في جميع مراحل حياة البشريَّة.

إنّ دولة الحقّ التي ستكون آخر الدول قُدّر لها أن تكون نموذجا فريدا في أبعادها، ابتداءً من الفرد والمجتمع والاوطان والشعوب والاقاليم. وستكون الشمولية التعددية القومية والعرقية وما يتبعه من تعدد اللغات سمة بارزة فيها، وهذا يقتضي توافر كفاءات عالية لأصحابه(عليه السلام) الذين يمثلونه في أقاليم الأرض واصقاعها. ولا يمكن أن نتصور نجاح العملية بمنهج عشوائي، إذ لابدّ من التخصصات الرفيعة التي تنسجم مع شأن أهل البيت (عليهم السلام) ودولتهم المباركة، وتعدد ألوانها وأبعادها.

ونرى أنّ بعض النصوص تشير إلى انتقاء جغرافي للثلة المباركة، وهذا أمر طبيعي تقتضيه أهداف وحجم عملية التغيير، حيث نجد أنّ بعضهم من العراق وايران وأفغانستان وسوريا ولبنان ومن دول أوربية ومناطق مختلفة وقوميات متعددة، وما من بلدة إلا يخرج معه منهم طائفة"[١]. فالتنوع الجغرافي يقتضي تعدد الثقافات واللغات والخبرات والفهم الدقيق للمجتمعات وأمثال ذلك.

(١) بحار الأنوار ج٢ / ٣٠٧

إنّ (الإدارة) الصحيحة والناجحة عنصر مهم في حركة الظهور ودولة الإمام (عليه السلام) لأنّ ما سيتاح للإمام (عليه السلام) من إمكانات وثروات غير مسبوقة للإنسانية والمجتمعات والحضارات البشريَّة، تحتاج إلى إدارة متميزة لتقسيمها وتوظيفها حتّى ورد بشأن حجم الثروة الهائلة: "ويجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض وظهرها فيقول للناس: تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدماء الحرام، وركبتم فيه ما حرم الله عزّ وجل فيعطي شيئا لم يعطه أحد كان قبله"(١).

وكذلك الحال بالنسبة الى الخبرات الأخرى في مجالات الحياة المختلفة كالسياسة والطب والتعليم وغيرها، فإنّ الخبرة والإدارة والتخصص أمور مطلوبة في كلّ زمان ومكان، ولاسيما أننا نتحدث عن دولة عالمية تهدف إلى تحقيق العدالة المطلقة فهو ألزم وأوجب.

من هنا كان من الضروري على المنتظرين الواعين أن ينتبهوا إلى هذه الأمور، ويتهيئوا إلى تحصيل الخبرات والتخصصات اللازمة لإقامة دولة العدل الإلهي بقيادة بقية الله الأعظم عجل الله فرجه الشريف؛ لأنّ ثقافة ترتفع إلى هذا المستوى من الفهم لواقع الرسالة ولأهداف الإمامة تكون منسجمة مع اللوازم الممهدة والمسرعة للظهور المقدس. وليس منطقياً

---

(١) بحار الأنوار / ٣٥١

أن نفترض أنّ الإمام (عليه السلام) سيبني هذه الكوادر بطريقة غيبيَّة من دون جهد منهم، بل لابدّ أن نُسهم في ما يعجل الظهور المبارك.

ثانيًا: أن يهيئ الله أرضية للظهور:

يمكن أن يكون معنى قوله (عليه السلام): "يصلح الله أمره في ليلة" أو "إنّ أمري لفجأة" بتنجيز أمور مهمة لا يمكن للظهور أن يتحقق إلّا بعد تحققها؛ لأنّها عناصر مهمة وضرورية، ولعل أهمها ما يأتي:

- تعميق اليأس وخيبة الأمل لدى شعوب العالم بسبب فساد فكرها الفلسفي، واطروحاتها السياسيَّة وانهيار أنظمتها الاجتماعيَّة والاقتصادية التي خلقت طبقية في كلّ تلك المجالات، وصنفت الناس عمليا إلى ثلّة مترفة متسلطة، وإلى قاعدة كبيرة من الفقراء، سلب الفقر كرامتهم وإنسانيتهم. وبكلمة نقول: إنّ الأنظمة العلمانية التي تتستر بأجمل الشعارات ألقت بتبعات أخطائها على الفقراء الذين هم حطب لأخطاء الأنظمة.

ونلحظ في التجارب الإنسانيَّة أنّ الأمم تصحوا في بعض الأحيان فتثور على حكامها وأنظمتها، ولكن سرعان ما تصاب بخيبة أمل؛ لأنّها لا تجد الحلّ لمشاكلها، في الاطروحات الفكرية الماديَّة، وغفلت عن الحلّ الحقيقي المتمثل بالارتباط بالسماء، وأخذ الشرائع من خالق الكون

والحياة "ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون"[١].

ونجد الانعكاسات السلبية للأنظمة الماديَّة فيما صدر عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) و أهل البيت (عليهم السلام) في عدد كبير من النصوص التي أشارت إلى المعاناة الكبيرة والقاسية التي ستجعل الإنسانيَّة في حالة من اليأس السلبي المدمر الذي يجعل الموت حلّا وحيدا له فقد روي عن ابن مسعود أنّه قال: "يأتي على الناس زمان يأتي الرجل القبر فيضطجع عليه فيقول: يا ليتني مكان صاحبه. ما به حب لقاء الله إلا ما يرى من شدة البلاء"[٢].

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: "لا تقوم الساعة حتى يمرّ المرء بقبر أخيه فيقول: يا ليتني مكانك"[٣]. ثمّ يعقب ذلك حالة من التطلّع إلى المصلح الأكبر المنقذ من معاناة الشعوب ومحنها، على وفق السياقات التي أشارت إليها الروايات إجمالا.

ومن المؤكد أنّ ردة الفعل المنطقيَّة لليأس المترشح من فساد الأنظمة يفرز قاعدة شعبية كبيرة من المتضررين والمستضعفين تتطلع إلى

(١) الأعراف / ٩٦

(٢) مستدرك الحاكم ج٤ / ٤٥٤

(٣) المصنف ج١١ / ٣٧٩

الأمل الوحيد والمنقذ الجديد الإمام الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) ليحلّ مشاكلها، ويوفّر لها حياة كريمة مستقرة.

هذه الشريحة من القواعد الشعبية لا يمكن عدّها مهمة في تحقيق الظهور؛ لأنّها وأن كانت قد تخلّت عن الأنظمة المنحرفة المعادية للقيم الربّانيَّة فإنّها لا تتوخى غير الاستقرار والرفاه، وقد ينطبق عليها ما جاء عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: "أبشركم بالمهدي يبعث في أمّتي على اختلاف من الناس وزلزال يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض.

يقسم المال صحاحا.

فقال رجل: ما صحاحا؟

قال: بالسوية بين الناس، ويملأ الله قلوب أمّة محمّد (صلى الله عليه وآله) غنا، ويسعهم عدله، حتى يأمر مناديا ينادي يقول: من له في المال حاجة؟، فما يقوم من الناس إلا رجل واحد فيقول: أنا. فيقول: أئت السادن يعني الخازن فقل له: إنّ المهدي يأمرك أن تعطيني مالا. فيقول له: احث، حتى إذا جعله في حجره وأبرزه ندم، فيقول: كنت أجشع أمّة محمّد نفسا أعجز عما وسعهم فيرده، ولا يُقبل منه، فيقال له: إِنّا لا نأخذ شيئا أعطيناه"[1].

(١) بحار الأنوار ج٥١ / ٩٢

أو ما ورد عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) أنه قال: "إذا قام قائمنا أهل البيت قسّم بالسوية، وعدل في خلق الرحمن، البرّ منهم والفاجر منهم – إلى أن قال – وتُخرج الأرض كنوزها من الذهب والفضة فيقول: أيها الناس هلموا فخذوا ما سفكتم فيه الدماء وقطعتم فيه الأرحام. ويعطي ما لم يعطه أحد من قبله، ولا يعطيه احد من بعده، اسمه اسم نبي، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجوراً"(١).

وعلى كلّ حال فإنّ هؤلاء سيشكلون قاعدة كبيرة يقبلون حركة الظهور، لأنّ حلّ مشاكلهم يكمن فيه. ونجد اليوم تصاعدا كبيرا لهذه الشريحة التي تعاني الفقر والحرمان والتهميش، وتصاعد حالات الانتحار والادمان على المخدرات وأمثال ذلك.

إنّ الأكثرية المتضررة من سلبيات الأنظمة العلمانية الماديَّة وما جنته من فقر وحرمان، وأصبحت طبقة محرومة، لا تتطلع إلى أكثر من أنْ تجد من يسدّ لها حاجاتها الماديَّة بشكل حقيقي، وليست مستعدة لتحمل مهمة التغيير وما يلزم من مشاق وصعوبة، نعم النقطة الإيجابية الوحيدة فيها أنّها تملك مقومات الاستعداد لقبول العملية التغييرية التي يقودها الإمام(عليه السلام)؛ لأنّها تصب في مصلحتها. وهؤلاء لا يبحث عنهم

(١) شرح الاخبار ج٣/ ٣٩٧

الإمام(عليه السلام) في مرحلة الاستعداد للظهور والتمهيد له، وإنّما هم هدفه في المستقبل بعد استقرار الدولة لتغيير بنيتهم العقائديَّة والثقافيَّة.

▪ نواة الجيش الأولى:

تؤكد النصوص أنّ النواة الأولى لجيش الإمام المهدي (عليه السلام) عشرة آلاف مقاتل. وهي قوة طلائعية متميزة في كلّ شيء. وقد ورد بهذا الشأن عن عبد العظيم الحسني (رضي الله عنه) قال: "قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام إني لأرجو أن تكون أنت القائم من أهل بيت محمّد الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً.

فقال: يا أبا القاسم ما مِنّا إلّا قائم بأمر الله، وهاد إلى دين الله، ولست القائم الذي يطهِّر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملأها قسطا وعدلا – إلى أن قال – يجمع إليه من أصحابه عدد أهل بدر ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلًا من أقاصي الأرض، وذلك قول الله عز وجل: ﴿**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، فإذا اجتمعت له هذه العدّة من أهل الأرض أظهر أمره، فإذا كمل العقد وهو عشرة آلاف خرج بإذن الله..."(١).

(١) بحار الأنوار ج٥١ / ١٥٧

ومن الصعب تصوّر أن يتمكن هذا العدد البسيط من تغيير خارطة العالم، أو أن يواجه جيوشا من الأعداء الأشداء يبلغ عددهم آلاف الأضعاف ممّن لا يريد المهدي ولا يقبل بالتغيير، ما لم نفترض أنّ تأييدا ربانيا يلازمهم على طول الخطّ، مع توافر خبرة وتسليحا جديداً يفوق التسليح المتعارف؛ لأنّ راية الحقّ كما روى إبّان بن تغلب عن الإمام الصادق (عليه السلام) إذا ظهرت راية الحقّ "لعنها أهل الشرق والغرب"(١) فجبهة الأعداء العريضة جبهة كبيرة تحتاج مواجهتها إلى إمكانات كبيرة.

ويمكن أن نعرف من أمثال هذه النصوص التي تؤكد أنّ جبهة الأعداء للإمام روحي فداه جبهة عريضة جدًّا (لعنها أهل الشرق والغرب) وأنّه (إذا كمل له العقد وهو عشرة آلاف خرج بإذن الله) فإن الإمكانات التي ستكون متوافرة للإمام (عليه السلام) إمكانات استثنائية جدًّا، إذ لا يعقل بحسب منطق الحياة وتاريخ المواجهات التغييرية أن يتمكّن عشرة آلاف من مواجهة الشرق والغرب. وحتى لو فرضنا أنّ ثلثي العالم سيفنى جراء الحروب والاحداث الطبيعية كالزلازل والفيضانات وامثالها فإنّ الثلث الباقي عدّة مليارات، وهو عدد ضخم لا يتناسب مع عشرة آلاف، واذا تتبعنا النصوص فإننا نجد إغفالا تامّا لنوع الأسلحة التي ستكون مع

(١) بحار الأنوار ج ٥٢ / ٣٦٣

أصحاب الإمام (عليه السلام) باستثناء عنصر أساسي واحد وهو (الرعب)، وهو عنصر نفسي قد يلقيه الله تعالى في القلوب مباشرة (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب)، أو ينتج عن أسباب ماديَّة تقتضيه، ومن شأنه أن يحيِّد اعظم واخطر سلاح، فلو أنّك أعطيت احدث طائرة مزوّدة بأحدث التكنولوجيا لطيار مرعوب فإنّه سيعجز عن القتال بل سينهزم، أو سيسقط طائرته لأتفه الأسباب. وما من شك أن التأييد الربّاني سيكون هو السبب الأساس لنزول الرعب في قلوب اعدائه ولكن لا بدّ من وجود مظهر مادي تسليحي يسهم في إيجاد ذلك؛ لأنّ سنة الله تعالى ومسيرة النبوّات عليهم السلام جرت وسارت على ذلك قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ...**﴾[1]، وفي معركة بدر مثلا كان التأييد بملائكة مسومين وبـ(جنود لم تروها) مظهرا واضحا سبب الرعب والخوف في قلوب أعداء الرسول والرسالة، وقد تحدثنا عن ذلك سابقا. فضلا عن أنّ النصوص تؤكّد أهمية الجهد البشري في نجاح حركة الإمام المهدي(عليه السلام) ومقدار الجهد والعناء والمشقّة فقد جاءت تعبيرات مثل (حتى يختلط العرق والعلق) وأمثال ذلك. ومنه نفهم أنّ العناصر الإعجازيَّة الربّانيَّة فضلا عن

(١) الانفال ٦٠

أنّها ضرورية واساسية في حركته (عليه السلام) كذلك يكون للجهد البشري مكانة حيوية في اكمال جميع العناصر اللازمة للنصر والنجاح.

وعلى هذا الأساس لا ينبغي للمتطلعين إلى دولة الحقّ أن يقعوا تحت تأثير العناصر الإيجابية بعد تحقق العدالة، ويغفلوا عن أشواط ومراحل الجهاد القاسية التي تسبق ذلك؛ لأنّ الثقافة المهدوية الصحيحة تقتضي الاستعداد لقبول الأصعب والاشدّ، فهي سُنة الله عزّ وجلّ في عمليات التغيير والتصحيح الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصادية والأخلاقيَّة، وحركة المنتظر (عليه السلام) لا تخرج عن هذه السُّنة: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾**[(١)].

ويجب علينا أن نفهم في إطار تطلّعنا إلى أن نكون من الصفوة المستعجلة لظهور بقية الله الأعظم (عليه السلام) أنّ جهادا مريرا ينتظرنا مع أصناف هم من قبيل من رفع شعاراً مقدساً نحو: لا حكم الا لله وامثال ذلك سيقع بحيث يكون قبول ذلك امرا شاقا وصعبا ويحتاج إلى تربية

(١) البقرة / ٢١٤

روحيـة وعقليـة وعقائديَّـة تتخطّـى الحـواجز النفسـية وحالـة المفاجـأة والصعقة إلى حالة الاستبسال وقبول الأمر الواقع كعبادة مقدسة.

ويجب أيضا أن نستبعد -عقليا ونفسيا- ثقافة انتظار الرفاه والعيش المـترف، والتمتـع بالإمكانـات الماديَّـة التـي سـوف تتـاح للجميـع بعـد استقرار دولة مهدي آل محمّد (ﷺ)؛ لأنّ مفهوم (والـذين جاهـدوا فينـا) من اهم اركان نهضة الإمام (عليه السلام) واصحابه، وهو مفهـوم يقتضـي العطـاء والتضحية على طـول الخطّ، ولـيس جني المكاسب الماديَّة، ولا الرفـاه الشخصي.

▪ تهيئة الأجواء النفسية والعاطفية:

وهـو عنصـر مهـم لحركـة الظهـور، وقبـول عمليـة التغيير بأبعادهـا المختلفـة مـن قبـل الأمّـة والالتفـاف حـول قيادتـه المباركـة، والعمـل معـه وطاعته عن ايمان وحبّ وقناعة مطلقة.

ولا يحتـاج هـذا الموضـوع إلـى تأكيـد بعـد أن أكـده القـرآن الكـريم بوصفه أهمّ عنصر من عناصر الإيمان الحقيقي، وإنّمـا الكـلام عـن أهميتـه في عمليـة التغييـر؛ لأنّ الإمـام (عليه السلام) سـيواجه مشـاكل كثيـرة وكبيـرة مـن قبل اعدائـه المباشـرين، بشـنّ الحـروب العسـكرية عليـه، ومـن المسـلمين

الذين لا يؤمنون به، أو بالتغيير الذي سيحدثه، وقد يتردّد كثيرون في قبول الحالة المهدوية المباركة على الرغم من التأييد الرباني، والبراهين التي تدعمه.

ومن جانب آخر فإنّ مهمة الإمام (عليه السلام) مهمة عظمى؛ لأنّه أمل النبوات في تحقيق أهدافها يملأ الأرض قسطا وعدلا، والآمال معقودة عليه في رفع ظلامة الإسلام الذي حرم من أن يؤدّي دوره في الحياة منذ رحلة الرسول (صلى الله عليه وآله) والى يومنا هذا، مع ما تعرض له من عمليات تشويه وتحريف، وحالات الاستغلال البشع لقيمه المقدسة ومبادئه وشرائعه العادلة من قبل الحكام والمنافقين، وأصحاب المصالح النفعيين، لذلك كان من الضروري أن يعود الدين غضّا طريًا كما نزل، فقد ورد عن الإمام الباقر(عليه السلام) انه قال: "إنّ قائما إذا قام دعا الناس إلى أمر جديد كما دعا إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإنّ الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء"[1]. وفي نصّ آخر عن الإمام الصادق(عليه السلام) انه قال: "يستأنف الداعي منّا دعاء جديدا كما دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله)"[2].

---

(١) غيبة النعماني ٢٢٠

(٢) المصدر السابق

وفي نـصّ آخـر قـال: "يصـنع كمـا صـنع رسـول الله (صلى الله عليه وآله) يهـدم مـا قبله"[١]. وعلى وفق ما هو واضح فإنّ مهمـة الإمـام (عليه السلام) مهمـة تغييريـة لخصها أهل البيت (عليهم السلام) بتعبير دقيق: (وسيعود غريبا كما بـدأ) غريـب في كلّ التفاصيل على المسلمين فلا يقبله كلّ احد إلّا من عصم الله تعـالى، وسيواجه رفضا وعنادا من قبل كلّ من تضررت مصالحهم بسببه.

إنّ قبـول هـذه المُهمـة مـن قبـل الامـة يحتـاج إلـى كثيـر مـن التفاعـل العقائدي والفكري والروحي والعـاطفي الـذي يجعـل عمليـة التغييـر كمـا هي هدفه (عليه السلام)، كذلك يجب أن تكون هدفهم.

ومن المؤكد أنّ الرعاية الربّانيَّة ستلقي في قلوب الناس محبّة عظيمـة لبقية الله الأعظم، من ذوي الفطرة السليمة، ولا أقـول المـؤمنين فحسـب، تمكنـه مـن التـأثير في إصـلاح الواقـع واطفـاء الفـتن، فقـد جـاء عـن الإمـام الصـادق (عليه السلام) أنّـه قـال: "المهـدي محبـوب في الخلائـق، يطفـئ الله بـه الفتنة الصماء"[٢].

وعـن النبـي (صلى الله عليه وآله) أنّـه قـال: "تـأوي إليـه أمتـه كمـا تـأوي النحلـة إلـى يعسوبها، يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا"[٣].

---

(١) غيبة النعماني ٢٢٠

(٢) بشارة الإسلام ١٨٥

(٣) ابن حماد ٩٩

إنّ مرحلة التغيير تتطلب توافر القاعدة التي تعشق الإمام وتتفانى في حبّه، وتتبنى عملية التغيير بنفس الروح والمنطق، لأنّ ذلك سيسهم في بناء الأرضية التي تعجل الظهور المبارك. نعم ما بعد الظهور ستجد البشريَّة في الإمام الحجّة(عليه السلام) اكثر من سبب يوجب حبّه ومودته وسوف تتعلق به تعلقا عظيما، لا لأنّه بقية رسول الله(صلى الله عليه وآله) أو أنّه الإمام المعصوم الذي تطلّعت إليه القلوب والنفوس فقط، وإنما لما ستجد من الرحمة والمودَّة بحيث لم تعرف البشريَّة نظيرا لذلك، إلّا في رسول الله(صلى الله عليه وآله) ووصيه(عليه السلام) فقد جاء عن الإمام الباقر(عليه السلام) أنّه قال: "ما تستعجلون بخروج القائم فو الله ما لباسه الا الغليظ ولا طعامه الا الجشب"[1]. وفي رواية أخرى "وما طعامه إلا الشعير"، في الوقت الذي يغدق الأموال على الأمّة كلها بلا حدود.

وروى المفضل بن عمر قال: "كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) بالطواف فنظر إليّ وقال: ما لي اراك مهموما متغيّر اللون؟، قال فقلت له: جعلت فداك نظري إلى بني العباس وما في أيديهم من هذا الملك والسلطان والجبروت فلو كان ذلك لكم لكنا فيه معكم.

فقال: يا مفضل أما لو كان ذلك لم يكن إلا سياسيَّة الليل وسياحة النهار، واكل الجشب، ولبس الخشن شبه امير المؤمنين وإلّا فالنار،

(١) غيبة النعماني ١٥٤

فزوي ذلك عنّا فصرنا نأكل ونشرب، وهل رأيت ظلامة جعلها الله نعمة مثل هذا؟"(١).

وفي نصّ آخر عنه: "لو كان الذي تقول لم يكن إلّا اكل الجشب ولبس الخش مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وإلا فمعالجة الاغلال في النار"(٢).

هذه هي القيم المحمدية الصادقة التي تجعل الامة والبشريَّة كلّها تحبّه وتعشقه وتتمسك به، فما بالك برجل يحكم العالم كلّه وبيده ثروات الأرض والسماء، ولا يجعل لنفسه ما لغيره من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من حقّ في هذه الثروة إلّا بمستوى: (اكل الجشب ولبس الخشن) لا بدافع المواساة لفقرائهم حيث لا فقير، ولا بدافع الايثار حيث لا حاجة إليه، وانّما لأنّه الإمام القائد الاسمى من كلّ مظاهر الحياة الماديَّة والمكاسب الشخصية، والملذات الزائلة؛ لأنّه زينة الحياة الدنيا والدنيا لا تليق به، ولا ترفع من شأنه.

وعلى كلّ حال فإنّ ما يفرضه الاعتقاد الصحيح بالإمام الحجّة المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) الذي قد يساعد في تمهيد الظهور هو إشاعة منهج حبّ

(١) غيبة النعماني ١٩٣

(٢) المصدر السابق

الإمام (عليه السلام) حبًّا صادقا، وحب عمله وجميع خطواته، عن طريق دراسة شخصيته وسيرته واهداف نهضته المباركة وامثال ذلك بما يعزز الصلة العاطفية به، بعد ترسيخ الإيمان به وبأهدافه.

هل يتصل الإمام بقواعده في الغيبة الكبرى؟:

هل يعيش الإمام الحجّة (عليه السلام) منعزلا منفردا بعيدا عن المجتمع والأمّة، أم أنّه يقوم بدور ووظائف الإمامة بما يتناسب مع متطلبات الغيبة وطبيعتها؟، أم أنّ هناك قاعدة خاصَّة من المخلصين يشكلون محورا لعمل الإمام (عليه السلام) ونشاطه في كلّ عصر؟

نرى فيما جاء عن أهل البيت (عليهم السلام) في توضيح هذه القضية أنّ الطليعة المقدسة التي تشكل الخطّ القيادي الأول في بداية الظهور يكون احد عناصرها (الابدال). والابدال بحسب ما ورد في صحاح الجوهري في مادة (بدل) هم: (قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحد أبدل الله مكان بآخر، قال ابن دريد: الواحد بديل).

فهم مجموعة ضمن المجتمع لهم صفات وخصائص استثنائية اهلتهم ليكونوا عنصرا مهما في المجموعة القياديَّة الأولى؛ لأنّهم ابدال (إذا مات واحد ابدل الله مكانه بآخر)، وهذا يدلّ على أنّ هذا العدد

متوافر دائما في كلّ مراحل الغيبة الكبرى، بعكس النجباء والأخيار الذين لا نعرف وجود هذه الخصوصية فيهم من كلمتي: (النجباء والاخيار) الذين هم من مصر والعراق، في حين لا تحدد الروايات الموقع الجغرافي للأبدال، مّا يدلّ على أنّهم من دول ومناطق متعددة، فضلا عن أنّ العناية بوجود العدد نفسه على الدوام لا بدّ فيه من حكمة، قد تقتضيها طبيعة العمل بحسب الموقع الجغرافي لكل واحد منهم.

ولا يمكن أن يكون سبب وجودهم أنّ الله تعالى يحفظ الأرض بهم من البلايا والكوارث العامَّة؛ لأنّ النصوص كثيرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام) بأنّ ذلك إنَّما يتمّ بسبب وجود الإمام المعصوم (عليه السلام) يقول الإمام الحجّة (عليه السلام): "وانّي لأمان لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء"(١). وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: "لو أنّ الإمام رفع من الأرض ساعة لساخت بأهلها وماجت كما يموج البحر بأهله"(٢) وإن فرض ذلك جزئيا فإنّه يرجع لارتباطهم بالإمام الحجّة (عليه السلام) لا إلى ذواتهم الشخصية.

واذًا لا بدّ لهم من دور مهم في مرحلة الغيبة الكبرى يتعلق بطبيعة عمل

---

(١) البحار ح٥٢/ ٩٢

(٢) غيبة النعماني ٨٩

الإمام في مختلف انحاء العالم. وحينما يتحقق ظهوره(عليه السلام) سوف تتحق معرفتهم كذلك، وسوف يلتحقون به في مكة المشرفة مع النجباء والاخيار.

وهذا الموضوع تكرر كثيرا في النصوص الواردة فيما يتعلق بحركة الظهور. ويبقى أنْ نعرف بعض التفاصيل التي تتعلّق بوضع الإمام (عليه السلام) حال الغيبة وطبيعة عمله؛ لأنّه من المواضيع المهمة التي ترددت على الالسنة وتحتاج إلى إجابة واضحة، على الرغم من الإيمان بالإمام المهدي (عليه السلام) عقيدةً إسلاميَّة ثابتة، وأنّه المصلح الأكبر الذي سيملأ الأرض قسطا وعدلا متى ما أذن الله تعالى له بالظهور، ولا أهمية لباقي التفاصيل إلا في الحدود التي تشكل عناصر أساسية في العقيدة ذاتها، ومع ذلك نحتاج إلى إجابة اجمالية فنقول: إنّ النصوص الواردة عن أهل البيت توضح بعض تلك الأمور التي تتعلق بطبيعة عمله، وصلته بقواعده الخاصَّة التي تعمل معه، أو تعرفه اجمالا، ويمكن أن نشير إلى أهمها:

أولاً: دوره الشامل:

هناك نصوص كثيرة تشبه دور الإمام (عليه السلام) بالشمس إذا سترها الساحب، وهو تشبيه مهم، لأنّه يعبّر عن دوره الشامل لجميع الكرة الأرضية، فالشمس ذات تأُثير عام، والإمام يشبهها في التأثير والعمومية. ولم يكن تشبيهه اعتبطا بل هو مقصود ومتكرر في جميع الروايات التي تتحدث عن دوره (عليه السلام) وعمله في الغيبة الكبرى.

نجد ذلك واضحا فيما أورده الشيخ الصدوق (رضي الله عنه) عن سليمان قال: "فقلت للصادق (عليه السلام) فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟ قال: كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب"[١].

ونحن وإنْ كنّا لا نعرف طبيعة وأسلوب تأثيره في حياتنا، إلا أنّنا نعتقد أنّ الإمامة بوصفها منهجا ربانيًّا لاستخلاف الرسول والرسالة لها التأثير الأول في جملة من الأمور واهمها حفظ الإسلام ومصالح الأمّة الإسلاميَّة. وليس من الضروري معرفة أسلوب الإمام في التأثير إلا أنّنا ندرك النتائج بالوجدان؛ لأنّ الإمام (عليه السلام) على وفق ما تقدَّم لا يخفى عليه شيء ممّا هو ضروري من أمور الدين والدينا، بل نجد النصوص تؤكد حضوره الميداني في مناسبات مهمة مثل الحج فعن عبيد بن زرارة قال:

"سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: يفقد الناس إمامهم، يشهد الموسم فيراهم ولا يرونه"[٢]. وفي رواية أخرى تشير إلى حضوره المبارك في مناسبات أخرى قد تكون غير مقتصرة على الحج، بل تتعداه إلى غيره، وفي رواية زرارة قال: "سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إنّ للقائم غيبتين يرجع في احداهما، وفي الأخرى لا يُدرى اين هو، يشهد

(١) الامالي ٢٥٣

(٢) الكافي ج١/ ٣٣٧

المواسم يرى الناس ولا يرونه"[١]، وقد يراد بكلمة (مواسم) مناسبات أخرى غير الحج.

ومن المؤكد أنّ هدف أئمة أهل البيت (عليهم السلام) من إخفاء طبيعة عمل الإمام الحجّة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في عصر الغيبة الكبرى هو ما يقتضيه معنى الغيبة؛ لأنّ تشخيص العمل يكشف عن شخص العامل في معظم الأحيان، وهو خلاف المفروض، فكان من الضروري التأكيد على الدور والتأُثير العام (كما ينتفعون بالشمس) من دون بيان الكيفية.

وقد نجد عنصرا مُهما في النصوص يلمح إلى طبيعة أو دور الإمام في عصر الغيبة عن طريق التشبيه بدور يوسف (عليه السلام) في بعض فصول قصته، ونجد نصًّا مرويا عن الإمام الصادق (عليه السلام) يندد بالمنكرين لإمكان غيبة الإمام الحجّة (عليه السلام) - طبعا كان ذلك قبل ولادة الإمام المهدي(عليه السلام)- فكان ينكر عليهم اشد النكير، ويقرب إمكانية غموض ولادته بالنبي موسى (عليه السلام) فيقول الإمام (عليه السلام): "ما ينكرون لصاحب الأمر... فإن لصاحب الزمان شبهاً من موسى ورجوعه من غيبته بشرخ الشباب"[٢]. كما أن موسى (عليه السلام) لا دليل تأريخي يثبت ولادته ثم غيبته

---

(١) الكافي ج١/ ٣٣٩

(٢) منتخب الأنوار المضيئة / ١٨٨

إلى يوم تكليفه بالرسالة ومقتضى الدليل التأريخي أن يقول أصحابه أن موسى (عليه السلام)ابن فرعون لا ابن عمران!!

ويقرب قضية طول العمر بعمر النبي نوح (عليه السلام) فيقول : "ما تنكرون أن يمد الله لصاحب هذا الأمر في العمر كما مدَّ لنوح عليه السلام في العمر"(١).

ومثّل لبعض ما يتعلّق بالإمام الحجّة (عليه السلام) ببعض ما وقع للنبي يوسف (عليه السلام) فعن زرارة قال: "قال أبو عبد الله (عليه السلام): إنّ في صاحب هذا الأمر شبها من يوسف (عليه السلام). قال قلت له: كأنك تذكره حياته أو غيبته؟، فقال لي: وما ينكرون من ذلك، هذه الأمّة أشباه الخنازير إنّ إخوة يوسف (عليه السلام) كانوا أولاد الأنبياء تاجروا بيوسف، وبايعوه وخاطبوه وهم إخوته وهو أخوهم، فلم يعرفوه حتى قال: أنا يوسف وهذا أخي، فما تنكر هذه الأمّة الملعونة أن يفعل الله عز وجل بحجته في وقت من الأوقات كما يفعل بيوسف.

إنّ يوسف (عليه السلام) كان إليه ملك مصر، وكان بينه وبين والده مسيرة ثمانية عشر يوما، فلو أراد أن يعلمه لقدر على ذلك. لقد سار يعقوب(عليه السلام) وولده عند البشارة تسعة أيام من بدوهم إلى مصر، فما تنكر هذه الأمّة أن يفعل الله جلَّ وعزَّ بحجته كما فعل بيوسف، أن يمشي

---

(١) غيبة الطوسي / ٢٥٩

في أسواقهم ويطأ بسطهم حتى يأذن الله في ذلك له كما أذن ليوسف، قالوا: أئنك لأنت يوسف. قال: أنا يوسف"[١].

يتضمّن هذا النصّ عناصر مهمة فيما يتعلّق بأمر الإمام (عليه السلام) أهمها:

١- إنّ للإمام حضورا مباشراً في المجتمع، يرقى إلى مستوى التعامل العرفي مع الناس يشير إليه قوله (عليه السلام) "إن إخوة يوسف كانوا... أولاد أنبياء تاجروا بيوسف وبايعوه وخاطبوه" وقوله "أنْ يمشي في أسواقهم ويطأ بسطهم"، فهو ليس في عزلة لا يخالط المجتمع ولا يعرفه، أو يعيش في جبال ومغارات وكهوف وأمثال ذلك.

٢- بل قد يكون في بعض الأحيان في مركز القرار والحكم "فما تنكر هذه الأمّة الملعونة أن يفعل الله عز وجل بحجته في وقت من الأوقات كما يفعل بيوسف". إنّ يوسف (عليه السلام) كان إليه مُلك مصر".

ولا نستطيع أن نفهم الأبعاد الحقيقيَّة والتفاصيل الكاملة للأدوار التي هي بهذا المستوى في عصر الغيبة التي قد يمارسها الإمام (عليه السلام)؛ لأنّ الخفاء عنصر ثابت في الغيبة.

وقد يقال إنّ المقصود من التشبيه بأوضاع يوسف (عليه السلام) وأحواله

---

(١) الكافي ج١ / ٣٣٦

هو الإشارة إلى ما سيؤول إليه أمر الإمام (عليه السلام) بعد الظهور من التمكين والحكم، كما كان الأمر ليوسف.

وهو احتمال وارد، إلا أنّه يرد عليه كذلك بأنّ جوّ المقارنة العامّ بين يوسف (عليه السلام) والإمام الحجّة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) إنَّما هو لبيان أهمية عمل الإمام(عليه السلام) في الغيبة، وتأثيره في المجتمع والواقع، لأنّ تأكيد القرآن الكريم الأساس كان على دور يوسف (عليه السلام) وحكمه لمصر، وقد استغرق ذلك الآيات من الآية (٥٤) إلى الآية (١٠١) وهي بمجملها تشكِّل أكبر فقرة في قصة يوسف (عليه السلام)، وهذا ما نقصده من التأكيد على أنّ الإمام الحجّة (عليه السلام) له أكبر الأثر في النفع العام وهو يتطلب قدرة وإمكانية فعلية، ولو لم يكن للشمس تأثير، أو كان قرصها باردا لما مثّل الإمام الصادق (عليه السلام) بها.

نعم نستخلص من النصّ مفهوماً آخر وهو جهل الناس به، وعدم معرفتهم لهويته على الرغم من كونه يمشي في أسواق الناس ويطأ بُسُطهم. وسوف يأتي بعد قليل بعض أوجه المقارنة بيوسف (عليه السلام).

ثانياً: دوره الخاص:

هل للإمام (عليه السلام) دور وتأثير في سلامة الفتاوى والأحكام التي

تصدر عن الفقهاء والمجتهدين، ولو بالحدّ الأدنى. وأعني تدخّله – بأيِّ شكل كان – لأجل أن لا تكون الفتوى مخالفة للكتاب والسنة على الأقل. أو لتكون مطابقة لما هو موجود فيهما، بما يبرّئ الذمة ويحقق الغاية.

وهل المعصوم الحجّة (عليه السلام) ضامن لمسيرة الأمّة الإسلاميَّة على وجه الأرض من الانحراف وهدايتها إلى الحقّ والهدى عقائديا وفكريا؟.

نجد في النصوص ما يشير إلى أنّ للإمام (عليه السلام) الدور الأكبر لضمان ذلك ففي رواية إسحاق بن عمار عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: " إنّ الأرض لا تخلو إلا وفيها عالم، كيما أنّ أزاد المؤمنون شيئا ردهم، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم"[(١)].

وهذا يعني أنّ للإمام بصمة كبيرة في تأمين الحدود الضرورية التي من شأنها حفظ الإسلام في جانبه التشريعي والعقائدي مع غضّ النظر عن الوسيلة والكيفية. وذلك لأننا نرى أنّ هذا الدور يشكل خطًّا ثابتا في عمل المعصومين منذ بداية عمل الإمامة بوصفها منصبا قياديًّا بعد وفاة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، سواءً أتيح للمعصوم ممارسة الحكم أم لا، يقول أمير

(١) غيبة النعماني / ٨٨

المؤمنين (عليه السلام): "اللهمّ بلى ولا تخلو الأرض من حجّة لله قائم بحجته، إمّا ظاهر معلوم، وإمّا خائف مغمور، لئلا تبطل حجج الله وبيناته"[١].

فنرى الإمام علي (عليه السلام) يؤكد أنّ دور الإمام الغائب هو دور الإمام الظاهر نفسه، وعبّر عن دوره بقوله (قائم بحجته) فهو (عليه السلام) يعمل بتكليفه الشرعي المكلف به، وإنْ كنّا نجهل كيفية عمله؛ لأنّ معرفة الكيفية ستعرفنا عليه، وهذا ما لا يمكن للإمام (عليه السلام) أن يفعله لأنّه خلاف تكليفه بالغيبة.

أما شيعة الإمام فإنّ تكليفهم الإيمان بإمامته وحياته وموالاته، وهذا ما أمرنا به رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الأطهار (عليهم السلام) في عصر الغيبة.

وهناك نصوص أخرى تشير إلى بعض جوانب تأثير المعصوم(عليه السلام) وأدواره مثل ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام): "إنّ الله لم يدع الأرض بغير عالم ولولا ذلك لم يعرف الحقّ من الباطل"[٢]. وما ورد عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: "إنّ الأرض إلا وفيها عالم كلّما زاد المؤمنون شيئا ردّهم إلى الحقّ، وإنْ نقصوا شيئاً أتمّه لهم"[٣].

وعن محمّد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام)

---

(١) غيبة النعماني / ٨٧

(٢) غيبة النعماني / ٨٩

(٣) علل الشرايع / ٧٧

أنه قال: "والله ما ترك الله أرضه منذ قبض الله آدم إلّا وفيها إمام يهدي به إلى الله، وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده"[١].

وهناك دور آخر للمعصوم (عليه السلام) ورد في رواية عن سليمان العامري عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: "ما زالت الأرض لله فيها حجّة يعرف الحلال والحرام ويدعو الناس إلى سبيل الله"[٢].

فمن مجموع ما تقدَّم نخلص الى بعض النتائج المُهمة عن الدور الفعلي للإمام (عليه السلام) حال الغيبة وهي:

١- إنّ الإمام(عليه السلام) هو صمام الأمان للموقف الشرعي الفقهي والعقائدي، وسلامة الأرض ومن عليها عموماً.

٢- إنّه (عليه السلام) المقياس الحقيقي لمعرفة الحقّ من الباطل، من حيث الإيمان به من عدمه.

٣- إنّه حجّة الله تعالى البالغة ومصدر الهداية الحقيقيَّة، فيجب الرجوع إليه والأخذ منه.

٤- إنّ المرجعية الحقيقيَّة لمعرفة الحلال والحرام هو الإمام المعصوم (عليه السلام) والمتمثل في زماننا ببقية الله الأعظم عجل الله فرجه.

ومن الطبيعي أنّ هذه المهام الكبيرة تحتاج بشكل و آخر، إلى مباشرة

(١) المصدر السابق

(٢) غيبة النعماني / ٨٨

المعصوم الحجّة (عليه السلام)، ولا يمكن سلبها عنه بسبب الغيبة، لأنّها من ذاتيات الإمامة، وسلبها يُفرغ الإمامة من محتواها الحقيقي.

أمّا ما هي الأساليب التنفيذية التي يمكن للإمام (عليه السلام) أنْ يعتمدها مع الحفاظ على سرّيّة شخصه (عليه السلام)، فهو أمر موكول إلى سيد حكماء أهل الأرض عجل الله فرجه وسهل مخرجه، فهو أعرف بما ينبغي أن يفعل وليس (المدبرات أمراً) بأعلم ولا أعرف منه.

ثالثاً: الدائرة الخاصّة:

هناك من النصوص ما يشير إلى أنّ هناك دائرة خاصَّة من المؤمنين يرتبطون بالإمام (عليه السلام) ارتباطاً مباشرا. وقد يكون بعضهم ممن يقوم بخدمته الخاصَّة وإدارة أموره الشخصية وهم:

١ - خادمه: المعبّر عنه بـ (المولى)، فعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: "لا يطلع على موضعه أحد من ولي ولا غيره، إلا المولى الذي يلي أمره"[١]. وفي رواية أخرى للشيخ الطوسي (قده) يذكر فيها (أولاد) الإمام (عليه السلام) فيروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه: "لا يطلع

(١) غيبة الطوسي / ٦١

على موضعه أحد من ولده ولا غيره إلا المولى الذي يلي أمره"[(١)].

ويمكن أن يستفاد من ذلك أنّ للإمام مقرا قياديّا خاصا فيه من الإمكانات والقدرات ما يفرض سرية مطلقة حتى عن ولده وأهل بيته، لأنّ تلك النصوص تؤكد سرية المكان، (لا يطلع على موضعه أحد). وسيأتي بعد قليل الإشارة إلى الدائرة الخاصَّة التي تعرف الإمام (عليه السلام) وتعمل معه، وإذن هناك من يعرف الإمام (عليه السلام) غير (المولى) ولكنه لا يعرف مكانه.

٢- دائرة من ثلاثين شخصا:

ليس من الواضح هل همُ الأبدال أو غيرهم، فعن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: "لابدّ لصاحب هذا الأمر من عزلة، ولابدّ في عزلته من قوة، وما بثلاثين من وحشه، ونِعَم المنزل طيبة"[(٢)].

والمقصود بالعزلة ما يرادف معنى (الغيبة) وليس الابتعاد عن الحياة والمجتمع وما يجري من أحداث؛ لأنّنا نعتقد تبعـًا للنصوص الصحيحة أنّ الإمام (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) منبع إشعاع الهداية والنور، وهذا ينافي العزلة، بل نجد أنّ الدائرة المكونة من ثلاثين تعني في جُملة ما تعني وجود نشاط مهم

(١) المصدر السابق

(٢) غيبة الطوسي / ١٦٢

للإمـام(عليه السلام) لأنّ هـذه الـدائرة المباركـة تكـون قـد تعرّفـت علـى الإمـام الحجّة بشكل مباشر فانتفى موضوع الغيبـة بالنسبة لهـم، فـلا بـدّ أن يكـون لهـم دور فعلـي يتناسـب مـع دور الإمـام (عليه السلام) في حفـظ كيـان الإسـلام والتمهيد لدولة الحقّ بالكيفية التي يقررها عليه السلام.

٣- يعدّ الخضر(عليه السلام) من الشخصيات القرآنية الاستثنائية، ويذكر له القرآن الكريم خصائص مهمة، منها: أنّ الله تعالى أعطاه علماً خاصا يعرف به الواقع. ومنها: طول العمر الذي ميّزه من كلّ البشر، وقد جاء ذكره في سورة الكهف بشكل موسَّع، وأخذت قصته مع موسى (عليه السلام) حيزا مهماً، ولابدّ لذلك من حكمة بالغة. وسوف يأتي توضيح ذلك إنْ شاء الله تعالى.

وجاء عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنّ الخضر (عليه السلام) ممّن يعرف الإمام الحجّة (عليه السلام) ويتصل به، قال(عليه السلام): "إنّ الخضر شرب من ماء الحياة، فهو حيّ لا يموت حتّى ينفخ في الصُّور... وإنّه ليأتينا فيسلِّم علينا فيُستمع صوته ولا يُرى شخصه، وإنّه ليحضر أينما ذُكر، فمن ذكره فليسلِّم عليه، وإنّه ليحضر الموسم كلّ سنة فيقضي جميع المناسك، ويقف بعرفة فيؤمن على دعاء المؤمنين، وسيؤنس الله به وحشة قائمنا (عليه السلام) في غيبته،

ويصل بها وحدته"[١]. وعلى هذا الأساس يكون الخضر (عليه السلام) الدائرة الثالثة ممّن له صلة ومعرفة بالإمام (عليه السلام) في عصر الغيبة.

ومما قد يظهر أو يستفاد من أمثال هذه النصوص أنّ الطريق إلى اللقاء أو العمل أو التشرف بخدمة الإمام ليس مغلقًا على من يستطيع أن يرقى إلى المستوى المطلوب من التدّين والمعرفة والوعي الذي يؤهِّله إلى الوصول إلى هذا المقام الرفيع؛ لأنّنا وإنْ كنّا نجهل المقاييس الحدّية التي أهَّلت هذه الثلة الصالحة، ولماذا وقع الاختيار عليهم دون غيرهم، فإنّ ما يمكن الجزم به هو أنّ هذه الدائرة مفتوحة بانفتاح وتجدّد واستمرار عمل الإمام، وأنّ المقاييس العامَّة التي تشكل محورا للارتباط الحقيقي بالإمام في كلّ زمان ومكان معروفة، وليست سرّاً، ولكن يختلف الإمام المهدي (عليه السلام) بعنصر خاص ينفرد به عن بقية الأئمة، ألا وهو (الكتمان والسرّية المُطلقة)؛ لذلك نجد أنّ موضوع الكتمان يشكل عنصرا مُهما فيما جاء عن النبي (صلى الله عليه وآله) وآله الأطهار.

هذا أهمّ ما يتعلق بالموضوع على نحو الاجمال.

---

(١) كمال الدين ج١/٤١٩.

الظهور والتطور العلمي:

هناك انطباع مؤداه أنّ الإمام(عليه السلام) سيظهر في عصر انهيار المدنية والعلم، وعودة الإنسان إلى عصر التخلُّف والبداوة، حيث ينتهي عصر الكهرباء والتكنولوجيا، ويتعطل كلّ شيء فلا يكون العالم قرية واحدة كما هو الآن.

ولعل السبب الذي دعا إلى هذا الانطباع هو ورود كلمة السيف والنبل والخيل أدواتٍ ومفردات في حركة الظهور التي جاءت في الروايات.

وقد يُعزى انهيار العلم والتكنولوجيا إمّا إلى حدث كوني يغيّر قوانين الفيزياء والكيمياء فتتلاشى كلّ جهود الإنسانيَّة التكامليَّة في ما انتجته وتوصلت إليه من إنجازات مذهلة ، قامت على أسسها، وإمّا إلى نفاذ الإمكانات الماديَّة المتاحة - مصادر الطاقة الرخيصة - التي تشكل العمود الفقري للتقدّم الحاصل، وهي بحسب ما هو معروف محدودة ومنتهية، بل هي على وشك النفاد.

وقد لا تكون المصادر البديلة كافية لإدامة ما هو موجود فعلاً إلّا في حدود ضيّقة لا تذكر، وسواء تعطلت التكنولوجيا وتوقفت مسيرة العلم بسبب حدث كوني، أم لنفاد الطاقة الرخيصة فإنّ كثيرا من القرائن تشير إلى أنّ عصر الظهور، أو على الأقلّ دولة الإمام ستقوم على قمّة ما يمكن أن يتخيل الإنسان من تقدُّم تكنولوجي وعلمي.

وعلى هذا الفرض إمّا أن تكون دولة الإمام (عليه السلام) بما تملك من طاقات ستسهم بتطوير الموجود فعلا إلى درجة مذهلة أو انها تطرح قوانين جديدة لم تكن معروفة إلى يومنا هذا.

وممّا لا شكّ فيه أنّه ليس من الضروري أن تعود الحياة إلى عصر السيف والخيل بسبب ورود هذه المفردات في النصوص الواردة وانّما طبيعة عصر صدور النصّ تقتضي ذلك؛ لأنّ المعصوم (عليه السلام) لا يمكنه إعطاء تفاصيل عن مُسميات الأسلحة أو الاتصالات أو وسائل النقل الموجودة في عصرنا لذلك المجتمع؛ لأنّه لا يمتلك تصورا تقريبيا عنها، ولو حاول الإمام ذلك لزاد من تعقيد تقريب الفكرة وتوضيحها لهم.

نعم يمكن أن تكون تلك الأمور رمزية واعتبارية، إذ نرى دول العالم وجيوشها ما زالت تعتمد السيف رمزا للقوة والخيل للفروسية والبطولة، فيكون من الطبيعي أن تكون هذه الأمور في دولة المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) رمزا للقوة والبطولة.

وهناك ما يشير إلى أنّ بعض المقاتلين في جيشه (عليه السلام) سيكرّم بسيف ينزل من السماء مكتوب عليه اسمه واسم أبيه، إذ ورد عن إبّان بن تغلب قال: "كنت مع جعفر بن محمّد (عليه السلام) في مسجد مكة، وهو آخذ بيدي فقال: يا إبّان سيأتي الله بثلاثمائة وثلاثة عشر رجل في مسجدكم هذا،

يعلم أهل مكة أنّه لم يخلق آبائهم ولا أجدادهم بعد، عليه السيوف مكتوب على كلّ سيف اسم رجل واسم أبيه وحليته ونسبه، ثمّ يأمر مناديًا فينادي هذا المهدي يقضي بقضاء داود وسليمان لا يُسأل على ذلك بيّنة"[١].

وورد كذلك عن إبّان عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: "سيبعث الله ثلاثمائة وثلاثة عشر إلى مسجد مكة، يعلم أهل مكة أنّهم لم يُولدوا من آبائهم ولا أجدادهم، عليه سيف مكتوب عليها ألف كلمة كلّ كلمة مفتاح ألف كلمة، ويبعث الله الريح في كلّ وادٍ تقول: هذا المهدي يحكم بحكم داود ولا يُريد بيّنة"[٢]. وعن أبي حمزة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: "إذا قام القائم نزلت سيوف القتال على كلّ سيف اسم الرجل واسم ابيه"[٣].

وإنْ أُريد بذكر (السيوف والنبال) أنّ الإمام (عليه السلام) سيقضي على الأسلحة الحديثة ومنها أسلحة الدمار الشامل بقدرة الله فإنّ ذلك أكبر خدمة للبشريَّة، إذ ستُسعد بالأمن والسلام، وحينئذ سيكون للسيف معنى معقولاً. إلّا أنّ هذا لا يعني عودة الحياة إلى عصور التخلُّف.

---

(١) غيبة النعماني ٢١٤

(٢) المصدر السابق

(٣) غيبة النعماني ١٦٢

وقد يرد على فكرة عودة الحياة إلى عصر ما قبل الصناعة:

الأول: إنَّ البيئة المنطقيَّة التي من المفترض أن تقوم فيها دولة أهل البيت (عليهم السلام) هي بيئة التطور والتقدُّم، وليس حياة البداوة والتخلُّف؛ لأنّ دولتهم هي دولة الإسلام الحقيقي القادر على حلّ مشاكل الإنسانيَّة في جميع اشكالها الاقتصادية والاجتماعيَّة والسياسيَّة، وتوفير اقصى ألوان الرفاه المادي بكلّ اشكاله وألوانه، وتحقيق أسمى ألوان العدالة الاجتماعيَّة، وتأمين جميع الخدمات التي تكفل للإنسانية الحياة الكريمة قال عزّ وجلّ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[(١)] وقال: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾[(٢)].

فالميدان الحقيقي للإسلام بأنظمته وتشريعاته هو ميدان الحضارة والتطوّر، اذ تتشعب المشاكل وتكثر الحاجات والثروة، فيؤدي النظام دوره في إعطاء الحلول الصحيحة، ووضع الأسس الصالحة لبناء الحياة والاستقرار التامّ فيقضي على الطبقية الاقتصادية والاجتماعيَّة والسياسيَّة

---

(١) الأعراف/ ٩٦

(٢) المائدة/ ٦٦

ويصبح الناس سواسية في كلّ شيء، فيثبت بذلك أنّ الدين الحقّ هو الإسلام وهو دين الفطرة، وستعرف البشريَّة حجم جهلها ومقدار خسائرها حين ابتعدت عنه في مسيرتها العلمانية الطويلة.

ونجد فيما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام) التأكيد على ذلك في صور أساسية من توافر الإمكانات التي نذكر أهمها:

١- **الامطار المنتجة**: ويعني انتعاش الزراعة من دون كلفة تذكر بحيث يكثر الإنتاج، وتتعدد اشكاله ويفيض عن الحاجة بل يصل الخير والبركة حتى إلى عالم الحيوان. ويبدأ ذلك بأمطار متواصلة في سنة الظهور تمهّد لمرحلة الانتعاش الزراعي، فعن سعيد ابن جبير قال: "إنّ السَّنة التي يقوم فيها المهدي تمطر الأرض اربع وعشرين مطرة ترى آثارها وبركاتها إنْ شاء الله"(١).

ثمّ تتوالى الأمطار طبق الحاجة وتحقيق الاكتفاء الكامل على وفق ما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "لا تدع السماء من قطرها شيئا إلا صبَّته، ولا الأرض من نباتها شيئا إلّا أخرجته، حتى يتمنّى الأحياء الأموات"(٢)؛ ليروا الخير والبركة. وفي نص آخر: "لا تدع السماء من قطرها شيئا إلّا صبّته مدرارا، ولا تدع الأرض من مائها شيئا إلا أخرجته"(٣)، وقال

---

(١) الارشاد ج٢ / ٣٧٣

(٢) كتاب الفتن / ٢٢٢

(٣) ابن حماد / ٩٩

الصادق(عليه السلام): "تزيد المياه في دولته، وتمدّ الأنهار، وتضاعف الأرض أكلها لا تدخر شيئاً"[١].

٢- **ثروات الأرض وخزائنها**: تخرج الأرض ما في أعماقها من ثروات كبيرة من نفط ومعادن وذهب وفضة إلى حدّ تفيض فيه عن الحاجة، وتصبح الثروات لكثرتها لا تعير عناية الناس ولا رغبتهم، فقد ورد في توصيف هذه الحالة رواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: "ثمّ يكون في آخر أمّتي خليفة يُحثي المال حثيًا، ولا يعدّه عدّا، وذلك حين يضرب الإسلام بجرانه"[٢] (يضرب بجرانه: أي إذا ثبت واستقر).

وقال (صلى الله عليه وآله): "تنعم أمتي في دنياه نعيما لم تنعم مثله قطّ، البَرُّ منهم والفاجر، والمال كدوس، يأتيه الرجل فيحثو له"[٣]. ويصف (صلى الله عليه وآله) حالة الاكتفاء وانعدام الطبقية وتساوي الناس جميعا في قوله: "يطلب الرجل من يصله بماله ويأخذ زكاته فلا يجد أحدا يأخذ ذلك استغناءً بما عند الناس من فضل الله"[٤].

---

(١) منتخب الأثر / ٤٧٢

(٢) الملاحم والفتن / ٥٦

(٣) المصدر السابق

(٤) الملاحم والفتن / ١٣٧

ويقول (صلى الله عليه وآله وسلم): "يفيض فيهم المال حتى يهم الرجل بماله من يقبله منه حتى يتصدق، فيقول الذي يُعرض عليه: لا أَرَبَ لي به"[(١)].

ويجب أن يكون واضحا أنّ هذه الحالة عامَّة في كلّ مجتمعات وقارات الكرة الأرضية، وهو إنجاز لم يتحقق في تاريخ الإنسانيَّة أبدا، إذ يصف (صلى الله عليه وآله وسلم) حجم الثروة التي ستخرج من الأرض من الذهب والفضة فيقول: "تقيء الأرض أفلاذ أكبادها أمثال الأسطوانات من الذهب والفضة، فيجيء السارق فيقول: في مثل هذا قطعت يدي. ويجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي. ثمّ يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً"[(٢)].

فينادي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) البشريَّة كلَّها فيقول: "تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدماء، وركبتم فيه محارم الله. فيُعطي شيئا لم يعطه أحد كان قبله"[(٣)]. فتعرف البشريَّة معنى العدالة وهي مجسَّدة أمامها، وسيرة الحاكم العادل الذي لا همَّ له إلا تحقيق العدالة بأرقى صورها، على وفق

(١) مسند أحمد ج٢ / ٥٣٠

(٢) ينابيع المودة ج٣ / ٨٦

(٣) منتخب الأثر / ٤٣٠

ما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): "يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى، ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي... تُخرج له الأرض أفاليذ كبدها، وتلقي إليه سلماً مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة، ويحيي ميت الكتاب والسنة"(١).

٣- **الصحة والسلامة البدنية:** تؤكد النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) أنّ الحياة ستأخذ مسارا جديدا يتّسم بالوصول إلى ذروة الكمال في جميع مناحيها وجوانبها، ومنها الوضع الصحي الكامل والمتطوِّر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ البشريَّة.

وسواء صحّ ما هو مرتكز في الاذهان من أنّ الإمام (عليه السلام) سيقوم بطريقة إعجازيَّة بإزالة العلل والاسقام والأمراض المستعصية التي عجز العلم عن علاجها على الرغم من تطوره، واجتثاث همّ الإنسانيَّة الكبير المتمثل بالخوف من الأمراض. أم أنّه (عليه السلام) سيكشف عن قوانين جديدة غير معروفة فعلا تتطابق مع ارقى ما يمكن أن يصل إليه العلم والعقل، فيغيّر قوانين ومبادئ ومناهج الطب الحديث إلى ارقى المستويات، فيحلّ المشاكل المستعصية التي عجز عنها الطب.

---

(١) ميزان الحكمة ج١ / ١٨٧

وتُعطي الروايات بعض معالم التطوّر الذي سيصل في دولة الظهور فتركز في الحالات المستعصية التي لا يعرف الطبّ الحديث حلّاً لها واهمها العاهات والعلل الخلقية، والنقص العضوي الولادي والطارئ، واطالة العمر إلى مديات كبيرة، فضلا عن علاج الأمراض المعروفة والمألوفة، ورد ذلك عن حريز عن أبي عبد الله (عليه السلام) عن أبيه (عليه السلام) عن علي بن الحسين (عليه السلام) أنّه قال: "إذا قام القائم اذهب الله عن كلّ مؤمن العاهة وردَّ إليه قوته"[١].

وقد تتوافر الإمكانيات فتكون قوة الرجل كقوة أربعين رجلا، على وفق ما ورد عن امير المؤمنين (عليه السلام): "فلا يبقى مؤمن إلا صار قلبه أشدّ من زُبر الحديد، وأعطاه الله تعالى قوة أربعين رجلا..."[٢]، بل نجد أنّ اهم ما سيحدث هو: الاستقرار النفسي وانتهاء القلق والخوف، وعودة النفوس إلى فطرتها الأولى، وفق ما جاء عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: "لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها ولأخرجتِ الأرض نباتها، وذهبت الشحناء من قلوب العباد واصطلحت السباع والبهائم..."[٣].

---

(١) البحار ج٥٢ / ٣٦٤

(٢) كمال الدين ٦٥٣

(٣) مصباح البلاغة ج١ / ٢٤٦

وورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال: "إذا قام قائمنا عليه السلام وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت بها احلامهم"(١).

ولا غرابة في ذلك؛ لأنّ الله عزّ وجلّ أيّد عبده ورسوله عيسى (عليه السلام) بمعجزات طبيّة وعلاجية وصلت إلى حدّ إحياء الموتى، وأيّد موسى(عليه السلام) بالتابوت الذي فيه سكينة واستقرار نفسي، والإمام المهدي(عليه السلام) وارث حقيقي للنبوّات التي تمتلك جميع العلوم والمعارف. وقد يكون هذا المقصود من وصف الإمام (عليه السلام) بأنّ فيه سُنة من عيسى وموسى ويوسف وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

٤- الاستقرار الأمني والهدوء النفسي.

ومن أهم معالم دولة أهل البيت (عليهم السلام) الاستقرار الأمني والاطمئنان النفسي، وزوال أسباب الخوف والقلق، فلا يشعر الناس إلا بالأمن والأمان، والدِعة والاستقرار، فلا خوف من شيء ممّا كان يخشاه الناس من قبل.

والعجيب أنّ الاستقرار الأمني لا يقتصر على المجتمع وحده، بل يمتدّ إلى الطبيعة كلّها بما تضمّ من مخلوقات وكائنات؛ لأنّ دولة الحقّ تجتث النهم والعدوان والتعدِّي بما تملك من قوة اقتصادية وإمكانات

(١) كمال الدين وتمام النعمة ٦٧٥

ماديَّة فيقول أمير المؤمنين (عليه السلام):

"لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشحناء من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم، حتى تمشي المرأة بين العراق إلى الشام لا تضع قدميها إلا على النبات، وعلى رأسها زينتها، لا يهيجها سبع ولا تخافه"(١).

وجاء كذلك: "وتأمن الأرض حتى أنّ المرأة لتحجّ في خمس نسوة ما معهن رجل لا يتقي شيئا إلا الله، تُعطي الأرض زكاتها والسماء بركتها"(٢)؛ فتتحقق موادعة شاملة بين جميع المخلوقات ببركة ولي الله(عجل الله تعالى فرجه الشريف) الذي تفيض بركاته على الحياة بتوفر الخيرات لجميع المخلوقات.

الثاني: هناك نصوص تشير إلى ظواهر غير اعتيادية تكون في دولة الظهور المباركة، وهي تدلّ على تطوّر علمي كبير منها:

- تقدم وسائل النقل الجوي فضلاً عن البري والبحري بشكل غير مألوف، فقد ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال: "أما إنّ ذا القرنين قد خير السحابين، فاختار الذلول، وذخر لصاحبكم الصعب. قال: قلت:

---

(١) ميزان الحكمة ج١ / ١٨٧

(٢) شرح احقاق الحق ج٢٩ / ٤٥٩

وما الصعب؟ قال: ما كان فيه رعد وصاعقة أو برق فصاحبكم يركبه. أما إنّه سيركب السحاب، ويرقى الأسباب، أسباب السماوات السبع والأرضين السبع، خمس عوامر واثنتان خراب"[(١)].

ويفهم من ذلك أنّ قوة تلك الوسائل تفوق قوة جاذبية الأرض، بل والكواكب العملاقة ذات الجذب الهائل؛ لأنّ الرحلات ستكون إلى السماوات السبع، ما يدلّ على أنّ السرعات ستفوق أضعاف سرعة الضوء المعروفة، وهو يدلّ على توافر تكنولوجيا جديدة تفوق المعروف الآن، تختزل من زمن الرحلات الجوية وتقلصه إلى أيّام وساعات. وهو أمر مستحيل فعلا، ولم يحدث إلا للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في عروجه إلى السماوات السبع.

ويفهم كذلك أنّ إمكانية النفاذ إلى أعماق الأرض والتنقل بين طبقاتها سيتحقق في عصر الظهور وستشهد البشريَّة أحداثا مذهلة لم تكن معروفة.

وورد كذلك أنّ الإمام المهدي (عليه السلام) سيصل الكوفة بوسيلة جوية غير مألوفة، يقول الإمام الباقر (عليه السلام): "ينزل في سبع قباب من نور، لا يعلم في أيّها هو حين ينزل في ظهر الكوفة فهذا حين ينزل"[(٢)]. ولا نستطيع

(١) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٢١

(٢) تفسير العياشي ج١ / ١٠٣

أنْ نفهم ماذا تعني (قباب من نور) ولكنّ الواضح أنّها وسيلة نقل جوي متطوّرة يدخل (الضوء) عنصرا فيها، وأنّها لا تحتاج إلى مداج للهبوط.

وقد لا يتعقّل بعضهم وجود هذه الأشياء، وبهذه الدرجة من التطور، إلا أنّ الواقع لا يرجح أسلوب الاستبعاد الذوقي الذي لا يستند إلى حقيقة علميَّة؛ لأنّ القرآن الكريم يثبت وقوع ذلك في عصور سبقت عصرنا هذا، ومن جملتها تسخير الريح لسليمان (عليه السلام) وعبارة: (وسخرنا له الريح) قد تعني (علم الطيران)؛ لأنّ الطيران لا يعني غير الافادة من الريح على قاعدة: الفعل ورد الفعل، والقرآن الكريم يذكر نتيجة (تسخير الرياح) وهي: وقوع النقل الجوي، ولم يذكر الوسيلة؛ لأنّ الوسيلة عنصر غير ثابت، والقانون ثابت (وسخرنا له الريح) والتسخير يعني القدرة على التحكم في تكييف طاقة الرياح.

إلّا أنّ اللافت للنظر هو ورود كلمة (نور) وهو عنصر غير معروف إلى يومنا هذا في عالم الطيران، وقد يكون هو العنصر الأهم فيما سيكون من تطور كبير في عصر الظهور لم يسبق له مثيل.

- وفي عالم التواصل والتخاطب نجد ظواهر مهمة تستحق العناية نذكر منها:

ما يخصّ الإمام نفسه ومقامه القيادي الذي يقتضي معرفته واطلاعه على كلّ شيء بشكل مباشر، فقد جاء عن أبي بصير قال: "قال أبو عبد

الله(عليه السلام): إنّه إذا تناهت الأمور إلى صاحب هذا الأمر، رفع الله تبارك وتعالى له كلّ منخفض من الأرض، وخفض له كلّ مرتفع حتى تكون الدُّنيا عنده بمنزلة راحته، فأيّكم لو كانت في راحته شعرة لم يبصرها"(١).

وعن سماعة بن مهران قال: " قال أبو عبد الله (عليه السلام): إنّ الدنيا لتمثل للإمام في مثل فلقة الجوز، فلا يعزب عنه منها شيء، وأنّه ليتناولها من أطرافها كما يتناول أحدكم من فوق مائدته ما يشاء"(٢). ما يدلّ على أنّ له القدرة على التحكم في بعض مقاديرها، إما عن طريقة التواصل بينه وبين ممثليه الذين يبعثهم إلى أقاليم الأرض وحكمها بما أنزل الله فقد جاء عن محمّد بن جعفر عن أبيه (عليه السلام) أنّه قال: "إذا قام القائم بعث في أقاليم الأرض، في كلّ إقليم رجلاً يقول: عهدك في كفّك، فإذا ورد عليك ما لا تفهمه ولا تعرف القضاء فيه، فانظر إلى كفّك واعمل بما فيها"(٣).

وهذا يشير إلى أنّ طريقة التواصل بينه(عليه السلام) وبينهم يشبهها في عصرنا الحالي أجهزة الهاتف المحمول أو الحاسوب الصغير. ولا شك أنّ ما سيكون في أيديهم أهم وأحدث ممّا موجود الآن، إذ قد يكون الكفّ ذاته بعد أجراء تعديلات فيزيائية وكيميائية عليه قادرا على القيام بهذا

---

(١) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٢٨

(٢) الاختصاص / ٢١٧

(٣) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٦٥

الدور؛ لأنّ ذيل الرواية يساعد على ذلك (فانظر إلى كفّك واعمل بما فيها). ومن الجدير بالذكر أنّ دراسات وأبحاث تجري الآن للافادة من الكفّ لهذا الغرض.

أما طريقة التواصل بين الناس فقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: "إنّ المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق"(١).

ويقرّب هذه الظاهرة ما هو موجود من اتصالات الانترنت، إذ تتواصل الناس عن طريق الشبكة العنكبوتية فيرى بعضهم بعضاً. أمّا عن كيفية تواصل المجتمع مع الإمام المهدي (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) فقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: "إنّ قائمنا إذا قام مدّ الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى لا يكون بينهم وبينه بريد، يكلمهم فيسمعونه، وينظرون إليه وهو في مكانه"(٢).

وعلى كلّ حال فإنْ كان الإمام الصادق (عليه السلام) يشير إلى ما وصل إليه العلم الحديث اليوم من تطور كبير فإنّ ذلك يؤكد: أولا: إنّ ما أشار إليه دليل على ارتباط الإمامة بالوحي عن طريق النبوّة، وإنّ الإمام (عليه السلام)

---

(١) بحار الأنوار ج٥٢ / ٣٩١

(٢) بحار الأنوار ج٥٢ / ١٣٦

إنَّما ينطق عن لسان الوحي، وإلّا كيف أمكنه معرفة الوسائل الحديثة في عصرنا الحاضر؟

ثانيا: إنّ بعض بوادر عصر الظهور وأرضيته قد تهيئت بتوافر تلك الوسائل، لأنّ الإمام الصادق (عليه السلام) تحدّث عن فعلية ممارسة الإمام الحجّة(عجل الله تعالى فرجه الشريف) لتلك الوسائل لا بوصفها علامات وإنما بوصفها ظواهر تكون مساوقة للظهور وما يتلوه.

وهذا يفرض علينا أن نتفهم المرحلة الحاضرة من الزمن ونتعامل معها بوعي ينسجم مع عقيدتنا بالإمام، وإنْ كان المقصود أنّ ظواهر استثنائية في عالم التواصل ستتحقق في ظل دولة الإمام (عليه السلام) فإنّ ذلك هو المتوقع لأنّ الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وارث جميع النبوات وعلومها، سواء العلوم الدينيَّة أو الطبيعية، على وفق ما جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) فإنّ كمال العلم وذروته تكون عند الإمام المهدي (عليه السلام)، قال (عليه السلام): "العلم سبع وعشرون حرفًا، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفا فبثّها في الناس، وضمَّ إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفا"[(١)].

(١) بحار الأنوار ج ٥٢ / ٣٣٦

هذا أهمّ ما يمكن أنْ يُقال عن العصر الذي يتناسب مع ظهور الإمام(عليه السلام)، وإنّ ما يشاع بين الناس عن إبطال التقدُّم العلمي والتكنولوجي لا أساس له في القرآن ولا في ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الأدلة

على وجود الإمام المهدي(عليه السلام)

- الدليل القرآني .
- الدليل الروائي .
- الدليل العقلي .

بسبب طبيعة الموضوع، وطول الغيبة وما حفّها من غموض، وأهمها خفاء ولادته عجل الله فرجه، ووجود أعداء أشداء لعقيدة الإمامة أمثال الأمويين والعباسيين وأذنابهم اليوم، شاب موضوع وجود الإمام (عليه السلام)، الكثير من الشكوك والشبهات أدت إلى إنكار الموضوع من الأصل،

وحتى بعض الشيعة وقعوا فيما وقع فيه غيرهم، بل فسّر بعضهم معنى الغيبة بألوان من التخيلات والأوهام ليبتعد عن الانكار الصريح لوجود الإمام (عليه السلام) إلى التلميح أو ما شابه ذلك. ولا نعجب من ذلك فإن من أصعب الابتلاءات هو ابتلاء الاعتقاد بخفاء مولد الإمام (عليه السلام) وغيبته الطويلة المديدة وما إلى ذلك، حيث نجد الكثير من النصوص تحذر من عملية الارتداد، ففي رواية عن الأصبغ بن نباته قال: "أتيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فوجدته متفكراً ينكث في الأرض فقلت: يا أمير المؤمنين ما لي أراك متفكراً تنكث الأرض أرغبت فيها؟

قال: لا والله ما رغبت فيها، ولا في الدنيا يوماً قط ولكن فكرت في مولود يكون من ظهر الحادي عشر من ولدي هو المهدي يملأها عدلا كما ملئت جوراً وظلماً، تكون له حيرة وغيبة، يظل فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون"[١].

(١) كمال الدين / ٢٧٤

وعنه (عليه السلام) أنّه قال أيضا: " أما ليغيبن حتى يقول الجاهل: ما لله من آل محمّد حاجة"(١).

ومن الملاحظ أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته كلّما ذكروا الإمام المهدي(عليه السلام) ذكروا غيبته وخفاء ولادته وأهمية تعقل ذلك والصبر عليه، والاعتقاد به حاله حال الغيبات التي وقعت لإبراهيم وموسى ويوسف (عليهم السلام) وغيرهما من الأنبياء.

إنّ البحث الموضوعي يقتضي إذا قلنا بوجود الإمام المهدي (عليه السلام) كان علينا أنْ نبحث أولاً عن (الإمامة) هل لها جذور قرآنية تثبتها؟، فإذا ثبتت عندها تثبت العقيدة بالإمام، وكلّ التفاصيل التي تتعلّق بها، أما إذا قلنا إنّ (الشورى) هي الأساس، فيجب أنْ نبحث كذلك عن جذورها القرآنية، فإذا ثبتت فلا معنى للإمامة ولا الإمام، وينتفي موضوع الإمام المهدي (عليه السلام) من الأساس، فلا معنى للاستدلال على الإمامة والغيبة وجميع التفاصيل التي تخصّها.

إنّ كلاً من الشورى والإمامة يمثلان صيغة لنظام حُكم، فالشورى تعني انتخاب الأمّة للحاكم أو الخليفة. والإمامة تعني التنصيب الإلهي للحاكم أو الإمام من دون تدخل الناس، فيلزم التمسك بما اختار الله عزّ

(١) كمال الدين / ٢٨٥

وجلّ، الذي لا يختار إلا ما يحقّق للإنسان مصالحه الحقيقة، ولا يمكن الجمع بين الشورى والإمامة بسبب اختلاف الأساس والمنطلق، ونحن نبحث الإمامة من منطلق القرآن فإذا ثبتت بشكل قاطع كفانا ذلك بحث الشورى. فما هي الإمامة أولا؟.

الإمامة في عقيدة الشيعة هي بحسب ما لخصها آية الله الشيخ المظفر في كتابه (عقائد الامامية) بقوله: "نعتقد أن الإمامة اصل من أصول الدين لا يتم الإيمان الا بالاعتقاد بها. ولا يجوز فيها تقليد الأبآء والأهل والمربين مهما عظموا وكبروا، بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوّة.

وعلى الأقلّ أنّ الاعتقاد بفراغ ذمة المُكلف من التكاليف الشرعيَّة المفروضة عليه يتوقّف على الاعتقاد بها إيجابا وسلبا، فإذا لم تكن أصلا من الأصول، فلا يجوز فيها التقليد لكونها أصلا فإنّه يجب الاعتقاد من هذه الجهة، أي من جهة أنّ فراغ ذمّة المكلَّف من التكاليف المفروضة عليه قطعا من الله تعالى واجب عقلا، وليس كلّها معلومة من طريقة عقلية، فلا بدّ من الرجوع فيها إلى من نقطع بفراغ الذمّة باتباعه، إمّا الإمام على طريقة الامامية أو غير، على طريقة غيرهم.

ونعتقد أيضا أنها مثل النبوّة لُطف من الله تعالى، فلا بدّ أنْ يكون في كلّ عصر إمام هادٍ يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر وارشادهم إلى ما فيه الصلاح والسعادة في النشأتين، وله ما للنبيّ من الولاية العامَّة على الناس لتدبير شؤونهم ومصالحهم وإقامة العدل بينهم ورفع الظلم والعدوان من بينهم.

وعلى هذا فالإمامة استمرار للنبوّة، والدليل الذي يُوجب إرسال الرسل وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب أيضا نصب الإمام بعد الرسول؛ لذلك نقول: إنّ الإمامة لا تكون إلا بالنصّ من الله تعالى على لسان النبي، أو لسان الإمام الذي قبله.

وليست هي بالاختيار والانتخاب من الناس، فليس لهم إذا شاءوا أن ينصبوا أحدا نصبوه، واذا شاءوا أن يعيّنوا إماما لهم عيّنوه، ومتى شاءوا أن يتركوا تعيينه تركوه ليصحّ لهم البقاء بلا إمام بل -من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية – على ما ثبت ذلك عن الرسول الأعظم بالحديث المستفيض .

وعليه لا يجوز أنّ يخلو عصر من العصور من إمام مفروض الطاعة منصوب من الله تعالى، سواء أبى البشر أم لم يأبوا، وسواء ناصروه أم لم يناصروه، أطاعوه أم لم يطيعوه، وسواء كان حاضرا أم غائبا عن أعين

الناس، إذ كما يصح أن يغيب النبي كغيبته في الغار والشِّعب صحّ أن يغيب الإمام، ولا فرق في حكم العقل بين طول الغيبة وقصرها"[١].

ويجب أن يكون واضحا أنّ القضايا العقائديَّة يجب أنْ تُناقش على وفق الكتاب والسُّنة بعيدا عن مناهج البحث العلمي الحديثة، وهذا ما تقتضيه الموضوعيَّة، والعكس صحيح.

وقد لا يقنع بعضهم بالدليل الروائي الذي يقطع بأنّ الإمام المهدي(عليه السلام) حقيقة مؤكّدة كحال الإيمان بالجنة والنار والملائكة تعبُّدا بقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[٢]، أو اعتمادا على التواتر الذي يفيد العلم، أو الدليل الاستقرائي الذي يقطع بالنتيجة ويؤكِّدها، فيُطالب بالدليل العلمي المادي بحجّة أنّ عصرنا هو عصر العلم والبحث العلمي المُستند إلى التجربة أو الدليل الرياضي أو الفيزيائي وما شابه ذلك، وعندهم أنّ كلّ شيء لا يخضع لذلك لا قيمة له.

هذا المنطق ليس منطقيًّا في الحُكم على كلّ شيء، وإنما ينطبق على الماديات بحدود معينة، وفي النهاية تضطر التجربة الماديَّة إلى الاعتراف

---

(١) عقائد الامامية للمظفر ٦٦- ٦٧

(٢) البقرة/ ٢-٣

بما وراء المادة (العقل) لإعمام نتائج التجربة في المجالات التطبيقيَّة، مثلا إذا اردنا أنْ نثبت أنّ الحديد يتمدّد بالحرارة ويتقلص بالبرودة، فسوف نطبّق ذلك على عدة نماذج – وليس كلّ الحديد – ثمّ نضع قانونا يقول: (كلّ الحديد يتمدد بالحرارة ويتقلص بالبرودة)، فعلى الرغم من أنّ التجربة ماديَّة إلا أنّ تعميمها يكون عقليًّا وليس ماديًّا[١].

وكذلك القول بالنسبة إلى إثبات أحداث التاريخ والوقائع المختلفة نحو إثبات الأنساب من ناحية الآباء والاجداد وأمثال ذلك فإنّ إثبات ذلك مختبريا دونه خرط القتاد؛ لأنّ المنطق الذي يفترض أنّ الدليل العلمي هو الوحيد القادر على إثبات الحقائق أو نفيها ولا يعترف بالعقل والوجدان عليه أنْ يثبت نفسه أولا، وإن حاول ذلك سينتهي إلى الاعتراف بالعقل والوجدان بوصفهما أساسا يسبق الدليل العلمي.

وفي اطار ما نحن فيه من إثبات وجود الإمام المهدي وأنّه حيّ يُرزق سننهج المسلك الديني المدعوم بالعقل والمنطق والوجدان، سواء كان الدليل قرآنيا أم روائيا، والمهم هو الوصول إلى صحة النتيجة التي انتهينا إليها.

---

(١) راجع كتاب (فلسفتنا) للشهيد السعيد السيد محمّد باقر الصدر (رضي الله عنه) في بحث (الله أو المادة) لمزيد من الاطلاع

وسنثبت – خلافا لما يُدّعى – من أنّ (عقيدة الإمامة) لا عمق لها، ولا جذور ثابتة في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) وأنّ الرسول الأعظم لم ينصَّ على تولّي علي وأولاده وذريته الإمامة، أو أنّ الإمامة فكرة فلسفية ابتدعها بعض علماء الشيعة طمعا في الخُمس والزعامات الدينيَّة، ادعاءات باطلة.

ونحن في هذا البحث سنقدِّم عدّة أدلّة تثبت أنّ الإمامة والإمام خطّ ربّاني وقرآني يواصل خطّ النبوّة ويكملها إلى قيام يوم الدين، وأنّه أصل من أصول الدين، ونثبت أنّ الإمام (عليه السلام) موجود بحسب الضرورة القرآنية الدينيَّة والعقلية. وبحسب الأدلة الروائيَّة والتواتر، والدليل الاستقرائي الذي نهجة الإمام الشهيد السيد محمّد باقر الصدر رضوان الله عليه.

الأدلَّة على الإمامة والإمام:

الدليل الأول: الدليل القرآني:

الدليل القرآني المتمثّل بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[١].

(١) البقرة/ ١٢٤

هـذه الآيـة المباركـة تؤكّـد أنّ (الإمامـة) خـطّ ثابـت وأسـاس في ديـن إبراهيم وذرّيته من الأنبياء ومنهم محمّد (صلى الله عليه وآله) وآلـه الطـاهرون، والآيـة في الوقت نفسه تدلّ عـلى إمامـة الـذوات الطـاهرة لأئمـة أهـل البيـت (عليهم السلام) وإنْ لم تُذكر أسماؤهم، وسيتبيّن ذلك من ضَم آية الإمامة إلى آية المباهلة.

إنَّ من الشبهات السائدة القول: إنَّ الله تعالى لم يذكر الإمامـة والأئمـة في كتابه المجيد، وعليه فلا معنى للقول بإمامة المهدي (عليه السلام) وغيبته.

وبالطبع فإنّنا نتعامل بحُسن الظنّ مع كلّ من يحمـل أفكـارا سـلبيَّة، أو عنده شكوك وشبهات عن الإمامة أو الإمام، ونحاول أنْ نقدِّم لـه مـا نرجـو أنْ يغيّر وجهة نظره أو يصحّح له اعتقاده.

ولو تمعنا في كتب الرواية والحديث والتـاريخ نجـد أنّ أسـماء الأئمـة قـد ذُكـرت في كتـب الفـريقين، وأنّ خـاتمهم هـو الإمـام الثـاني عشر الـذي سيملأ الأرض قسطـًا وعدلاً. ولكنهّم يقولون إنّـه سيولد، وهـذا القـول لا يدعمه دليل قرآني ولا روائي، بل هي مجرد أقوال لعلماء من هنا وهنـاك لا يعتدُّ بها.

أما أصل الاعتقاد بالإمام المهدي (عليه السلام) فهو ثابت تقريبا بـين جميـع المسلمين مع بعض التفاوت في درجة الاعتقاد بـه. أمّـا عـدم ذكـر الأسـماء فإنّ أسماءهم ذُكرت في كتب الحديث الشيعيَّة، إلا أنَّ الخصم يرد بأنّهـا في

كتبكم لا في كتبنا، وأنّ كتبكم لا أصلَ لها، فهي موضوعة وفيها كثير من الشكّ والريب.

وهذا القول مجرد ادعاء لا دليل عليه، ومع ذلك فعلى مستوى الجدل والنقاش نعطيهم العذر؛ لسبب بسيط وهو أنّهم لو اعترفوا بالأئمة ابتداءً من الإمام علي (عليه السلام) وإلى الإمام المهدي (عليه السلام) فمعنى ذلك الاعتراف بنظام الإمامة، وهذا ما لا يمكن القبول به قطعا لتباني الأجيال السُّنية ونشأتهم على مفهوم البيعة.

وهنا قضية مهمة تجدر الإشارة إليها وهي أنّ منهج القرآن عدم ذكر الأسماء في الأعمّ الأغلب، فمثلا لم يذكر من هم الأسباط واكتفى بذكر عددهم، بقوله تعالى: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ**﴾(١)، وهم أبناء بنات الأنبياء وليسوا من عامَّة الناس.

ويذكر المفسرون أنّ الحواريين كانوا اثني عشر من بني إسرائيل، والعدد يتوافق مع الإنجيل الحالي، وحتى الآيات التي نزلت بحقّ أهل

(١) الأعراف/ ١٦٠

البيت (عليهم السلام) نحو قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[(١)] التي نزلت بحقّ علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لم يذكر أسماءهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[(٢)]، التي نزلت بشأن عائشة وحفصة، فإنّ القرآن لم يذكر اسميهما. وموارد كثيرة مشابهة.

أما بالنسبة إلى ذكر أسماء الأئمة بالذات فإنّ العقلية القبلية في مجتمع المدينة تأبى هذا الطرح، ونرى افرازاتها إلى اليوم وموقفهم من سبب نزول آية الولاية، على الرغم من أنّ الآية نزلت في حادثة معروفة تختص بأمير المؤمنين علي (عليه السلام) وتقرن ولايته بولاية الله ورسوله، إلّا أنَّ معظم المفسرين شرّق وغرّب لصرفها عنه، فكيف لو نزل الذكر الحكيم بأسماء الائمة قبل ولادتهم وتحقق وجودهم فإنّ الموقف سيكون (أنّ الرجل ليهجر)، وقد قالوها في شأن كهذا الشأن، وسيسفّهون القرآن كلّه.

---

(١) الإنسان/ ٨-٩.

(٢) التحريم/ ٤

وبعضهم يشكل فيقول: كيف يصحّ أنْ اعتقد بشخص لم أره، ولا أعلم أين هو، وكيف وأين يعيش، فهل يصح هذا قرآنياً؟، بل ما فائدة إمام غائب لا وقع ولا بصمة له في حياتنا، ولا دليل تأريخي يثبت وجوده؟

والجواب البسيط من القرآن، نقول: نعم يجب أنْ نؤمن إيمانا خالصاً به، قال عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾[(١)]. وقال: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾[(٢)]، فهل آمنَّا بالملائكة والكتب والرسل بعد أنْ رأيناهم أم آمنّا بهم تعبُّدا؟

ثمّ يقول عزّ وجلّ: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[(٣)].

فهؤلاء رسل أرسلهم الله عزّ وجلّ إلى أُمم غابرة لا نعرف أسماءهم ولا تأريخهم، ومع ذلك أمرنا الله عزّ وجلّ بوجوب الإيمان بهم. فإذا كان

---

(١) النساء/ ١٣٦

(٢) البقرة/ ٢٨٥

(٣) غافر/ ٧٨

الإيمان بإنسان قد مات، ويكون عدم الإيمان به على حدّ الكفر بنصّ القرآن، فَلِمَ يُستصعب الإيمان بولي منصوص عليه من ذرية رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأنّه حيّ غائب لأمد معيّن، وسيظهره الله تعالى حينما تتحقّق بعض الشروط الموضوعيَّة؟

إنّ للغيبة أهدافًا وآثارا من جملتها ما يأتي:

(التمحيص)، و(الابتلاء)، و(الصبر)، و(الأمل) ليعرف كلّ إنسان حقيقة إيمانه واستسلامه لربِّه، حاله حال الحج فإنّك تقوم بأعمال لا تعرف معناها، ولكن تعرف مغزاها، وهي الاستسلام والعبودية المطلقة، وهي درجة عالية من السمو والارتقاء إلى الله عزّ وجلّ.

فغيبة الإمام (عليه السلام) الطويلة من أعظم نِعَمِ الله على المؤمنين العارفين، إذ من منطلق إيماننا بالإمام والاعتقاد بغيبته تتكشف لنا درجات تصديقنا ويقيننا بالغيب. فبعد إيماننا بالقرآن بأنَّه معجزة الله عزّ وجلّ وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يجب أنْ نؤمن بـ (الغيب)؛ لأنّه الأساس الذي تستند إليه العقيدة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والجنة والنار وغير ذلك من الأمور العقائديَّة؛ لذلك نجد القرآن يؤكّد أهمية الإيمان بالغيب القائم على الدليل القطعي، كذلك الإيمان بالإمام المهدي (عليه السلام) يدخل في نطاق الإيمان بالغيب، بل هو

التصديق والتطبيق العلمي والسلوكي في الإيمان بالغيب، والتصديق برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وعلى كلّ حال نحاول أنْ نقف عند آية الإمامة وآية المباهلة نستنطقهما عن مختلف القضايا، ومنهما نثبت عقيدة الإمامة والنصّ على الأئمة ودور الإمام وما يتعلق بذلك.

الوعد الحق:

كبداية للبحث في آية (الإمامة) يجب أنْ نشير إلى حقيقة قرآنية تتعلّق بوعد الله تعالى بإصلاح الأرض، وهي تشير ضمنا إلى الإمام المهدي المنتظر (عليه السلام) ذلك أنّ القرآن يؤكّد على أنّها وعد ربّاني لازم التحقق، قال عزّ وجلّ: ﴿**وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ "[١]، وقوله: ﴿**أَلا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾[٢].

من آيات تحقق الوعد بإصلاح الأرض:

القسم الأول:

قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ**

(١) الروم/ ٦

(٢) يونس/ ٥٥

نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[٢]. نلحظ أنّ الآيات تتحدَّث عن وعد عام، وحتمية اكيدة التحقق في أنْ يتمَّ الله نوره، وتكون كلمة الله هي العليا: ﴿**كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٣].

وكلمة الله هي الإسلام، وسيأتي اليوم الذي تعتنق فيه الإنسانيَّة الإسلام المحمدي الأصيل وتنتهي بذلك العناوين الدينيَّة الأخرى كاليهودية والمسيحية والأديان الوضعية، أو أنّها ستتوافق مع تعاليم الإسلام وعقائده، بعد أن تنفض عن نفسها كلّ ألوان الزيف والتحريف، على وفق ما تشير إلى ذلك بعض الروايات، وسوف تنهار كلّ النظم الوضعية التي حكمت الأرض، بعد أن ذاقت البشريَّة منها المصائب والويلات، واستعمرتها وسلبت كرامتها وحريتها.

القسم الثاني:

الآيات التي تتحدّث عن وراثة الأرض لثلة الصالحين والمُستضعفين الذين وعدهم الله بالتمكين والتأييد، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ**

(١) التوبة/ ٢٨

(٢) الفتح/ ٢٨

(٣) التوبة/ ٤٠

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾[١]. وقوله تعالى: **﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ﴾**[٢].

نلاحظ أنّ الآيات الكريمة تؤكد حتمية تحقق وعد الله تعالى في مرحلة متأخرة من عمر البشريَّة. ولم يبين القرآن الكريم من هؤلاء الذين ستتحقق إرادة الله على أيديهم بالاسم، وإنّما ذكرهم بالمواصفات نحو الصالحين والمستضعفين وامثال ذلك. كذلك لم يبيّن القرآن كيف ستتمّ عملية التغيير، ولكنّ المؤكد أنّ العملية ستكون برعاية الله وتأييده للثلة الصالحة التي ستبذل كلّ ما بوسعها من جهد وجهاد لتستحق النصر المؤزر، وتبني دولة الإسلام.

وبقليل من التمعُّن في شأن عمليات التغيير الكبرى، نجد أنّها لا تتحقق إلا بقيادة اشخاص ترعاهم الإرادة الربّانيَّة مباشرة، وهم الأنبياء أو اوصيائهم الذين لهم سمات وخصائص إعجازيَّة تثبت صلتهم بالله عز وجل: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾**[٣]. وبما

(١) الأنبياء/ ١٠٥

(٢) القصص/ ٥

(٣) القصص/ ٦٨

أنّ عصر النبوات قد خُتم بنبينا محمّد (صلى الله عليه وآله) فلم يبقَ من خيار إلّا الأئمة، ولم يبقَ من الائمة الّا الإمام المنتظر (عليه السلام) فهو الموعود بالتمكين في الأرض.

وعلى صعيد الواقع ونحن نعيش بعد ختم النبوّة بأكثر من ألف واربعمائة عام لم نرَ تحقق الوعد الرباني، بل نرى العكس من حيث انتشار الظلم والفساد، وانتهاك حرمات القرآن، وسلب كرامة الإنسان وحرياته وحقوقه الماديَّة والمعنويَّة.

وعلى وفق هذا الضوء هل يمكن أنْ نقول إنّ طول المدّة يُوحي بعدم تحقق ذلك الوعد، وأنّ الله عز وجل اخلف وعده؟، وأنّ عدم تحقق الوعد، بسبب طول المدة يستلزم تسفيه الوعد الرباني، والشكّ فيه، ومن ثمّ نفيه واستبعاده؟

منطق الإيمان بالله وكتبه ورسله يقتضي الإذعان والتصديق بما وعد الله عز وجل به، بغضّ النظر عن الزمان والمكان؛ لأنّ ذلك هو الإيمان الحقيقي. والكلام نفسه يجري بالنسبة إلى غيبة الإمام المهدي(عليه السلام) فإنّ الأمر منوط بالله الحكيم الذي هو وحده يقدِّر المصلحة في وقت تحقيق الوعد اليوم أو غدا، حاله حال الآيات الوعدية التي تقدّم ذكرها.

آية الإمامة: إمامة أهل البيت (عليهم السلام):

خلاصة الدليل القرآني

١- **إن الله عز وجل منح الإمامة لإبراهيم (عليه السلام) بقوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾** بعد نجاحه في جميع الابتلاءات التي امتحن بها، فكانت الإمامة الجزاء الذي استحقه واختص به.

٢- ثم إن إبراهيم طلبها لذريته فقال **(ومن ذريتي)** فاستجاب الله له بنفيها عن الظالمين منهم، وتحققها في بعض الصالحين، ومنهم رسولنا الكريم محمداً (صلى الله عليه وآله) **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾**[1].

والاطلاق في قوله **(ومن ذريتي)** يقتضي استمرار الإمامة في ذرية إبراهيم (عليه السلام) إلى قيام يوم الدين، وضرورة بقاء استمرار ذريته كذلك.

ولو فرضنا غير هذا فيجب أن نقول: ان الله تعالى لم يحقق لإبراهيم دعوته، بل أخلف وعده.

وهذا لا يقول به إلا من لا يؤمن بالله ورسوله.

٣- إن الإمامة لا تتحقق إلا بتنصيب من الله تعالى. وبما أن

(١) البقرة / ١٢٩

النبي (ﷺ) جمع الله له النبوة والإمامة، فكان يجب عليه أن يجعل إماماً من بعده لضرورة الاطلاق في قوله تعالى (**ومن ذريتي**)، فإن لم يفعل يكون قد خالف مضامين آية الإمامة، وهذا مستحيل لأنه يتنافى مع العصمة أولاً، وسيقطع الإمامة عن ذرية إبراهيم (عليه السلام) التي جعلها الله فيهم ثانياً.

٤- إن الامام أو الخليفة يجب أن يكون معصوماً ظاهراً وباطناً لقوله تعالى ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾. ولا يمكن أن نعرف ذلك إلا من خلال رسول الله (ﷺ) أو من ينص عليه من بعده. وهذا يقتضي أن يكون لكل معصوم صلة مباشرة بالغيب يستمد منها الاحكام والمعارف، ومعرفةالإمام التالي.

٥- إن إبراهيم كان نبياً رسولاً حين منحه الله الإمامة، بمعنى أن الإمامة عنوان مستقل غير النبوة يناسب أن يكون جزاءً، فإن افترض الخصم أن الإمامة هي النبوة يكون منحها له من باب تحصيل الحاصل، وهو باطل.

٦- الآية المباركة – بمنطوقها ومضمونها – تبطل كل إمامة أو خلافة تفتقد إلى (الجعل الرباني) و(العصمة) ظاهراً وباطناً، والانتساب إلى غير ذرية إبراهيم عليه السلام.

٧- ان النظام السياسي في الإسلام يرتكز على شخص الامام (عليه السلام) وهو الذي يضع له كافة التفاصيل بما يحقق العدالة السياسية والاجتماعية ويحقق الاستقرار الكامل للمجتمع.

وبما أن الإمامة عزلت بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) فلم تباشر دورها، غابت تفاصيله بسبب ذلك، ولم يبق الا نظام الرجوع إلى الفقهاء (رواة حديثنا) لإدارة شؤون الأمة في مختلف المجالات، وسيأتي بيان بعض ذلك في هذا الكتاب.

قال عز وجل: ﴿**وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[(١)].

هذه الآية دليلنا على أنّ الإمامة أصل من أصول الدين، وضرورة وجود الإمام في كلّ زمان إلى قيام الساعة على وفق ما جاءت به الرواية (إنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله)، وأنّ الإمام لا يكون إماما إلا بجعل وتعيين من قبل الله تعالى، وأنّه بالضرورة حي يُرزق، بعد أن حصرت الآية الإمامة بذرية إبراهيم (عليه السلام).

إنّ محور البحث لإثبات ذلك أو نفيه هو إثبات أنّ كلمة (إماما) لا يُقصد بها (نبيًا)، وإنّما الإمامة هي المكملة لدور النبوّة بعد رحيل النبي،

---

(١) البقرة / ١٢٤

وكذلك أنّ إبراهيم (عليه السلام) كان نبياً رسولاً حين منحه الله تعالى مقام الإمامة فلا حاجة إلى تكرار النبوّة فيه.

إنّ حجّة الجهة المنكرة للإمامة تعتمد على (إثبات!) أنّ الإمامة هي النبوّة ولا يقصد بها إلا هذا المعنى. ومن المعلوم أنّ مدرسة الخلفاء تتبنى هذا التفسير، وكان أبرزهم هو الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير، الذي يمثل أشدّ المعارضين والمنكرين لخطّ الإمامة. وعليه سيكون نقاشنا لما أورده واحتج به؛ لأنّه يمثل مدرسة الخلفاء بل يزيد عليهم، ويكفينا عن غيرهم.

هذه الآية المباركة تشكل المفصل الكبير الذي يُحدد شكل وهوية نظام الحكم الإسلامي، هل هو (الشورى) بالمعنى الذي وقع بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أم هو (نظام الإمامة) الذي لم يرَ النور ولو لحظة واحدة؟، فإذا ثبت أنّ الآية تدلّ على (نظام الشورى) فلابدّ أن نلتزم به نصاً ومضموناً، ونصحح خلافة جميع الخلفاء، وإذا ثبت أنّ (الإمامة) هي محور نظام الحكم والتشريع، وجب أن نُبطل الشورى بكلِّ أبعادها وتطبيقاتها، ونلتزم بنظام الإمامة بالفهم الإمامي.

وهذه النتيجة خطيرة ومفصلية على وفق ما ترى. فهل تدلّ الآية المباركة على ذلك؟. إنّ محور البحث في الآية الكريمة يرتكز على الأمور الآتية:

أولا: إنّ الله عز وجل ابتلى إبراهيم عليه السلام بأنواع من الابتلاءات فنجح فيهنّ، فما هي دلالات الابتلاءات، وماذا كان جزاؤه عليه السلام ؟

ثانيا: إنّ الآية صريحة في أن الجزاء كان هو (مقام الإمامة) الذي اختص الله به إبراهيم وذريته، فهل الإمامة هي النبوّة، أم أنّ الإمامة مقام آخر غير النبوّة؟

ثالثا: إنّ الآية تؤكد أنّ إبراهيم (عليه السلام) طلبها لذريته وأنّ الله استجاب له، بنفيها عن الظالمين منهم ليثبتها للصالحين من ذريته، فهل الأمر كذلك؟

رابعا: هل الإمامة محصورة بذرية إبراهيم (عليه السلام) فقط أم يمكن أن تشمل غيرهم من غير ذريته؟

خامسًا: هل أنّ (الجعل الربّاني) هو الطريق الوحيد لإثبات إمامة (الإمام) من ذرية إبراهيم ومحمد عليهما السلام أم لا؟

سادسًا: هل تشترط الآية عصمة الإمام ظاهراً وباطناً أم لا؟

هذه أهم المحاور التي يجب أن تُبحث، وستشكل الدليل القرآني لإثبات الإمامة.

الابتلاءات الإبراهيمية:

المحور الأول: ما هي أهداف ومعاني وجزاء الابتلاءات التي امتحن الله بها إبراهيم (عليه السلام)؟، والإجابة على هذا السؤال يفرض أن نعرف: هل كان إبراهيم (عليه السلام) حينها نبيا رسولا أم لا؟ لنعرف هل أن الجزاء كان لمنحه النبوة أو الإمامة.

إنّ طبيعة الابتلاءات تفرض نتيجة واحدة فقط، وهي الإيجاب؛ لأنّ التمعُّن في الآيات ونوع الابتلاءات تقتضي القول بأنّ إبراهيم (عليه السلام) كان نبيـاً رسولاً؛ لأنّ بعضها جلي أنّه كان بأمر الله تعالى نحو ذبح إسماعيل (عليه السلام): ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾[1]، فكيف يمكن أن يُكلَّف (عليه السلام) بهذا الابتلاء ولم يكن نبيـاً رسولاً؟

ثمّ إنّ جواب إسماعيل يؤكّد ذلك؛ لأنّه فهم من أبيه أنّه أمر إلهي: (**قال يا أبتي افعل ما تؤمر**) فلمّا كاد الأمر أن يُنفَّذ جاء النداء من ربّ العزة: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي**

(١) الصافات / ١٠٢

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، وكلمة (وناديناه) تقطع الطريق على كلّ من يدَّعي أنّ إبراهيم (عليه السلام) لم يكن نبياً قبل آية الإمامة، ونضيف إلى ذلك قوله تعالى: **﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾**[٢] ما يدلّ على ارتباط إبراهيم (عليه السلام) العميق بالله تعالى ورعاية المولى له، إذ رأى الآية الكبيرة أمامه حيث وجد الكبش مكان ابنه فداءً عنه.

فهل يبقى شك في نبوّة إبراهيم (عليه السلام) في ذلك الوقت؟ وهل يعقل أن يكون جزاءه تكرار اختياره للنبوّة مرة ثانية؟ فما فائدة ذلك وما أثره، وهل هو إلا تحصيل حاصل؟. إنّ المنطقي أن تكون الإمامة هي الجزاء لا تكرار النبوّة.

أما دعوى أن إبراهيم (عليه السلام) طلب النبوّة لذريته أمر لا يمكن أن يصدر منه؛ لأنّه (عليه السلام) يعلم أنّها متحققة في ذريته قبل قضية آية الإمامة، قال عز وجل: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾**[٣].

---

(١) الصافات/ ١٠٣-١٠٥

(٢) الصافات/ ١٠٧

(٣) العنكبوت/ ٢٧

وهنا نقطة مهمة يجب أن نؤكّدها وهي أنّ هذه الآية تكاد تكون مختصة ببيان أهمّ خصائص إسماعيل عليه السلام، وهي الاستسلام المُطلق والسريع لأمر الله عز وجل، بلا تردد أو تأمل لأصعب تكليف هو الموت ذبحاً وهو في عمر الصبا، وهذا يؤهّله للإمامة بعد أبيه ويكون هو الوارث منطقيا ومنه تمتد الإمامة إلى محمّد (صلى الله عليه وآله) وذريته؛ لأنه مثّل أسمى أشكال الاستسلام لأمر الله عز وجل.

وقد بيّن القرآن خصائص إسماعيل (عليه السلام) السامية في أكثر من مورد، وجاء ذكره في أكثر من أحد عشر مورداً في القرآن. وحاول اليهود وتبعهم بعض علماء المسلمين إلى اعتبار إسحاق (عليه السلام) هو الابن الأكبر لإبراهيم (عليه السلام)، والهدف من ذلك حجب إسماعيل وذريته عن النبوّة والإمامة وحصرها في ذرية إسحاق، إلا أنّ القرآن الكريم أثبت أنّ الذبيح إنّما هو إسماعيل في سورة الصافات الآية (١٠٧) والأخرى في سورة هود الآية (٧١).

وعلى كلّ حال فإنّ واقع الحال أنّ أنبياء بني إسرائيل تناسلوا من إسحاق (عليه السلام)، ونبينا محمداً (صلى الله عليه وآله) وذريته تناسلوا من إسماعيل(عليه السلام). وقد أشاد القرآن بموقف إسماعيل (عليه السلام) في قضية الذبح والتضحية بلا تردد، والاستعداد المُطلق لأمر الله.

وإذا كان قبول إبراهيم (عليه السلام) ذبح ابنه عجيبا فإنّ استجابة إسماعيل (عليه السلام) للأمر أعجب؛ لأنّ التطوع للموت استجابة لأمر الله تعالى يدلّ على عمق الإيمان الذي من الصعب أن يرقى إليه أحد. وبدأ ذكر إسماعيل والإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(١). وكان هذا من أعظم الابتلاءات التي تعرضا لها ونجحا فيها بحسب ما هو معلوم. أما الأدلة التي تثبت أن إبراهيم (عليه السلام) كان نبياً رسولاً قبل جعله اماماً فهي:

وذُكر إسماعيل (عليه السلام) في قصة بناء البيت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢).

(١) إبراهيم / ٣٧

(٢) البقرة / ١٢٧ - ١٢٩

نلاحظ في هذه الآيات وغيرها تركيزاً على إسماعيل (عليه السلام)؛ لأنّ امتداد مقام النبوّة بدأ منه إلى نبينا الأكرم محمداً (صلى الله عليه وآله) وبطبيعة الحال امتداد الإمامة كذلك لأنّ آية (قال ومن ذريتي) لابدّ أن تمتد إلى ذرية محمّد (صلى الله عليه وآله)، ولأنّ عدم امتدادها يعني نقضاً لدعوة إبراهيم (عليه السلام) وأبطالها، فلا تعدّ استجابة كاملة، ولهذا أراد الله تعالى أنْ يثبت للأمة ويؤكّد على أمرين الأول: أنّ عترته وأهل بيته همُ علي وفاطمة والحسن والحسين(عليهم السلام). والثاني: أنّ الحسن والحسين ولدا رسول الله (صلى الله عليه وآله) لصلبه، وهم جميعا ذرية إبراهيم (عليه السلام). إما أنّهم العترة وأنّهم أهل بيته فيُستدل له بما سيأتي في بحث إثبات إبراهيم كان رسولاً نبياً قبل إكرامه وجعله وذريته أئمة.

أولا: أبراهيم وآية الرشد، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾[1]، وذُكر إبراهيم (عليه السلام) في القرآن في (٦٩) موضعًا، والمعروف أنّه (عليه السلام) وُلد في العراق في أرض بابل في منطقة اسمها (كَوْثي)، وهذه الرواية أقرب إلى الصحة بدليل أنّ أوّل صراع أو مواجهة وقعت فيها كانت بينه وبين النمرود الذي كان ملك بابل آنذاك.

(١) الأنبياء/ ٥١

ويذكر القرآن مقاطعًا من حياة إبراهيم (عليه السلام) وكيف كان يتأمّل في الكون، ويبحث عن الخالق ووحدانيته، ويرى أنّ هذه التماثيل التي تُعبد من دون الله تعالى، والكواكب التي اتخذوها آلهة لا تستحق العبادة؛ لأنّها تتسم بالأفول والتغيّر: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾[2].

واستمر إبراهيم (عليه السلام) يُقيِّم الآلهة التي تُعبد من دون الله فوجدها لا تستحق شيئا؛ لأنّ الفقر والاحتياج والتغيّر من طبيعتها فلا ينبغي أن تُعبد من دون الله، فهي مخلوقة لخالق، هو المُستحق للعبادة وحده لا شريك له. فخرج إلى محاججة قومه في عبادة الاصنام التي لا تعقل ولا تضرّ ولا تنفع فقال الله عنه: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ* إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ* قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ* قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ* قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ* الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ***

---

(١) الانعام / ٧٦

(٢) الانعام / ٧٨

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمّ يُحْيِينِ* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[١].

قال المفسّرون إنّ ما فعله إبراهيم (عليه السلام) كان بسبب الفطرة السليمة التي لا تشوبها شائبة الوثنية، والعقل الكامل القادر على معرفة الحقائق، وتقييم الواقع ومعرفة الصواب من الخطأ إلّا أنّ القرآن يقول: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾[٢]، وكان وقتها فتى.

وعدّ المفسّرون كلمة (رشده) دليلا على نبوّته. قال الفخر الرازي: "اعلم أنّ قوله تعالى (ولقد اتينا إبراهيم رشده) فيه مسائل، المسألة الأولى: في رشد قولان، الأول: أنّه النبوّة، واحتجوا عليه بقوله (وكنا به عالمين) قالوا: لأنّه تعالى إنّما يخص بالنبوّة من يعلم من حاله أنّه في المستقبل يقوم بحقّها ويجتنب ما لا يليق بها ويحترز عمّا ينفر قومه من القبول. والثاني: أنّه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا.

قال تعالى: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾[٣]، وفيه قول ثالث: وهو أن تدخل النبوّة والاهتداء تحت الرّشد، إذ لا يجوز أن

(١) الشعراء/ ٦٩-٨٢

(٢)الأنبياء/ ٥١

(٣) النساء/ ٦

يُبعث نبي إلّا وقد دلّه الله تعالى على ذاته وصفاته، ودلّه أيضا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكلّ ذلك من الرشد"(١).

وبناء عليه فإنّ إبراهيم (عليه السلام) كان في تلك المرحلة رسولا نبيّا، فكيف يبعثه نبيا مرّة ثانية في قوله تعالى: **﴿قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾** وهي متحققة فيه، اليس هذا تحصيل حاصل؟

ثانيا: إبراهيم وآية ربّي أرني:

وهذه آية تثبت نبوّته قبل آية الإمامة وهي قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إليك ثمّ اجْعَلْ عَلَى كلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثمّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**(٢).

نلاحظ أنّ إبراهيم (عليه السلام) كان نبيا رسولا، وإلّا كيف جرى هذا الحوار بينه وبين ربّ العالمين وبشكل مباشر من دون واسطة. وهنا يجب أن نؤكّد مطلبا مهمًّا، وهو أنّنا بتتبع حياة إبراهيم ونبوّته في القرآن نجد أنّ أسلوب الوحي كان - غالباً - مباشرا بينه وبين الله من دون توسّط المَلك ما يدلّ على عظيم منزلته ومكانته عند الله عز وجل، إذ أنّ الوحي المُباشر اسمى أنواع الوحي، وأعظم صور التكليف بالنبوّة.

---

(١) تفسير الرازي ج٢٢/ ١٧٩

(٢) البقرة/ ٢٦٠

وبحسب القرآن الكريم لم يرَ إبراهيم الملائكة قبل ذلك، وهم رسول الله إلى رسله إلّا في قصة البشارة بإسحق ويعقوب (عليه السلام) فانكرهم وأوجس منهم خيفة قال عز وجل تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ* فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ* وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ* قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ* فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ* إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[(١)]. أليست هذه الأحداث تدلّ على نبوّته وأنّه رسول الله (عليه السلام) قبل قضية جعل الإمامة، وهو في آخر أيام حياته المباركة.

وممّا تقدّم نخلص إلى أنّ كلّ هذه الأحداث وقعت في بدء نبوة إبراهيم(عليه السلام) أو في أثناء مسيرة نبوّته وكانت تدلّ بشكل قاطع على أنّه كان نبيًّا رسولا. وهذا لا ينسجم مع القول بأنّ الجزاء كان النبوّة بعد نجاحه في اجتياز الاختبارات الصعبة التي ابتلي بها بحسب قول الرازي.

---

(١) هود/ ٦٩-٧٥

فكان من اللازم أنْ نقول إنّ جعل الإمامة في ذرية إبراهيم، واستجابة المولى تعالى له في بعضهم، كان هو الجزاء الحقيقي لنجاحه فيما أُبتلي به، وإنّ الإمامة عنوان مستقل عن النبوّة حُصرت بذريته إلى أنْ وصلت إلى نبينا محمّد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) ومنه إلى سيد الأوصياء علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وذريته؛ لأنّهم لسان الصدق في دعوة إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وأنّهم بقية ذرية إبراهيم الصلبية، وبهذا نعلم أنّ لا فرض آخر ولا مدلول غير ما ذكرناه من ثبوت نبوته قبل قصة الابتلاء.

ثالثا: آية الابتلاء:

من الآيات الدالة على نبوته قبل تنصيبه إماما اية الابتلاء ذاتها: ﴿**وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1]، ولو فرضنا أنّ من ادّعى أنّ كلمة (الإمامة) تعني (النبوّة) فإنّ الآية دالة بوضوح على أنّ إبراهيم كان نبيًّا حين بشَّره الله تعالى بـ (الإمامة)؛ لأنّ هذه البشارة جاءت بعد أن نجح في جميع الابتلاءات التي أُبتلي بها، وقد عرفنا أنّ معظمها كان بوحي مباشر منه تعالى.

---

(١) البقرة/ ١٢٤

وفي هذه الآية الكريمة جاءت كلمة (قال) التي تعني أنّه أصبح نبيًّا فعلا، فما معنى أنْ يُكرر تنصيبه نبيًّا مرّة أخرى بقوله: (إنّي جاعلك للناس إماما) هل بعثه على الشريعة الأولى نفسها أم بشريعة ثانية؟ فإنْ كان المقصود شريعة ثانية فأما أن تكون متفقة مع الأولى أو مختلفة، فإنْ كانت متَّفقة معها فما معنى تكرارها، وإنْ كانت مختلفة، فإنّ القرآن أمرنا باتباع شريعة إبراهيم الواحدة بقوله: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[1] فأثبت له شريعة واحدة.

الرازي وآية الإمامة:

واجهت الإمامة أواخر حياة النبي (ﷺ) وإلى يومنا هذا مستويات مُتباينة من العداء أو المواجهة أو الرفض المطلق لها. وهؤلاء الذين وقفوا هذا الموقف كانت دوافعهم قبلية في بادئ الأمر، وعقائديَّة تارة أخرى، على أساس أنّ الإمامة تحصر السُّلطة بشخص، ولا يُتاح لبعض الناس أن يشتركوا بالحكم، وأخرى مصلحية ماديَّة طمعا بالمال والثروة والمناصب، وبعضهم بدافع العداء الاعمى للإسلام.

(١) الحج/ ٧٨

ولعلّ أخطر اتجاه تصدّى للإمامة كان عن طريق التفسير والتأويل والاجتهاد القائم على الرأي وتعدد المذاهب التي خلقت اتجاهات فكرية وعقائديَّة خطيرة ذات دهاء بالغ. ونجد ذلك واضحا في موقفهم من آية (يا أيها الرسول بلّغ...) ومن (اليوم أكملتُ لكم دينكم...) ومن (إنَّما وليكم الله ورسوله...) حيث فتحوا لنفوسهم كلّ أبواب التحريف والتأويل والتلاعب لتفريغ تلك النصوص من محتواها العميق، وحاولوا أنْ لا تسلم آية الإمامة من ذلك فتصدّى عَلَمٌ من علماء التفسير وهو الفخر الرازي لتحريفها عن مقاصدها ومعانيها، فشرّق وغرّب ليُفرغ كلمة (إماما) من الوضع الإلهي الطبيعي لها فذهب في كلّ اتجاه ليعتبر أنّ المُراد بها النبوّة، وليس المعنى الذي تذهب إليه الشيعة، وتجاهل حتى الوضع اللغوي لهذه الكلمة.

وكلّنا نعلم منهج هؤلاء المفسرين في تشتيت الآية، ولاسيما إذا كانت تحمل من المعاني ما يدعم مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، فيضع عدّة اقوال لمجموعة من المفسرين الذين لا يُعرف هل هم من أهل الاختصاص أم لا، وما هي مصادرهم ومداركهم وإنّما هكذا تبانت الأجيال على الأخذ بقولهم والاعتماد عليهم تعبّدا بلا تحقيق. ولم تسلم آية الإمامة من ذلك فحاولوا صرفها عن غايتها.

ولأجل الإحاطة بالموضوع من كلّ جوانبه سوف نسير تمشيا مع تفسير الرازي للآية المباركة لنتأكد بشكل قاطع أنّ الآية المباركة لا تدلّ إلّا على إمامة أهل البيت (عليهم السلام)، وأنّ الإمام المهدي (عليه السلام) حي يُرزق يواصل خطّ الإمامة الابراهيمية المحمدية وسيصلح الله به الأرض ويتمّ به نوره، وذلك بحسب الضرورة القرآنية القطعية التي تقتضي ايفاء الله بوعده.

ونقسم هذا البحث إلى فقرات ليسهل على القارئ فهمها واستيعابها.

المقطع الأول: قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾، خاض المفسرون كعادتهم في معنى الابتلاء، فذهبوا مذاهب شتى، فمنهم من علّل الابتلاء بأنّ الله عز وجل أراد معرفة مدى استحقاق إبراهيم (عليه السلام) للإمامة، فأثبت (الابتلاء) استحقاقه لها، ومنهم من قال بأنّ الله تعالى يعلم السَّر واخفى وما كان ويكون، ولكنّه أراد أن يُبيّن للناس خصائص إبراهيم، ودرجات إيمانه واستحقاقه وذريته للإمامة.

وتجد بين هذا وذاك كثيرًا من اقوال المفسرين المتفاوتة في قوتها أو ضعفها. وهي بطبيعة الحال لا تهمّنا؛ لأنّنا نبحث عن محصل الابتلاء لا الابتلاء ذاته.

المقطع الثاني: قوله تعالى: **﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾**. هنا تتضارب الاقوال وتتناقض عند المفسرين ولا يهمّني من المفسرين إلّا الفخر الرازي الذي حاول بكلّ وسيلة أنْ يُعتم على الإمامة بوصفها مفهوما عقائديًّا يشكل أساسًا من اهمّ أسس العقيدة الإسلاميَّة، ويتوقّف عليه مستقبل الإسلام السياسي.

وهو في الوقت نفسه يعود إلى موضوع الإمامة، ولاسيما في القضاء وإمامة الجماعة وامثال ذلك ليعترف أنّ الإمامة واقع في حياة المسلمين ولكن على وفق رؤيته لا رؤية القرآن التي تشترط العصمة الظاهرية والباطنية، ويتنازل عن كلمة (الإمامة) التي حصرها بمفهوم (النبوّة)، ليطبّقها على أصناف كثيرة من الناس.

يقول الرازي في تفسيره للآية المباركة: "المسألة الأولى: قال أهل التحقيق:[1] المُراد من الإمام ها هنا النبيّ ويدلّ عليه وجوه، أحدها: أنّ قوله "للناس اماما" يدلّ على أنّه إمامٌ لكلّ الناس، والذي يكون كذلك

(١) لم يبن لنا الرازي منهم (أهل التحقيق) هل هم انبياء أو أئمة ينطقون عن الله عز وجل حتى يجوز أن نأخذ بقولهم، أم هم مجموعة من المفسرين للقرآن فيكون حالهم حال جميع من يفسر القرآن بحسب فهمه واستظهاره، فلا يكون حجّة. وعليه أن يثبت حجيتهم بدليل قرآني قاطع إنْ أراد أن يحتج بأقوالهم.

لابدّ وأن يكون رسولا من عند الله مستقلا بالشرع؛ لأنّه لو كان تبعا لرسول آخر لكان مأموما لذلك الرسول لا إماما له فحينئذ يبطل العموم"[١].

هذه النقطة مفصلية في إثبات أنّ (الإمامة) قد تكون لرسول من الرسل، أو تأتي منفردة لشخص من (ذرية) إبراهيم (عليه السلام) تتوافر فيه شروط الإمامة، وأعني (الجعل الرباني) و(العصمة) في الظاهر والباطن، وأن يكون من ذرية إبراهيم ونسله وممّن لم يظلم حصرا.

وقد أثبتنا بالدليل القاطع أنّ إبراهيم (عليه السلام) كان قبل منحه الإمامة نبيًّا رسولاً فبطلت حجّة الرازي، لأنّه يمثل خطًّا يتبنّى الخلافة لا بالجعل القرآني ووجوب العصمة ظاهراً وباطنـًا بل يكتفي بحسن الظاهر وعدم اعتقاد العصمة باطنا؛ لأنّه لو أخذ بظاهر الآية المباركة فسوف يقع في مأزق في مسألة مشروعية الخلفاء، فاضطر إلى القول: بترك الأخذ بالباطن والاكتفاء بالظاهر فقط على وفق ما سيأتي:

لقد حاول الرازي جاهداً أن يثبت أنّ الإمامة هي النبوّة قطعًا، فاستدل على ذلك بأمر لا علاقة له بما يدعيه، فطرح موضوع أنّ الذي يكون إمامـًا

---

(١) الرازي ج٤/ ٤٣

للناس لابدّ أن يكون رسولاً من عند الله تعالى. وهذه هي المغالطة الكبيرة التي أراد إيقاع الناس فيها، وتغافل عن أنّ الإمامة (جعل) من الله تعالى، وأنّ النبوّة اصطفاء منه تعالى: ﴿**اللهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾(١).

فإنْ فرضنا أنّ الإمامة طولية وليست في عرض النبوّة فأين الإشكال؟، وإنْ فرضناها في عرض النبوّة، وكانت هذه العرضية بأمر الله تعالى، ففي هذا الفرض يتكفّل المولى عز وجل بتعيين التابع من المتبوع، وليس لأحد في ذلك الحقّ أن يفرض رأيا أو يقترح حلاً. وقد وقع مثل ذلك في نبوّة موسى وهارون عليهما السلام، فكانت الحالة متسقة والاعمال منسجمة، ولم يقع ما يخشاه الرازي، والكلام نفسه في اقتران نبوّة يعقوب ويوسف. على أنّ قول الإمامية قاطبة إنّ الإمامة مَرتبة تأتي بعد النبوّة لا في عرضها.

ثمّ إنّ إبراهيم (عليه السلام) لم يطلب الإمامة لنفسه، بل منحها الله تعالى له مباشرة، ثمّ هو (عليه السلام) طلبها لذريته (قال ومن ذريتي) وهذا يعني الترتبية، أي لا إمامة فعلية مع النبوّة، فيكون النبي هو صاحب الشريعة وهو المتبوع، إما الإمام من غير الأنبياء فهو يعمل طبق تكاليف الإمامة

---

(١) الحج / ٧٥

ومواصلة أهداف النبوّة بعد وفاة النبي. فأين الإشكال في ذلك؟

"وثانيها: أنّ اللفظ يدلّ على أنّه إمام في كلّ شيء، والذي يكون كذلك لابدّ أنْ يكون نبياً، لكنّ الرازي كرس مفهوم (الإمام) على أنّه يعني النبوّة لا غير، ويعتبر أنّ النبوّة والإمامة كلمتان مترادفتان في المعنى والتكليف.

ومن حيث المبدأ فإن النبوة والإمامة جُمعت في إبراهيم (عليه السلام) ولكن ما هو الدليل القرآني أو اللغوي الذي يثبت أنّ كلمة (إمام) تعني النبوّة في كلّ مورد ترد فيه؟ إنّه مجرد افتراض لا يقوم على دليل، ثمّ قال: "وثالثها: أنّ الأنبياء عليهم السلام أئمة من حيث يجب على الخلق اتباعهم قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾(الأنبياء ٧٣)[١]. ولكنه لم يثبت بالدليل أن الأئمة في الآية هم الأنبياء، والاطلاق في كلمة (أئمة) يقتضي الجزم بأن المقصود بهم الأئمة من ذرية إبراهيم (ع) سواءً كانوا أنبياء أو أئمة فإنه تجب طاعتهم والاقتداء بهم. وكما تجب طاعة كل نبي كذلك تجب طاعة كل إمام مجعول بإذن الله تعالى بل عنوان النبوّة وحده ملاكاً تامّا لاتباعهم، من دون الحاجة إلى عنوان الإمامة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ**

---

(١) الرازي ج٤/ ٤٣

رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[(١)].

إنَّما الكلام في كلمة (إنّي جاعلك للناس إماما) بعد ثبوت أنّ الإمامة غير النبوّة، وأنّها تأتي في مرتبة بعد النبوّة، وأنّ إبراهيم طلبها لذريته، سواء الأنبياء منهم وغير الأنبياء (قال ومن ذريتي). أمّا الأنبياء فلا يحتاج إثباته إلى دليل، أمّا غيرهم فدليله ما في الآية من استثناء (قال لا ينال عهد الظالمين)، فلو أنّ الله تعالى يجتبي مُطلق من هو من ذرية إبراهيم لما قيّد الطلب بشيء، ولم يحصره بمن لم يظلم مُطلقا.

وعليه لابدّ أنْ يكون المشمول بـ (الجعل) هم الذرية التي ذكرهم الله تعالى بقوله: **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحـًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[(٢)]، وبقوله: **ثمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾**[(٣)]، وهم الذين اجتباهم لـ(الإمامة) بـ (الجعل) في آية الإمامة، وإلّا فإنّ الصالحين الابرار من ذرية إبراهيم يفوق الحصر ولم تشملهم الإمامة، ومنهم عبد الله والد نبينا الاكرم واجداده هاشم وعبد مناف وغيرهم.

ثمّ ذهب الرازي بعد كثير من اللف والدوران إلى ما كان يبغيه فطرح

---

(١) النساء/ ٦٤

(٢) آل عمران/ ٣٣

(٣) فاطر/ ٣٢

مفهوم أنّ: (الخلفاء أيضا أئمة؛ لأنّهم رتبوا في المحل) فتجب طاعتهم، واعطاهم مكانة المشرع لأحكام الله تعالى، ولم يشترط فيهم النبوّة!.

ولم يذكر الرازي دليله على صحة قوله : (لانّهم رتبوا في المحلّ) أهو نصّ قرآني أم روائي، ام هو تشريع منه؟، وقال في الوجه الثالث: "والخلفاء أيضا أئمة؛ لأنّهم رتبوا في المحلّ الذي يجب على الناس اتباعهم وقبول قولهم واحكامهم، والقضاة والفقهاء أيضا أئمة لهذا المعنى. والذي يصلّي بالناس يُسمّى أيضا؛ لأنّ من دخل في صلاته لزم الإئتمام به، قال عليه الصلاة والسلام: (إنَّما جُعل الإمام اماما ليؤتمَّ به، فإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا، ولا تختلفوا على امامكم)، فثبت بهذا أنّ اسم الإمام لمن استحق الاقتداء به في الدين"[(١)].

وتبع الرازي في ذلك معظم المفسرين من أهل السنة سواء منهم الاقدمين أو المحدثين، وعلّة ذلك واضحة وهي تصحيح خلافة الخلفاء بعد النبي (ﷺ)، وإيجاد مسوّغ شرعي لتوليهم وحكمهم على الرغم من منافاة ذلك لجميع فقرات الآية المباركة.

ونوضح ذلك فيما يأتي:

(١) الرازي ج٤/ ٤٣

أولا: إنّ الإمامة أو النبوّة (جعل) من الله تعالى وتنزيل الخلفاء منزلة الأنبياء أو الائمة يتنافى مع القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون**﴾(١)، فالاختيار له وحده سبحانه.

يقول الفخر الرازي: "والخلفاء أئمة؛ لأنّهم رتبوا في المحلّ الذي يجب على الناس اتباعهم وقبول قولهم واحكامهم"، في حين قال قبل ذلك بأنّ: (الإمام اسم من يؤتمّ به كالإزار لما يُؤتزر به، أي يأتمون بك في دينك)، والخليفة الذي يُنتخب من الناس أو يفرض نفسه بالقهر والغلبة، لا يؤتم به في الدين؛ لأنّه ليس صاحب شريعة، وإنّما يُطبّق الاحكام الشرعيَّة الموجودة فعلا على أحسن تقدير، ولا يحقّ له التشريع أو التغيير، ولا يصح الائتمام به؛ لأنّه غير معصوم وهذا ما تقتضيه الآية المباركة.

وثانيا: أنّ الإمامة (جعل من الله) فكيف يمكن أن نتحقق أن الخليفة مجعول من الله تعالى وأنّه (معصوم)؟. والجواب: الطريق الوحيد هو الوحي، أو الرسول الذي يُوحى له. وهذا لا ينطبق على الخلفاء الثلاثة،

---

(١) القصص/ ٨٦

ولا خلفاء بني امية أو بني العباس وغيرهم. لأنه لا نص عليهم لا من الكتاب ولا من السنة.

فالقول (بالتنزيل) تشريع منه وممّن يُسمِّيهم بـ(أهل التحقيق)، وهذا كلّه افتراء على الله عز وجل ورسوله، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ**﴾(١).

وهكذا ننتهي إلى نتيجة يثبتها القرآن الكريم بكلّ وضوح، وهي أنّ إبراهيم كان نبيًّا مُرسلا قبل طلبه الإمامة لذريته، وإنّ (الإمامة) منزلة مستقلّة، قد تتحقق مع منزلة (النبوّة) في شخص، وقد تكون مجعولة في شخص ليس نبيًّا من ذرية إبراهيم عليه السلام، ممّن تنطبق عليه شروط آية الإمامة.

وفي نهاية المطاف نقول إنّ مفهوم (إماما) لا ينطبق إلّا على ذرية إبراهيم (عليه السلام)، أمّا في حياة إبراهيم (عليه السلام) فمعلوم من هم، وأمّا بعد ذلك فهي محصورة بمحمّد وذريته عليه وعليهم صلاته وسلامه.

المقطع الثالث من الآية: قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾: بشّر الله تعالى إبراهيم (عليه السلام) بالإمامة بعد نجاحه وصبره بما امتحنه الله تعالى من

(١) النحل/ ١٠٥

ابتلاءات صعبة، فقال: (إنّي جاعلك للناس اماما). ففي الكافي عن الصادق(عليه السلام) قال: "إنّ الله عز وجل اتخذ إبراهيم عبدًا قبل أن يتخذه نبيًّا، وإنّ الله اتخذه رسولا قبل يتخذه خليلا، وإنّ الله اتخذه خليلا قبل أن يتخذه اماما، قال (عليه السلام) فمن عِظمِها في عين إبراهيم قال: ومن ذريتي قال: لا ينال عهدي الظالمين قال: لا يكون السفيه إمامَ التقي"[(١)].

لم ينل إبراهيم (عليه السلام) هذه المقامات السامية الا بإخلاصه وتفانيه وتضحيته في سبيل التوحيد الخالص ودعوة الناس إلى العبودية المُطلقة لله عز وجل. ولا شكّ أنّه أراد لذريته أن يكون لهم أجر وثواب هداية الناس، ويكون هو (عليه السلام) شريكهم في كلّ ذلك إلى يوم الدين، وليس كما يقول معظم المفسرين أنّه أراد أن يبقى ذكره خالدا بثناء الناس عليه ومدحهم له. إنّ الذي خلّد إبراهيم هو مواقفه في الدفاع عن التوحيد، وصبره على تنفيذ التكاليف الشرعيَّة الصعبة فيما أُبتلي به، وهي التي أشاد بها القرآن، فبقي ذكره خالدا بخلود القرآن. ولم يكن إبراهيم قد فعل ذلك ليكون ذكره على الالسن؛ لأنّ ذلك لا يُناسب النبوّة، وهو اجلّ من أن يقصد ذلك.

(١) الكافي ج١/ ١٧٥

ولم يكن إبراهيم (عليه السلام) يطمع أن تكون ذريته هي الذرية المختارة المتعالية على الناس بالتباهي بالآباء والأجداد لأجل مكاسب دنيوية، ماديَّة أو معنويَّة، كيف ذلك والخَيرة لله تعالى وحده، فهو الذي اختارهم لسابق علمه، قال عز وجل: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ**﴾(١)، فمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام بزغ نور أنبياء بني إسرائيل إلى عيسى (عليه السلام) الذي بشّر برسول الله محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو من ذرية إسماعيل (عليه السلام). فكم وهب الله إبراهيم (عليه السلام) من أجر وثواب بواسطة هذه الذرية التي جاهدت من أجل التوحيد وهداية الناس إلى ربهم، فكان هو وذريته شجرة التوحيد الباسقة.

إنّ اختصاص هذه الذرية المُباركة بالنبوّة والإمامة يكشف عن علم الله السابق بهم في استعدادهم لتحمُّل كلّ الصعاب والتضحيات في سبيل أداء الرسالة، ويكفينا ما ذكره القرآن عنهم من تحمّل عظيم، وصبر لا تُطيقه الجبال في سبيل تحقيق تلك الأهداف.

وإذا قلنا إنّ النبوات تسلسلت من ذرية إبراهيم (عليه السلام) فإنّها انتهت بالقطع واليقين إلى المصطفى محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو آخر الأنبياء وخاتمهم

(١) العنكبوت / ٢٧

قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾(١).

لقد ختمت النبوّات برسول الله محمّد(صلى الله عليه وآله) فهل ختمت ذرية إبراهيم بموته؟ وهل ختمت الإمامة بفقده؟ لا شكّ أنّ الإجابة بـ(نعم) تتعارض مع القرآن بل مع آياته المُحكمة؛ لأنّ إبراهيم طلب الإمامة لذريته، ولم يحدّدها بزمان، وأنّ الله عز وجل وعد بذلك، ولم يستثنِ منهم إلا من ظلم نفسه فقال تعالى: ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) من ذريته، وذرية رسول الله منهم، وعلي (عليه السلام) من ذرية إبراهيم وذريته منهم، فإنِ ادّعى أحد أنّ ذرية رسول الله (صلى الله عليه وآله) مستثناة فعليه أن يدعم قوله بدليل قرآني يثبت ذلك، بل نجد في القرآن ما يدعم شمول الإمام علي (عليه السلام) بشكل قاطع مع ولديه الحسن والحسين بالإمامة بما يأتي:

١- قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثمّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾(٢)، قال الفخر الرازي في تفسير الآية وسبب نزولها: "المسألة الثالثة: ورُوى أنّه عليه السلام لمّا أورد الدلائل على

(١) الأحزاب/ ٤٠

(٢) آل عمران/ ٦١

نصارى نجران، ثمّ أنّهم أصرّوا على جهلهم، فقال عليه السلام: إنّ الله أمرني إنْ لم تقبلوا الحجّة أن أباهلكم. فقالوا: يا أبا القاسم، بل نرجع فننظر في أمرنا ثمّ نأتيك، فلمّا رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنّ محمداً نبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالكلام الحقّ في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبيًّا قطّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لكان الاستئصال فإنْ أبيتم إلّا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج وعليه مرط من شعر أسود، وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي رضي الله عنه خلفها، وهو يقول إذا دعوتُ فأمنوا.

فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى: إنّي أرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. ثمّ قالوا: يا أبا القاسم رأينا أنْ لا نباهلك وأن نقرّك على دينك. فقال صلوات الله عليه: فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين. فأبوا، فقال: فإنّي أناجزكم القتال، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أنْ لا تغزونا ولا تردّنا عن ديننا على أن نؤدّي إليك كلّ عام ألفي حلة ألفاً في صفَر، وألفاً

في رجب، وثلاثين درعـًا عادية من حديد. فصالحهم على ذلك.

وقال: والذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تـدلّى على أهـل نجـران، ولـو لاعنوا لمُسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي نـاراً، ولاستأصـل الله نجران وأهله، حتّى الطير على رؤوس الجبال، ولمّا حال الحـول على النصارى كلّهم حتى يهلكوا.

ورُوي أنّـه عليه السلام لمّـا خـرج في المـرط الأسـود، فجـاء الحسـن رضي الله عنه فأدخله، ثمّ جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله، ثمّ جاءت فاطمة ثـمّ علـيّ رضي الله عنهما، ثمّ قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب: ٣٣). واعلـم أنّ هـذا الروايـة كـالمُتفق على صـحتها بين أهل التفسير والحديث"[١]، وهذا يعني أنّ الآيـة لا تخـصّ نسـاء النبـي في آية التطهير باعتراف الرازي وإنما تخص العترة الطاهرة.

٢- إنّ الحسن والحسين (عليهما السلام) ابنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لصلبه، استدل على ذلـك في تفسيره بقولـه تعـالى (ومـن ذريتـه داود وسـليمان...)، قـال الرازي: "المسألة الخامسة: الآية تدلّ على أنّ الحسن والحسين مـن ذريـة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأنّ الله تعالى جعل عيسى مـن ذريـة إبراهيم مع أنّـه لا ينتسب إلى إبراهيم إلا بالأمّ، فكذلك الحسـن والحسـين مـن ذريـة رسـول

(١) تفسير الرازي ج٨ / ٨٥

الله، وإنْ انتسبا إلى رسول الله بالأمّ وجب كونهما من ذريته، ويُقال إنّ أبا جعفر الباقر استدلّ بهذه الآية عند الحجّاج بن يوسف"[١].

ويجب أن نعرف سرّ التأكيد على شخص علي وفاطمة والحسن والحسين في آية المباهلة هل هو لأجل تعريفهم للناس لمجرد التعريف على أنّهم عترته وأهل بيته، أو أنّ الحسن والحسين ولداه ليس إلا؟.

ومن أهمّ غايات آية المباهلة التأكيد على أنّ ذرية إبراهيم (عليه السلام): (قال ومن ذريتي) همُ محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم صلوات الله وسلامه، وأنّهم ورثة الإمامة الإبراهيمية، ولا تصحّ الإمامة إلا لهم. ووقع شبيه هذا الاستدلال بين يحيى بن يعمر رحمه الله والحجاج بن يوسف الثقفي.

من الجدير بالذكر أنّ صراعاً عميقاً وقع بين العباسيين وأهل البيت(عليهم السلام) في موضوع وراثة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتركّز الصراع على محور واحد يتمثل بمن له الحقّ في الإمامة والخلافة، هل هو العباس بن عبد المطلب أم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم سلام الله.

وقد سعى العباسيون بعد زوال الحُكم الأموي إلى إثبات أنّهم أحقّ الناس بوراثة الرسول استناداً إلى أنّ العباس بن عبد المطلب عمّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وحاولوا عن طريق القصاصين والرواة المنحرفين تأكيد

(١) تفسير الرازي ج٣ / ٦٦

هـذا المعنـى، إلا أنّ أهـل البيـت (عليهم السلام) تصـدّوا لإثبـات أنّ الخلافـة لا يمكـن أن تكـون إلا لهـم؛ لأنّهـم العـترة التـي نـصّ الله عليهـا في آيـة: (فمَن حاجّكَ فيه من بعد...). وأثبتوا أنّ العباس محجوب عن الإرث بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا**﴾[1]، فالعباس محجوب عن وراثة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأثبتوا أنّ الحسن والحسين من ذرية وصلب النبي بنصّ القرآن فضلاً عن السُّنة.

ولعلّ أوضح محاججة وقعت لإثبات ذلك ما جرى بين الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وهارون العباسي، وهي محاججة طويلة نقتطف منها: "ثمّ قال لي: جوزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم إلى رسول الله ويقولوا لكم: يا بني رسول الله وأنتم بنو علي، وإنّما يُنسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنّما هي وعاء، والنبيّ جدّكم من قبل أمكم؟، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أنّ النبيّ نشر فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه؟، قال: سبحان الله ولِمَ لا أُجيبه، بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك. فقلتُ له: لكنّه لا يخطب إليّ ولا أزوجه. فقال: ولمَ؟، فقلتُ: لأنّه ولدني ولم يلدك. فقال: أحسنت يا موسى.

(١) الانفال / ٧٢

ثمّ قال: كيف قلتم: إنّا ذرية النبيّ والنبيّ لم يعقب، وإنّما العقب للذكر لا الأنثى، وأنتم ولد الابنة ولا يكون ولدها عقبا له؟ - إلى أن قال: فقلت: تأذن في الجواب؟، قال: هات، فقلتُ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾[1] ثم قال ﴿**وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ..**﴾، مَن أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟، قال: هات، قلتُ: قول الله عز وجل: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾، ولم يدَّع أحد أنّه أدخله صلى الله عليه وآله تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين. وأبناؤنا الحسن والحسين، ونسائنا فاطمة، وأنفسنا علي بن أبي طالب. على أنّ العلماء قد أجمعوا على أنّ جبرئيل قال يوم أُحد: يا محمّد إنّ هذه لهي المواساة من علي، قال: لأنّه منّي وأنا منه، فقال: وأنا منكما يا رسول الله، ثمّ قال: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي، فكان كما مَدح الله عز وجل به خليله عليه السلام إذ يقول تعالى: ﴿**قَالُوا**

---

(١) الأنعام/ ٨٤

سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[١]، إنّا نفخر بقول جبرائيل (إنّه مّنا)"[٢].

وهكذا ننتهي إلى نتائج في غاية الأهمية:

أولاً: إنّ آية المباهلة حصرت ذرية إبراهيم ومحمد عليهما وآلهما السلام بعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم، وهمُ المعنيون بالإمامة الإبراهيمية.

ثانياً: الآية نفت الإمامة عن كلّ من يُنسب إلى إبراهيم (عليه السلام) من غير ذرية محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) نحو العباس عمّ النبيّ وذريته وأولاده، فلا تحقّ لهم الإمامة إلى قيام يوم الدين، فضلاً عن غيرهم من غير ذرية إبراهيم(عليه السلام).

ثالثاً: الآية المباركة تحصر الإمامة فيمن اختاره الله تعالى بكلمة (الجعل) من ذرية إبراهيم (عليه السلام)، وليس في كلّ صالح منهم وتقي فضلاً عمّن استثنتهم الآية: (لا ينال عهدي الظالمين)، ولا يُعرف ذلك إلا بنصّ من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل إنّ هذا الأمر يحتم وجود معصوم على مدى

(١) الأنبياء/ ٦٠

(٢) عيوان أخبار الرضا ج٢ / ٧٩

الزمن لنعرف منه (الجعل الرباني) وإلا فلا يكون للآية الإمامة اعتبار.

يقول الرازي عمّا شرّف الله به إبراهيم: "جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله ومن ذريته، وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة"(١). ومن الثابت أنّ النبوات الإبراهيمية انتهت بنبينا الأكرم محمّد(ﷺ)، وعليه لا يمكن أن تستمر هذه الكرامة إلا بالإمامة الإبراهيمية، ببقية الله الأعظم (عليه السلام) حيث لا فرض آخر.

المقطع الثالث: قوله تعالى: ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾. هذا المقطع يدلّ على وجوب عصمة من يُقتدى به في قوله وفعله وتقريره سواء كان رسولا أو إماما، وهذا هو اعتقاد مدرسة أهل البيت، وقد يتفق معهم بعض المفسرين من أهل السُّنة فيما يخصّ النبي(ﷺ) فقط، فضلاً عن قول الشيعة بضرورة العصمة فإنّ بعض المفسرين من أهل السُّنة يقولون ذلك نظريا في الإمام الذي يُقتدى به، الا أنّهم يكتفون بالعصمة الظاهرية فقط!

قال الرازي في تفسيره للآية: "المسألة الرابعة: قوله: (إني جاعلك للناس اماما) يدلّ على أنّه عليه السلام كان معصوما عن جميع الذنوب؛ لأنّ

---

(١) الرازي ج ١٣ / ٦٣

الإمام هو الذي يؤتم ويُقتدى به. فلو صدرت المعصية منه لوجب علينا الاقتداء به في ذلك، فليزم أن يجب علينا فعل المعصية، وذلك محال؛ لأنّ كونه معصية عبارة عن كونه ممنوعا من فعله، وكونه واجبا عبارة عن كونه ممنوعا من تركه والجميع محال"(١).

وقال في موضع آخر: "ووجه الاستدلال بها من وجهين، الأول: ما بيّنا أنّ قوله: (لا ينال عهدي الظالمين) جواب لقوله: (ومن ذريتي؟)، وقوله (ومن ذريتي) طلب للإمامة التي ذكرها الله تعالى فوجب أن يكون المُراد بهذا العهد هو الإمامة؛ ليكون الجواب مطابقا للسؤال، فتصير الآية كونه تعالى: لا ينال الإمامة الظالمون، وكل عاص فإنّه ظالم لنفسه، فكانت الآية دالة على ما قلناه.

فإنْ قيل: ظاهر الآية يقتضي انتفاء كونهم ظالمين ظاهرا وباطنا، ولا يصحّ ذلك في الائمة والقضاة، قلنا: أمّا الشيعة فيستدلون بهذه الآية على صحّة قولهم في وجوب العصمة ظاهرا وباطنا. وأمّا نحن فنقول مقتضى الآية ذلك، الا أنّا تركنا اعتبار الباطن فتبقى العدالة الظاهرة معتبرة"(٢).

---

(١) الرازي ج٤/ ٤٤

(٢) الرازي ح٤/ ٤٦

نرى في هذه النصوص التهافت الكبير فيما ذهب إليه الرازي، فقد عدّ في بادئ الأمر أنّ (الإمامة) هي (النبوّة) وحسم الأمر بشكل قاطع، ثمّ عدّ العصمة ظاهرا وباطنا لازمة لكلّ إمام؛ لأنه المُقتدى في كلّ شيء، الا أنّه بعد ذلك عاد ليركز على الإمامة بوصفها واقعا في حياة المسلمين نحو الخلفاء والقضاة وائمة الجُمعة والجماعة وامثال ذلك، فهل تشترط فيهم العدالة الظاهرية والباطنية، فافترض ومن دون دليل سقوط العدالة الباطنية والاكتفاء بالعدالة الظاهرية. كلّ ذلك من اجل انتزاع الإمامة من أهل البيت (عليهم السلام) وعدم حصرها بهم، ولتصحيح خلافة الخلفاء الثلاثة ومن تلاهم من الأمويين والعباسيين. وهكذا قام بتفريغ الآية من محتواها ومقاصدها. علما أنّ آية الإمامة لا تتحدَّث عن النبوّة اطلاقا، وإنّما عن الإمامة التي من اهمّ شروطها العصمة الظاهرية والباطنية.

والقول بأنّ إبراهيم أراد بقوله: (ومن ذريتي) أن يعرف هل سيكون في ذريته أنبياء، قول لا يستقيم؛ لأن الله تعالى أخبره بأنّ ذلك كائن بقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً**﴾[1]، وقوله: **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ**

---

(١) مريم/ ٤٩-٥٠

وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا...﴾[(١)].

ونرى بحسب سياقات القرآن فيما يتعلّق بإبراهيم (عليه السلام) أنّه لأوّل مرّة عرف أنّ هناك مقام اسمه (الإمامة) ولم تكن الإمامة قبل ذلك معروفة في مسيرة الأنبياء، فرغب أن تكون في ذريته ولكن بالشروط التي تضمنتها الآية المباركة وهي:

أولا: أن يكون الإمام مجعولا بالجعل الربّاني. وهذا الشرط يُبطل نظام البيعة، وما يُسمّى بيعة أهل الحلّ والعقد، والتنصيب من قبل الخليفة الذي قبله، وكلّ الفروض المشابهة.

ثانيا: أن يكون من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ إبراهيم (عليه السلام) طلبها لذريته، وقد استجاب الله تعالى له. فكلّ من يدّعي الإمامة من غير ذريته تكون امامته باطلة ولم يكن الخلفاء من ذرية إبراهيم (عليه السلام) بل من عامة العرب.

ثالثا: أن لا يكون من الظالمين ظاهرا وباطنا.

والنتيجة أنّ كلّ من ارتكب ولو بعض هذه المعاصي يدخل في قوله تعالى: **﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**، فلا يصلح للإمامة والخلافة؛ لأنّ السفيه لا يكون أماما للتقي بإجماع المسلمين، ولأنّ الإمام إذا كان ممّن

---

(١) العنكبوت/ ٢٧

يرتكب المعاصي فكيف يصحّ الاقتداء به؟؛ لذلك اضطر الرازي إلى القول بأنّنا تركنا الباطن واكتفينا بالظاهر. كلّ ذلك بسبب الضغط المذهبي الذي جرّه إلى عناد الحقّ وتحريف معاني الكتاب.

علي وأولاده ورثة الإمامة:

ومن كلّ ما تقدم نصل إلى نتيجة في غاية الأهمية وهي:

١- إنّ الإمامة خطّ ثابت في إبراهيم وذريته، ومنهم الخاتم المصطفى محمّد (صلى الله عليه وآله)، والإمام علي والحسن والحسين حيث لا مصداق غيرهم ينطبق عليه.

٢- إنّ ذرية محمّد (صلى الله عليه وآله) هما الحسن والحسين عليهما السلام حصرا.

٣- إنّ عليًّا (عليه السلام) هو نفس النبي (صلى الله عليه وآله) بنصّ آية المباهلة: ﴿**فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ...**﴾، إذ لا يصحّ أن يدعو الإنسان نفسه، بل لابدّ من المُغايرة، إلا أنّ الله عز وجل عبّر عنه بـ (أنفسنا) ولم يكن أحد غيره في ساعة المباهلة مع النصارى. وليس الغرض الرئيس التكريم، وإنْ كانت الآية تدلّ عليه بأوضح الدلالات، وإنّما المقصود هو تقرير حقيقة دينيَّة تثبت أنّ عليًّا (عليه السلام) هو نفس النبي، بمعنى أنّ جميع خصائص رسول الله (صلى الله عليه وآله) مُجتمعة فيه

باستثناء النبوّة، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): "أنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيَ بعدي"(١).

٤- إنّ عليًّا (عليه السلام) من ذرية إبراهيم ينتسب إليه من الأب والأم، وهذا الأمر من خصائصه (عليه السلام) ومما لا يحتاج إلى دليل.

من هنا يمكن أن نُجيب من يسأل: هل أنّ الله عز وجل ذكر في كتابه (عليًا وفاطمة والحسن والحسين) نقول: نعم ذكر الذوات الطاهرة بنحو القضية (الخارجية)، بحيث يكون المصداق حاضر مجسد لا يقبل الشكّ أو الترديد فحينما يقول المولى تعالى: (أنفسنا) = الإمام علي (عليه السلام) لا غير، (وأبناءنا) = الحسن والحسين (عليهما السلام)، (ونساءنا) = فاطمة، إذ لا يمكن الانطباق إلا عليهم صلوات الله وسلامه عليهم. ومن لا يرى هذا فعليه أن يثبت بالدليل القطعي من همُ المقصودون في الآية الشريفة.

ثمّ في الآية دلالة أخرى في غاية الأهمية، وهي أفضلية الإمام علي(عليه السلام) على جميع الصحابة؛ لأنّ الله عز وجل عدّ عليًّا نفس النبي، فلو فرضنا أنّ النبي توفي ولم يوصِ لعلي من بعده فإن منطقي العقل والدين يقتضي تنصيب من هو (نفس النبي) مكانه؛ لأنّ كلّ مواصفات

(١) البخاري ج٥ / ١٢٩. دار الفكر

الاقتداء متوافرة فيه ولا تتوافر في غيره من الصحابة وأهمها العصمة؛ لأنّ الله قرن الإمام بالنبي، وذلك يثبت له الأهلية للخلافة.

ولو تمعنّا في آية (الإمامة) لوجدنا (عليًّا) فيها؛ لأنّ إبراهيم طلب الإمامة لذريته من غير تسميتهم، ومن غير تحديدهم بزمان أو مكان، وإنّما وضع شروطا يُعرفون بها وهي:

أ- أن يكون من ذرية إبراهيم الصلبيين.

ب- أن يكون منصوباً بالجعل الرباني.

ج- أن لا يكون من الظالمين.

ولو بحثنا وفتشنا جميع الصحابة لا نجد غير سيد المتقين علي (عليه السلام) تجتمع فيه هذه الشروط، فهو ممّن لم يُشرك بالله طرفة عين، ولم يسجد لصنم؛ لذلك كلما ذكره أهل السُّنة قالوا عنه: (كرم الله وجهه). والقرآن يؤكد أنّ أعظم الظلم الشرك بالله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ**

(١) لقمان/ ١٣

الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(١).

فكلّ من أشرك بالله، أو عبد صنما، ينطبق عليه عنوان الظلم، وكلّ الصحابة كانوا يعبدون الأصنام إلا علي(عليه السلام)، وهذا يُوجب أن تكون الخلافة له لا لهم.

وبالنسبة إلى نسب الإمام عليّ فهو ينتهي إلى إبراهيم (عليه السلام) لا يشكّ بذلك أحد من الصحابة ولا العرب. أما الصحابة فهم من قبائل شتى، وقوميات مختلفة وليسوا من ذرية إبراهيم. وهذا الشرط أخرج جميع الصحابة من دائرة الاستخلاف وحصرها بالإمام علي عليه السلام وذريته.

اعتقد أنّ ما تقدَّم هو التفسير المنطقي، والمُحكم لآية (الإمامة)، وآية (المباهلة)؛ لأنّهما لا يقبلان فرضاً آخر. ومن عنده (علم) فليثبت لنا خطأ هذا الاستنتاج بأدلة من القرآن. وهكذا ننتهي -في ضوء آية الإمامة- إلى أنّ خطّ الإمامة الإبراهيمية هو قاعدة نظام الحُكم في الإسلام: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾**(٢)، وقوله: **﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ مِنْ**

---

(١) الحج/ ٣١

(٢) الانعام/ ١٦١

قَبْلُ﴾[١].

وهذا الخطّ يؤكّد أنّ (الإمامة) أصل من أصول الدين التي لا يقبل الله إيمان عبد إلا بعد الاعتقاد بها؛ لأن إنكارها وجحودها يعني إنكارًا لحاكمية الإسلام، وقد أكّد القرآن خطّ حاكمية الإسلام بشكل حدي وقاطع بقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ**﴾[٢]، وقوله: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ**﴾[٣]، وقوله: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ**﴾[٤]، وهو لا يقبل أي فرض آخر.

فضلا عن أنّ إنكار (الإمامة) بوصفها واقعا حياتيًّا يعني فصل الدين عن الحياة، وتحويله إلى طقوس عبادية فردية، ما يدلّ على وجود فرق بين أمّة يحكمها إمام معصوم، وأمّة لا تعرف غير الشعائر والطقوس العبادية الفردية، فهي تحكم نفسها بغير هدى ولا كتاب منير.

وهذا الخطّ يبطل شرعيَّة الانتخاب بكلّ أشكاله، ويفرض الإمامة

(١) الحج/ ٧٨
(٢) المائدة/ ٤٤
(٣) المائدة/ ٤٥
(٤) المائدة/ ٤٧

والولاية خطّا ثابتا في ذرية إبراهيم الممتدة إلى خاتم المرسلين محمّد(صلى الله عليه وآله) وإلى آله عليهم صلاة الله وسلامه. وهو يجب أنْ يستمر إلى قيام يوم الدين؛ لأن إبراهيم (عليه السلام) طلبها لذريته، ووعده الله بتحقيق ذلك بلا تقييد بزمان أو مكان.

ومن المؤكد أنّ الأمّة الإسلاميَّة لا تعرف ذرية صلبية لإبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وعلى آلهما إلا سيد المتقين عليّا وأولاده، ومنهم بقية الله الأعظم الإمام المهدي عجل الله فرجه بخير وعافية؛ لأنّ عنوان: (فجعلها كلمة باقية في عقبه) ينطبق عليه قطعا، ولو نفينا ذلك عنه، وقلنا لا إمام غائب يرث (الكلمة) الابراهيمية الباقية فمعنى ذلك إنكار لآية: (فجعلها كلمة...) وهو الكفر بعينه؛ لأنّه إنكار لبعض كتاب الله.

وقد لا يقبل البعض فكرة حاكمية فرد واحد لحكم العالم، ويعتقد أنّ فكرة الانتخاب (الشورى) أو (الديمقراطية) أكثر معقولية، بل وأنسب لوضع العالم من حكم الفرد مهما كان. ونجيب على ذلك بما يأتي:

أولاً: إنّ أهم أساس في النظام السياسي الإسلامي هو الإمام المنصوب من الله تعالى. والإمام هو الذي يُحدد أو يرسم كافة المعالم الرئيسة للنظام السياسي الإسلامي؛ لأنّه يملك رؤية ربّانيَّة شاملة.

وفعلاً يوجد فراغ كبير في هذا المجال، فهل يضع الإمام (عليه السلام) التفاصيل على وفق مصالح الناس وحاجتهم الفعلية، أو على وفق تطور الحياة والمجتمع ومتطلباته فيتبنى نظام (الانتخاب) بعد وضع أسس له تضمّن تحقيق العدالة السياسيَّة الكاملة، أو سيضع نظاماً جديداً آخر يضمن تلك العدالة ويُحقق للمجتمع استقراره؛ لأنّ النظام السياسي بطبيعته يتطلّب التجديد والتغيير. كلّ تلك الأمور غير واضحة فعلاً.

ثانياً: إنّ النظام الديمقراطي الفعلي لم يتمكن من إثبات صلاحيته وجدارته في تحقيق العدالة السياسيَّة، حتى قيل إنّ النظام الديمقراطي أفضل الخيارات السيئة. وهذا هو الواقع لأنّنا نلاحظ أنّ الدول الديمقراطية هي الأكثر اضطراباً وقلقا، وسلباً للحقوق.

وقد يُقال إنّها تؤمّن للناس حرّية التعبير، ولكن التقييم الصحيح أنّ حقّ التعبير الذي تتبناه الأنظمة الديمقراطية قد يكون مفيداً في بعض الأحيان إذا كان يصبّ في مجال رفع الظلم وتحقيق العدالة، إلا أنّ الملحوظ أنّه يتحوّل إلى أسلوب التشهير والإساءة وزعزعة المجتمع وإثارة البلابل والمشاكل وإيجاد العداء والتوتر بين أبناء الشعوب.

وعلى كلّ حال لا يستطيع أحد أن يضع تصوّرًا لشكل نظام الحكم في الإسلام بشكل دقيق، إلا أنّ المتيقن أنّ النظام يستند إلى أساسين، الأول:

أنّ الحاكمية لله تعالى: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّـه﴾[١]، والآخر: أنّ الإمام المعصوم هو الذي يضع شكل النظام وقواعده. نسأل الله تعالى تحقق عدالة السماء في الأرض على يد وليه الحجّة بن الحسن عجل الله فرجه.

(١) يوسف / ٦٧

لماذا

لم تُباشِرِ الإمامة دورها

بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

لماذا لم تُباشّر الإمامة دورها بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

إذا كانت الإمامة منصوصة في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وأنّ أسماء الأئمة الثلاثة علي والحسن والحسين عليهم صلوات الله وسلامه قد نصّت عليهم آية المباهلة، وأنّهم ذرية إبراهيم (عليه السلام) المستكملين لشروط آية الإمامة، فلماذا لم تباشر الإمامة دورها بعد وفاة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

وهل يعقل أنّ أمّة الصحابة الذين كانوا يتلون القرآن ويتهجدون به في الأسحار، وفي الليل والنهار، لا يعرفون معاني الآيتين، كيف وأحمد يروي في صحيحه عن: "أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يقترءون من رسول الله عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل"[1].

هذا الموضوع يحتاج إلى معالجة موضوعيَّة ودقيقة؛ لأنّه سيفسر لنا الأسلوب الذي تمّ فيه عزل الإمامة عن موقعها الطبيعي وتكريس الواقع للخلافة فقط. وهنا يمكننا أن نذكر أهم تلك الأسباب:

أولا: رزية يوم الخميس.

(١) مسند أحمد ح ٢٣٤٨٢

هذا الحدث المؤسف كان بداية انتكاس الأمّة الإسلاميَّة، وسوء حظّها العاثر مع الرسول الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور ليكون وداعهم له، عصيان أمره واتهامه بالهجر والهذيان. فعن ابن عباس قال: "يوم الخميس وما يوم الخميس!، أشتدّ برسول الله ﷺ وجعه، فقال: آتوني أكتب لكم كتابا لن تضلّوا بعده أبدا. فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبيّ نزاع. فقالوا: ما شأنه؟ أهجر، استفهموه، فذهبوا يردون عليه، فقال: دعوني فالذي أنا فيه خيرٌ ممّا تدعونني إليه، وأوصاهم بثلاث قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة أو قال: فنسيتها"[(١)]

وروى البخاري نصًّا آخر: "لمّا اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده. قال عمر: إنّ النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا وكثُر اللغط. قال: قوموا عنّي، ولا ينبغي عندي التنازع. فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه"[(٢)].

هذه الحادثة لها نصوص كثيرة متفقة في بعض فقراتها، ومختلفة في

(١) صحيح البخاري ج ٤ / ح٤١٦٨

(٢) صحيح البخاري / رقم الحديث ١١٤

بعض، ولاسيما فيما يتعلّق بتوصيف حالة النبي (ﷺ) العقلية. ومن جميع ذلك نخلص إلى النتائج التالية:

١- إنّ النبي (ﷺ) أراد أن يختم حياته بوصية خالدة تصون الأمّة من الضلال والاختلاف إلى قيام الساعة، إلا أنّ معظم مَن كان في البيت من الصحابة رفضوا ذلك، فشكّلوا كتلة ضاغطة أحرجت الرسول (ﷺ) ومنعته من كتابة ذلك الكتاب.

٢- شكّكَ أولئك بصحّة النبي العقلية، فقالوا (هجر) أو (يهجر) أو (غلبه الوجع) وأمثال ذلك مما لا يليق بشأن الرسول، ولا بمكانته في القرآن لقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾[1]، وقوله: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى**﴾[2].

٣- النصّ يدلّ على غضب الرسول (ﷺ) على من صدر منهم هذا القول فقال لهم: قوموا عنّي. وهذا له مدلولات خطيرة لا تخفى على ذوي الحِجا.

٤- النصّ يشير إلى شيء مُبهم تدل عليه عبارة: (دعوني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه). فما الشيء الذي دعوا رسول الله إليه فرفض

---

(١) الأحزاب / ٣٦

(٢) النجم / ٣

الاستجابة لهم؟

بالتمعّن في جميع نصوص هذه الحادثة نجد أنّ احتمالا واحدا يتعيّن هو: أنّهم دعوه إلى استخلاف أحد الصحابة وحاولوا فرضه عليه ما أدّى إلى تذمره وغضبه (ﷺ)، فقال لهم: قوموا عنّي فالذي أنا فيه خير ممّا تدعونني إليه.

من هذه الحادثة نستكشف أنّ (الإمامة) التي أراد الرسول الأعظم ترسيخها في الحياة الإسلاميَّة قد عزلت، فلو فرضنا أنّ النبي (ﷺ) قد كتب ذلك الكتاب ونصّ على أنّ علياً الخليفة بعده، وذكر أسماء الأئمة من بعده، بحيث لا تختلف الأمّة فيما بعد، ويستمر الحُكم بعده من دون اختلاف قويًا ثابتا، وتتجذر فيه قيم العدالة في المجتمع، وتترسخ قيم الإسلام، عقيدة وشريعة، في نفوس المسلمين، ونرى أنّ ما قام به بعض الصحابة أحبط قيمة ذلك الكتاب بسبب وصفهم له (ﷺ) بالهذيان والهجر وفقدان الذاكرة، وسوف يكون الكتاب نقطة خلاف يفرِّق المسلمين، فسيقول بعضهم إنّ الرسول كتب الكتاب وهو يهجر فلا قيمة لما كتب، وسيقول الآخرون إنّ رسول الله (ﷺ) أكمل البشر في صحّته ومرضه وحاشاه من الهجر.

وسوف يحدث صراع لا نهاية له، لاسيما لو أنّه ذكر أسماء الأئمة

نحو الحسن والحسين (عليهما السلام) وهما في أعمار الخامسة والسادسة، أو ذكر أسماء الأئمة الباقين الذين لم يُخلقوا بعد وهم: السجاد والباقر والصادق عليهم السلام، فسيكون هذا الأمر قرينة تدعم موقفهم محتجين بقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ**﴾[1]، وسيعدّ ذكرهم(عليه السلام) من باب الهجر. ولا شكّ أنّ هذه المخاطر كانت ماثلة بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلم يكتب شيئا، وترك الأمّة لقدرها الذي اختارته لتنقسم إلى فِرق ومذاهب وأحزاب، ما زلنا نعاني منها إلى أن يأذن الله بالفرج.

ثانيـًا: نكسة وفاة النبي (صلى الله عليه وآله):

أعدّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) جيشًا قبل مرضه بأيّام، جعل عليه أسامة بن زيد بن حارثة لتأديب نصارى العرب الذين قتلوا أباه زيد، وجعفر الطيار، وابن رواحه في مؤتة، إلا أنّ الجيش لم يتحرَّك بحجّة مرض المصطفى(صلى الله عليه وآله)، وحرص الصحابة على الاطمئنان على صحّته حتّى لو كان في ذلك عصيانه.

ثمّ تُوفي الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) فقام علي (عليه السلام) وأهل بيته بتجهيزه، ثمّ وضعوا الرسول (صلى الله عليه وآله) على سريره فصلّى عليه علي (عليه السلام) والعباس

(١) الأعراف / ١٨٨

بن عبد المطلب والفضل وغيرهم، ثمّ دخل بقيّة الصحابة، والنساء والصبيان فصلّوا عليه، ثمّ انصرفوا إلى السقيفة. فقام الإمام علي (عليه السلام) مع من معه بحفر قبر الرسول ودفنه فيه، ولم يحضر دفنه (صلى الله عليه وآله) أحد من الصحابة، بل لم يشيّعوا جسده الطاهر، وهو الوحيد الذي لم يُشيّع جثمانه من أهل المدينة.

هذه هي الحقيقة بحسب ما روتها جميع المصادر الروائيَّة والتاريخيَّة. ونسأل: لماذا لم يُشيّع الجثمان الطاهر لخاتم الأنبياء والمرسلين؟ وماذا يمكن أن يفرز هذا الحدث من مضامين سلبية خطيرة؟

إنّ الأمّة التي تمتنع عن إنفاذ جيش أسامة، وتترك رسول الله (صلى الله عليه وآله) مُسجّى على سريره، ولا تبادر إلى الاشتراك في تشيعه ودفنه أمّة محرومة، ولمّا سُئل الإمام علي (عليه السلام) عن سبب عدم حضوره لاجتماع السقيفة، وأنّه لو حضر لكان حظّه أكبر ممّن انتخب خليفة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: "بشير بن سعد الانصاري، الذي وطّأ الأرض لأبي بكر، وقالت جماعة من الأنصار: يا أبا الحسن لو كان هذا الأمر سمعته منك الأنصار قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلف فيك اثنان. فقال (عليه السلام): كنت أدع رسول الله مُسجّى لا أواريه، وأخرج أنازع في سلطانه؟"(١).

(١) الاحتجاج ج١ / ٩٦

وأغفل التاريخ ذكر الحُجج التي لو كان الصحابة قد سمعوها لبايعوه، وبحسب قولهم – إنْ كانوا صادقين – إنّ تلك الحُجج كانت قادرة على تغيير موقفهم (يا أبا الحسن لو كان هذا الأمر سمعته منك الأنصار قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلف فيك اثنان)، وهو على وفق ما ترى تسويغ بائس؛ لأنّ تاريخ علي (عليه السلام) يشهد له بالأحقّية المُطلقة بالخلافة والإمامة، إذ صمد مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في كلّ معاركه وحروبه، ولم ينهزم ولا مرّة واحدة. فكيف يصحّ أن يكون المهزوم إماما للثابت، قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾(١).

انتهى سيد المتقين (عليه السلام) من تجهيز الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ودفنه ليرى أنّ مجتمع الصحابة قد حسم أمره فاختار أبا بكر خليفة على المسلمين، وتمّت سيطرته على مقاليد الأمور، وانتهى كلّ شيء. فما هي الخيارات التي يمكن أن يلجأ إليها:

١- أنْ يُشهر السيف ليجتث جبهة المعارضة الكبيرة فتقع معركة داخلية دامية. وهنا سيسجل التاريخ أنّ عليًّا طلب الخلافة بإراقة الدماء، وازهاق الأرواح، وهدم ما بناه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتدمير الدولة الإسلاميَّة؛ لأنّ هذه المعارك ستطول، وستكون نتيجتها ما ذكرناه، إذ كان

(١) آل عمران / ١٥٣

عليّ (عليه السلام) يعرف نوايا قريش وما تضمره في نفوسها من غلٍّ وكراهية يدفعها إلى إبعاده عن الحكم مهما كلّف ذلك من دماء، حتى قال (عليه السلام): "كلّ حقد حقدتْه قريش على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أظهرته فيَّ وستظهره في وُلدي من بعدي، ما لي ولقريش، إنَّما وترتهم بأمر الله وأمر رسوله إنْ كانوا مسلمين"(١)، وهذا الحقد ما يزال يغلي إلى يومنا هذا.

٢- أن يذكرهم بما كان من رسول الله (صلى الله عليه وآله) من وصايا ومواقف بحقّه (عليه السلام) ومنها بيعة الغدير، علّهم يعودون إلى ما أوصاهم به رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأشهدهم على ذلك، بمن كان في يوم الغدير، فقد رُوي عنه(عليه السلام) أنه قال: "ولا علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ترك يوم غدير خم لأحد من حجّة، ولا لقائل مقالا، فأنشد الله رجلا سمع النبي يوم غدير خم يقول: من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، أنْ يشهد الآن بما سمع. قال زيد بن أرقم: فشهد اثنا عشر رجلاً بدريًّا بذلك، وكنتُ ممن سمع القول من رسول الله صلى الله عليه وآله فكتمت الشهادة يومئذ، فدعا عليٌ عليّ فذهب بصري"(٢).

وحاولت الزهراء الطاهرة عليها السلام أن تُعيدهم إلى رشدهم، وتُخرجهم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢٠/ ٣٢٨

(٢) الاحتجاج ج١ / ٩٦

من غيّهم، فدخلت إلى مسجد المصطفى (صلى الله عليه وآله) وكان القوم فيه، فخطبت خطبة بليغة ذكّرتهم فيها بمواقف علي (عليه السلام) وصولاته في ساحات الوغى قائلة: "أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططا، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١)، فإنْ تعزوه وتعرفوه، تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه – صلى الله عليه وآله – فبلغ الرسالة صادعا بالنذارة، مائلا من مدرجة المشركين، ضاربا ثبجهم، آخذا باكظامهم، داعيا إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر.

ثمّ قالت: فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمّد – صلى الله عليه وآله – بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب، ومرده أهل الكتاب، كلّما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدودا في ذات الله، مجتهدا في أمر الله، قريبا من رسول الله، سيدا في أولياء الله، مُشمرا ناصحا، مجدّا كادحا، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون

(١) التوبة/ ١٢٨

آمنون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال وتفرون من القتال.

فلمّا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه، هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافا، واحشمكم فألفاكم غضابا، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم. هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يُقبر. ابْتِدارا زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، ﴿**أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾(١). فَهَيْهاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأَنَى تُؤْفَكُونَ؟ وَكِتابُ اللّه بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أُمُورُهُ ظاهِرَةٌ، وَأَحْكامُهُ زاهِرَةٌ، وَأَعْلامُهُ باهِرَةٌ، وَزَواجِرُهُ لائِحَةٌ، وَأوامِرُهُ واضِحَةٌ، قَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، أرَغْبَةً عَنْهُ تُرِيدُونَ، أمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ؟

إلى أن قالت: ألا وقد قلتُ ما قلتُ هذا على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنّها فيضة النفس، ونفثة

(١) التوبة/ ٤٩

الغيض، وخور القناة، وبثّة الصدر، تقدمه الحجّة، فدونكموها فاحتبقوها دَبِرَةَ الظهر، نقيّة الخفّ، باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بنارِ اللهِ المُوقدة ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾[١]، فبعين الله ما تفعلون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٢]، وأنّا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنّا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون"[٣].

لقد وضعت الزهراء (عليها السلام) النقاط على الحروف، بلا مُجاملة أو وَجلٍ، وأثبتت لهم أحقيّة علي (عليه السلام) بالخلافة والولاية، وعدّتْ موقفهم ارتدادا ونكوصا، ونكرانا لجميل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي انقذهم ممّا كانوا فيه من ضلال وكُفر. وأخبرتهم بأنّها لا تطلب نصرتهم ولا عونهم؛ لأنّهم حسموا أمرهم واختاروا خليفتهم، وإنّما القصد إلزامهم الحجّة، وإلا فهي على وفق ما تقول: (ألا وقد قلتُ ما قلتُ هذا على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم).

كان من الضروري أنْ يبادر سيد الاوصياء (عليه السلام) إلى محاجات سلمية يثبت بها حقّه في الخلافة بوصفها تكليفا شرعيًّا يخصّه، وأن لا يبقى

---

(١) الهمزة/ ٧

(٢) الشعراء/ ٢٢٧

(٣) كتاب السقيفة/ ٩٧

ساكتًا عنه، وأنْ يسجّل موقفًا لمجتمع الصحابة وللتاريخ أنّه وصيُّ الرسول، وأنّه أحقّ بالخلافة من أبي بكر وغيره.

ولو لم يفعل ذلك فسوف تترتب عليه نتائج خطيرة نذكر منها:

أولا: سيعتقد الناس أن لا حقّ لعلي (عليه السلام) في الخلافة والولاية، وسيقول أعداؤه لو كان له حقّ لأفصح عنه، وطالب به. وعليه سيكون سكوته دليلا قاطعا على أنّ النصوص الصادرة بحقّه، ومنها حديث الغدير لا تدلّ على إمامته وإنّما تدلّ على محبته مثلا.

ثانيا: أنّ سكوته سيكون إقرارا بصحّة بيعة الخليفة الأول، بل وصحّة نظام الشورى. وهذا ما لا يمكن قبوله ليس فقط لكثرة النصوص والمواقف التي صدرت من النبي (صلى الله عليه وآله) بحقّه، التي تدلّ على إمامته وولايته، بل لأنّ آية الإمامة تفرض عليه أن يطالب بحقّه، وهو ما فعله صلوات الله وسلامه عليه. بل إنّه (عليه السلام) امتنع عن البيعة، وجلس في داره ستة أشهر في موقف احتجاجي ضدّ ما حدث.

وكان (عليه السلام) يُشير بين الحين والآخر إلى حقّه في الخلافة، بحسب ما ورد في الخطبة الشقشقية وغيرها، وهكذا فعلت الزهراء عليها السلام، ولاسيما في اللقاء الذي جمعهما مع أبي بكر وعمر، الذي حسمت فيه أمر آخرتهما بسخطها عليهما، إذ روى البخاري: "فقالتْ أرأيتكما إنْ حدثتكما حديثا

عن رسول الله ﷺ تعرفانه ولم تفعلان به؟ قالا: نعم. فقالت: نشدكما الله ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: رِضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبَّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني. قالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ. قالت: فإنّي أشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني، وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي ﷺ لأشكونّكما إليه. ثمّ قالت: لأدعونَّ عليك في كلّ صلاة أصليها"(١).

وهذا من أقوى صور المعارضة والمواجهة الحدّية. ومع ذلك بقيت مسيرة الشورى كما هي. وعلى كلّ حال فإنّ الوضع لم يُتح لعلي (عليه السلام) أن يمارس دوره القيادي، بعد أن سدّ عليه أهل السقيفة كلّ الأبواب. وقد عبّر عليه السلام بكلمة بليغة عن موقفه قائلا: "لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي ووَاللهِ لأسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ ولَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلا عَلَيَّ خَاصَّةً الْتِمَاساً لأَجْرِ ذَلِكَ وفَضْلِهِ وزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وزِبْرِجِهِ"(٢). وهذا يعني أنّ عليّا استبعد المعارضة المُسلحة والسياسة

(١) صحيح البخاري ج٥ / ١٠٤-١٠٥

لا بأس بقراءة كتاب (فاطمة والخلافة) للمؤلف لأنه يتناول هذا الموضوع بالتفصيل

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ج٦ / ١٦٦

ضدّ الخلافة مفضلا الإيثار بحقّه لمصلحة المسلمين، حرصا منه على بقاء الدولة على كلّ حال.

وقد نهج أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بعد عليّ (عليه السلام) المنهج نفسه، إذ ابتعدوا عن كلّ أشكال المعارضة أو المُطالبة بالحُكم، لعلمهم أنّ (الإمامة) يجب أن تكون سلسلة مترابطة تبدأ بعلي سيد المتقين وتنتهي بالإمام المهدي المنتظر في مسيرة تكاملية ترسخ مبادئ الإسلام وتجذرها، وتحقق العدالة والاستقرار، ولعلمهم أنّ ما أفرزه نظام الخلافة من أخطاء فاحشة ولاسيما فيما يتعلق بنظام الحكم، وكيفية تنصيب الحاكم وتوزيع الثروات والقضاء على الطبقية، وتحقيق العدالة الاجتماعيَّة، ليس من السهل إصلاحه أو تغييره. وكلّنا يعلم بمعاناة الإمام علي(عليه السلام) في تغييربعض، ذلك حين اضطر إلى قبول بيعة الناس له، وما افرزته عملية الإصلاح من حروب قاسية ومشاكل كبيرة، ولو استمرت الإمامة بعد الإمام علي (عليه السلام)، لاستمرت مسيرة الحروب والمؤامرات والاغتيالات، وحينئذ سوف لا تنجح الإمامة بوصفها نظاما سياسيّا في تحقيق غاياتها. ولعلّ هذا السبب الذي جعل الإمام الحسن الزكي (عليه السلام) لا يحرص على الخلافة، وجعل الإمام الرضا (عليه السلام) يقبل بولاية العهد من دون صلاحيات، وأن تكون ولايته صورية.

وقد يعترض بعضهم على هذه الرؤية فيقول: لماذا قبل الإمام علي(عليه السلام) بالخلافة بعد مقتل عثمان، ولماذا لا نعدّ هذا التاريخ هو بدء حاكمية الإمامة؟ وتستمر إلى الإمام الثاني عشر؟ الجواب: إنّ هذا الأمر يحتاج إلى كتاب مستقل ومفصّل يستوعب الموضوع من جميع الجهات. ولكن باختصار نقول: إنّ هناك عدة أسباب يمكن افتراضها:

أولاً: إنّ خلافة علي (عليه السلام) جاءت خلاف نظام الاستخلاف الذي رسمته السقيفة، فلم يُنتخب من قبل أعضاء الشورى الكبيرة، ولا الشورى الصغيرة التي أسسها عمر بن الخطاب، وإنّما بسبب الثورة التي أطاحت بحكم عثمان وحدوث اضطراب عشائري خطير كان من الممكن أن يقوّض بقية دولة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). فكان لابدّ من قبول الحكم بوصفه حالة اضطرارية على مبدأ: (ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين)(١) لحفظ مصالح الإسلام والمسلمين، وإصلاح أخطاء الخلفاء الذين كانوا قبله مهما أمكن.

ثانيـاً: كان أعظم خطر واجه الدولة والمجتمع هو (الولاة) الفاسدين الذين قسّموا الدولة -عمليـاً- إلى مقاطعات شخصية وأسرية، وكان أبرزهم وأهمهم معاوية بن أبي سفيان الداهية الذي حوّل الدولة إلى ملك

---

(١) نهج البلاغة ج٦/ ١٦٦

أموي عضوض، وحول عاصمة الإسلام والرسول (صلى الله عليه وآله) المدينة المنورة إلى الشام ليبتعد بالحكم والسلطة عن أيّ صلة بالإسلام ورسوله الكريم.

وكلّنا نعلم أنّ علياً (عليه السلام) قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، وهي المعارك التي استوعبت مدّة حكمه، ولم يتح لنظام الإمامة أن يرسخ قواعده وانتهت مدة حكمه(عليه السلام) باستشهاده في جامع الكوفة في القصة المعروفة.

ثالثاً: في الفترة من يوم بيعة السقيفة وإلى أن اضطر سيد المتقين إلى قبول الحكم اعتاد الناس على نظام (البيعة) بوصفه واقعا وثقافة. ولم يألفوا نظام الإمامة، على الرغم من أنّ نظام الشورى غير محدد المعالم، يشوبه الغموض والإبهام فلا نعرف من له حقّ الترشيح وكيف يتمّ الانتخاب وأمثال ذلك فهل كان باستطاعة الإمام علي (عليه السلام) أن يُرسِّخ قواعد الإمامة بتعيين ولده الإمام الحسن المجتبى (عليه السلام)، ويجد من الناس قبولاً وإذعانا؟؛ لذلك لم يستجب لمن اقترح عليه أنْ يوصي بالخلافة للإمام الحسن (عليه السلام) وترك أمره للناس.

وبعد شهادة سيد المتقين هرع الناس إلى بيعة الإمام الحسن (عليه السلام) ولم يكن أمامه إلا القبول؛ لأنّ عدم قبوله سيفتح أبواب الكوفة لمعاوية وسيبطش بأهلها وينتقم منهم، وستحدث صراعات وخلافات لا يعلم

مداها إلا الله عز وجل، وسوف يقع اللوم على الإمام الحسن (عليه السلام)، ويحمّله الناس تبعات ذلك كلّه لأنه لم يقبل بيعتهم، وينفتح الباب (للمنظرين!) ليقولوا كلّ سوء عنه. أما وقد قبل السبط الشهيد البيعة ثمّ وقع الخذلان له، وعصيان أوامره، والتمرد عليه فإنّ اللوم وقع على الأمّة لا عليه.

وعلى كلّ حال فإنّ وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) بإخفاء قبره بعد دفنه يكفي لإعطائنا تقييماً للوضع الصعب والسيء الذي واجه أول الأئمة وسيدهم، جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: "لمّا قُتل الإمام علي عليه السلام قصد بنوه أن يخفوا قبره بوصية منه، خوفاً من بني أمية والمنافقين والخوارج أن يحدثوا في قبره حدثاً. فأوهموا الناس في موضع قبره في تلك الليلة – ليلة دفنه عليه السلام – إيهامات مختلفة. فشدّوا على جمل تابوتا موثوقا بحبل، يفوح منه روائح الكافور وأخرجوه من الكوفة في سواد الليل بصحبة ثقاتهم، يوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام.

وأخرجوا بغلا وعليه جنازة مغطاة، يوهمون أنّهم يدفنوه بالحيرة، وحفروا حفائر عدة، منها في رحبة مسجد الكوفة، ومنها برحبة قصر الإمارة، ومنها في حجرة في دور آل جعدة بن هبيرة المخزومي، ومنها في أصل دار عبد الله بن يزيد القسري، بحذاء باب الوراقين، ممّا يلي قبلة

المسجد. ومنها في الكناسة – محلة بالكوفة – ومنها في الثوية - موضع قريب من الكوفة – فعمي على الناس موضع قبره.

ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواص من أصحابه، فإنّهم خرجوا بالإمام عليه السلام بوصاة منه عليه السلام وقت السحر، في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوا الإمام عليه السلام في مدينة النجف، بالموقع المعروف بالغري، وذلك بوصاة منه عليه السلام إليهم في ذلك، وعهدٍ كان عهد به إليهم، وعمي موضع قبره على الناس"(١).

وهذا النص تعبير صادق عن الوضع في تلك الفترة، فهل يمكن لأمير المؤمنين (عليه السلام) أن يفعّل نظام الإمامة بالنحو الذي أراده رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ وهل سينجح لو فعل ذلك؟ إنّ الصورة المستقبليَّة للوضع كانت جلية وواضحة لسيد المتقين (عليه السلام)، وهي بيئة غير صالحة لتطبيق نظام الإمامة.

الدليل الثاني: دليل الشهيد الصدر على إمامة المهدي:

كتب سيدنا الشهيد محمّد باقر الصدر رضوان الله عليه كتابا في السبعينات أسماه (بحث حول المهدي). وهذا الكتاب في طرحه وتحليله، واستخلاصه للنتائج، وطرق استدلاله، لم يسبقه إليه أحد،

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد ج٤ / ٨١

وعلى الرغم من حجم الكتاب الصغير إلا أنّه ثروة كبيرة في مجال تقديم إجابات علميَّة مُقنعة حول الغيبة وأهدافها وفلسفتها. ولم يكن الكتاب يعبّر عن الفكر الشيعي فقط؛ لأنّه عدّ فكرة المُصلح فكرة فطرية يشعر بها حتى العلماني الذي لا يؤمن بدين. كلّ ذلك بأسلوب علمي سلس وواضح.

طرح (رضي الله عنه) السؤال التالي فقال: كيف نؤمن بأن المهدي قد وجد؟، وأجاب على ذلك عن طريق محورين، الأول: تضافر الروايات على فكرة المهدي. والآخر: الدليل على تجسيد الفكرة في الإمام الثاني عشر، فقال: "ونصل الآن إلى السؤال الرابع وهو يقول: هب أنّ فرضية القائد المنتظر ممكنة بكلّ ما تستبطنه من عمر طويل وإمامة مبكرة وغيبة صادمة، فإنْ الإمكان لا يكفي للاقتناع بوجوده فعلاً. فكيف نؤمن فعلاً بوجود المهدي؟، وهل تكفي يضع روايات تنقل في بطون الكتب عن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) للاقتناع الكامل بالإمام الثاني عشر على الرغم ممّا في هذا الافتراض من غرابة وخروج عن المألوف؟، بل كيف يمكن أن نثبت أنّ للمهدي وجودا تاريخيّا حقًّا، وليس مجرد افتراضٍ توافرت ظروف نفسية لتثبيته في نفوس عدد كبير من الناس؟

عدد الروايات المتضافرة:

والجواب: إنّ فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل قد جاء في أحاديث الرسول الأعظم عموما، وفي روايات أئمة أهل البيت خصوصا، وأكّدت في نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك. وقد أُحصي أربعمائة حديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) من طريق إخواننا أهل السنة[١]، كما أحصي مجموعة الأخبار الواردة في الإمام المهدي من طريق الشيعة والسنة، فكان أكثر من ستة آلاف رواية"[٢]، وهذا رقم إحصائي كبير لا يتوافر نظير في كثير من قضايا الإسلام البدهية التي لا يشك فيها مُسلم عادة.

الدليل على تجسيد الفكرة في الإمام الثاني عشر:

وأما تجسيد هذه الفكرة في الإمام الثاني عشر (عليه الصلاة والسلام)، فهذا ما توجد مسوغات كافية وواضحة للاقتناع به. ويمكن تلخيص هذه المسوغات في دليلين، أحدهما: إسلامي، والآخر: علمي. فبالدليل الإسلامي نثبت وجود القائد المنتظر، وبالدليل العلمي نبرهن على أنّ المهدي ليس مجرد اسطورة وافتراض، بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخيَّة.

---

(١) يلاحظ كتاب "المهدي" للسيد العالم الصدر قدس الله روحه الزكية (المؤلف)

(٢) يلاحظ كتاب منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر للشيخ لطف الله الصافي (المؤلف)

أما الدليل الإسلامي فيتمثل في مئات الروايات الواردة عن رسول الله(ﷺ) والائمة من أهل البيت عليهم السلام التي تدلّ على تعيين المهدي وكونه من أهل البيت(١)، ومن ولد فاطمة(٢)، ومن ذرية الحسين(٣)، وانّه التاسع من ولد الحسين(٤)، وأنّ الخلفاء اثنا عشر(٥).

فإنّ هذه الروايات تُحدد تلك الفكرة العامَّة وتشخصها في الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت، وهي روايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار على الرغم من تحفّظ الائمة (عليهم السلام) واحتياطهم في طرح ذلك على المستوى العام وقاية للخلف الصالح من الاغتيال أو الاجهاز السريع على حياته.

وليس الكثرة العددية للروايات هي الأساس الوحيد لقبولها، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تُبرهن على صحّتها، فالحديث النبوي الشريف عن الائمة والخلفاء أو الأمراء بعده وأنّهم اثنا عشر إماما أو خليفة أو أميرا – على اختلاف متن الحديث في طُرقه المختلفة – قد

(١) منتخب الأثر ٥٨-١٣٦

(٢) منتخب الأثر ١٩١-١٩٤

(٣) منتخب الأثر ١٩٨-٢٠٢

(٤) منتخب الأثر ٢٠٤-٢٠٧

(٥) منتخب الأثر ١٠-٤٥

احصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت اكثر من مائتين وسبعين رواية مأخوذة من اشهر كتب الحديث عند الشيعة والسُّنة بما في ذلك البخاري[١]، ومسلم[٢]، والترمذي[٣]، وأبي داود[٤]، ومسند أحمد[٥]، ومستدرك الحاكم على الصحيحين[٦].

ونلحظ هنا أنّ البخاري الذي نقل هذا الحديث كان معاصرا للإمام الجواد والإمامين الهادي والعسكري، وفي ذلك مغزى كبير؛ لأنّه يُبرهن على أنّ هذا الحديث قد سجّل عن النبي (صلى الله عليه وآله) قبل أن يتحقق مضمونه وتكتمل فكرة الائمة الاثني عشر فعلا، وهذا يعني أنّه لا يُوجد أيّ مجال للشكّ في أن يكون نقل الحديث متأثرا بالواقع الإمامي الإثني عشري وانعكاسا له، لأنّ الاحاديث المزيفة التي تُنسب إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) – وهي انعكاسات أو تسويغات لواقع متأخّر زمنيا – لا تسبق في ظهورها

(١) صحيح البخاري ج٣/ ٩: ١٠١، كتاب الاحكام – باب الاستخلاف. طبعة دار احياء التراث العربي– بيروت

(٢) راجع: التاج الجامع للأصول ح٣/ ٤٠، قال تعقيبا على الحديث: رواه الشيخان والترمذي، وفي الهامش قال: رواه أبو داود في كتاب المهدي.

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

(٥) مسند الإمام أحمد ج٥/ ٩٣، ١٠٠

(٦) المستدرك على الصحيحين ح٣/ ٦١٨

وتسجيلها في كُتب الحديث، ذلك الواقع الذي تشكّل انعكاسا له، فما دمنا قد ملكنا الدليل المادّي على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخي للائمة الاثني عشر، وضُبط في كُتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامي الاثني عشر أمكننا أن نتأكَّد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاسا لواقع وإنّما هو تعبير عن حقيقة ربّانيَّة نطق بها من لا ينطق عن الهوى فقال: "إنّ الخلفاء بعدي إثنا عشر"، وجاء الواقع الامامي الاثني عشري ابتداءً من الإمام علي وانتهاءً بالمهدي: ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف.

وأما الدليل العلمي:

فهو يتكون من تجربة عاشتها أمّة من الناس مدّة امتدت سبعين سنة تقريبا، وهي مدة الغيبة الصغرى، ولتوضيح ذلك نمهّد بإعطاء فكرة موجزة عن الغيبة الصغرى.

إنّ الغيبة الصغرى تعبّر عن المرحلة الأولى من إمامة القائد المنتظر عليه الصلاة والسلام، فقد قُدِّر لهذا الإمام منذ تسلّمه للإمامة أن يستتر عن المسرح العامّ، ويظلّ بعيدا باسمه عن الأحداث وإنْ كان قريبا منها بقلبه وعقله، وقد لوحظ أنّ هذه الغيبة إذا جاءت مفاجئة حقّقت صدمة

كبيرة للقواعد الشعبية للإمامة في الأمّة الإسلاميَّة، لأنّ هذه القواعد كانت معتادة على الاتصال بالإمام في كلّ عصر، والتفاعل معه والرجوع إليه في حلّ المشاكل المتنوّعة، فإذا غاب الإمام عن شيعته فجأة وشعروا بالانقطاع عن قيادتهم الروحية والفكرية سببت هذه الغيبة المفاجئة الإحساس بفراغ دفعي كبير قد يعصف بالكيان كلّه ويشتت شمله، فكان لابدّ من تمهيد لهذه الغيبة، لكي تألفها هذه القواعد بالتدريج، وتُكيّف نفسها شيئا فشيئا على أساسها، وكان هذا التمهيد هو الغيبة الصغرى التي اختفى فيها الإمام المهدي عن المسرح العامّ، غير أنّه كان دائم الصلة بقواعده وشيعته عن طريق وكلائه ونوابه والثقات من أصحابه الذين يشكلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطّه الإمامي.

وقد شغل مركز النيابة عن الإمام في هذه المدة أربعة ممن أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التي عاشوا ضمنها وهم:

١- عثمان بن سعيد العمري.

٢- محمّد بن عثمان بن سعيد العمري

٣- أبو القاسم الحسين بن روح.

٤- أبو الحسن علي بن محمّد السمري.

وقد مارس هؤلاء الأربعة مهمّة النيابة بالترتيب المذكور، وكلّما

مات احدهم خلفه الآخر الذي يليه بتعيين من الإمام المهدي (عليه السلام).

وكان النائب يتصل بالشيعة ويحمل اسئلتهم إلى الإمام، ويعرض مشاكلهم عليه ويحمل اجوبته شفهيا أحيانا وتحريرية في كثير من الأحيان، وقد وجدت الجماهير التي فقدت رؤية إمامها العزاء والسَّلوى في هذه المُراسلات والاتصالات غير المباشرة، ولوحظ أنّ كلّ التوقيعات والرسائل كانت ترد من الإمام المهدي (عليه السلام) بخطٍّ واحد وسليقة واحدة طوال نيابة النواب الأربعة التي استمرّت حوالي سبعين عامًا، وكان السمري هو آخر النواب، إذ أعلن عن انتهاء مرحلة الغيبة الصغرى التي تتميّز بنواب معينين، وابتداء الغيبة الكبرى التي لا يُوجد فيها اشخاص معيّنون بالذات للوساطة بين الإمام القائد والشيعة، وقد عبّر التحوّل من الغيبة الصغرى إلى الغيبة الكبرى عن تحقيق الغيبة الصغرى لغاياتها وانتهاء مهمتها، لأنّها حصنّت الشيعة بهذه العملية التدريجية عن الصدمة والشعور بالفراغ الكبير بسبب غيبة الامام، واستطاعت أن تكيّف وضع الشيعة على أساس الغيبة، وتعدّهم بالتدريج لتقبّل فكرة النيابة العامَّة عن الإمام، وبهذا تحوّلت النيابة من افراد منصوصين إلى خطّ عام، وهو خطّ المُجتهد العادل البصير بأمور الدنيا والدين تبعا لتحوّل الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى.

والان بإمكانك أن تقدِّر الموقف في ضوء ما تقدَّم، لكي تدرك بوضوح أنّ المهدي حقيقة عاشتها أمّة من الناس، وعبّر عنها السفراء الأربعة والنواب

طوال سبعين عام في تعاملهم مع الآخرين، ولم يلحظ عليهم احدٌ كلّ هذه المدّة تلاعبا في الكلام، أو تحايلا في التصرُّف، أو تهافتا في النقل.

فهل تتصور - بربِك – أن بإمكان أُكذوبة أن تعيش سبعين عاما، ويمارسها أربعة على سبيل الترتيب كلّهم يتفقون عليها، ويظلون يتعاملون على أساسها وكأنّها قضية يعيشونها بأنفسهم ويرونها بأعينهم من دون أن يبدر منهم أيَّ شيء يُثير الشكّ، ومن دون أن يكون بين الأربعة علاقة خاصَّة متميّزة تتيح لهم نحو من التواطؤ، ويكسبون عن طريق ما يتصف به سلوكهم من واقعيَّة ثقة الجميع وايمانهم بواقعيَّة القضية التي يدَّعون أنّهم يحسونها ويعيشون معها؟

لقد قيل قديما: إنّ حبل الكذب قصير، ومنطق الحياة يثبت أيضا أنّ من المستحيل عمليا بحساب الاحتمالات أن تعيش أكذوبة بهذا الشكل، كلّ هذه المدّة، وضمن كلّ تلك العلاقات والأخذ والعطاء، ثمّ تكسب ثقة جميع من حولها.

وهكذا نعرف أنّ ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن أن تعدّ بمثابة تجربة علميَّة لإثبات ما لها من واقع موضوعي والتسليم بالإمام القائد بولادته وحياته وغيبته، واعلانه العامّ عن الغيبة الكبرى التي استتر بموجبها عن

المسرح ولم يكشف نفسه لأحد"[1].

ملاحظة مهمة:

ذكر السيد الشهيد الصدر المصادر التي ذكرت اسم المهدي (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) فعدّ منها صحيح البخاري ومسلم. وفي التخريج ذكر أنّ ذلك جاء في الجزء الثالث في كتاب الأحكام باب الاستخلاف. إلّا أنّه عند المراجعة لم نجد ذكر شيء عن المهدي (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) لا في الجزء ولا في الباب، فمن أين جاء السيد الشهيد الصدر بالمصدر؟

والحواب: أنّ (صحيح البخاري) تعرَّض إلى كثير من الحذف والزيادة على ايدي المُحققين ودور النشر لأسباب عقائديَّة معروفة، والغريب أنّ صحيح البخاري لا تُوجد له نسخة بخطِّ المؤلِّف، وكلّ النسخ الموجودة هي استنساخ بخطِّ اليد، وهنا نقطة الضعف في معظم الكتب القديمة؛ لأنّ الناسخ يستطيع أن يزيد أو يحذف كيف شاء، إلا أنّه ومن حُسن الحظّ أن كثيرا من أصحاب الحديث والرواية في الزمن القريب في عصر البخاري نقلوا أحاديث المهدي عنه وعن مسلم ممّا يدلّ على أنّها كانت فيه ثمّ حُذفت في الطبعات الحديثة.

---

(١) بحث حول المهدي/ ٥٣

وكـان في النجـف مكتبـة مهمـة جـدًّا في حسـينية اسـمها (الحسـينية الشوشـترية) تقـع في محلّـة العمـارة تحتـوي علـى المئات مـن المصـادر الخطّيـة أو المطبوعـة بـالطبع الحجـري. وكـان رضـوان الله عليـه كثيـرا مـا يراجعها حين الحاجة، وهناك احتمال قويّ أنّ نسخة من صحيح البخـاري ومسلم كانتا فيها لم يتعرضا للتحريف والحذف استند إليهما.

يـا حبَّـذا لـو أنّ أهـل الشـأن ممّـن يعنـى بالكتـب القديمـة والمصـادر الأصلية البحث عن هذه الكتب؛ لأنّها خير عون في الدفاع عن عقائـد أهـل البيت عليهم السلام وذكر روايات المهدي، وأنّه من ولد فاطمة وامثال ذلك.

الدليل الثالث: الإمام المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) بـين التواتـر وحسـاب الاحتمال:

مـن الأبحـاث المّهمـة جـدّا هـذا البحـث الـذي كتبـه سـماحة آيـة الله الشيخ محمّد باقر الايرواني دام ظله، وهو مـن طـلاب الشـهيد محمّـد بـاقر الصدر. وهو اليوم أبرز أساتذة البحث الخارج في حـوزة النجـف الأشـرف المصونة، ويعدّ بحثه من أكبر أبحاث الخارج فيها.

حاولتُ تلخيص بحثه عن الإمـام المهـدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) المكـوَّن مـن (٤٨) صـفحة، إلا أنّـي وجـدت أنّ التلخـيص قـد يخـلُّ بالبحـث ويشـوهه؛ لـذا اخـترت أن أنقلـه نصـا لعظـيم الفائـدة فيـه، أسـأل الله لـه مزيـد مـن التوفيـق

والتأييد[١].

قال أعزّه الله: " التشكيك في فكرة الإمام المهدي، التشكيك في فكرة الإمام المهدي صلوات الله عليه يمكن إبرازه في بعدين:

البُعد الأول: التشكيك في الفكرة من الأساس، فالإمام المهدي سلام الله عليه لم يُولد ولا يولد، ويرفض القول بأنّه سوف يظهر في آخر الزمان رجل يتمّ إصلاح العالم على يديه، مثل هذا الشخص لم يُولد ولا يُولد ولا تتحقق مثل هذه الفكرة، هذا بُعد من التشكيل في فكرة المهدي.

البعد الثاني: أنْ يُسلَّم بفكرة الإمام صلوات الله وسلامه عليه في الجُملة، ولكن يدَّعي أنّ هذه الفكرة بعد لم يُولد، وإنّما فيما بعد، وإذا كان هناك مصلح يتحقق على يديه إزالة الظلم فذلك يتحقق ويولد فيما بعد.

البعد الأول: التشكيل في أصل الفكرة:

إذا لحظنا البعد الأول من التشكيك، أي: التشكيك في الفكرة من الأساس، فبالإمكان أن نجد المسلمين متفقين تقريبا على بطلان مثل ذلك، فالإمامية وغيرهم قد اتفقت كلمتهم على أنّه سيظهر في آخر الزمان

(١) هذا البحث كان بالأصل محاضرة صوتية ثمّ طبع كما هو الآن بأسلوب المحاضر لا التأليف.

رجل يتمّ إصلاح العالم على يده المباركة، وقد دلّت على ذلك آيات كثيرة، كما دلّت على ذلك مجموعة كبيرة من الروايات.

الاستدلال بالآيات في بطلان التشكيك:

أما الآيات: فأتمكّن أن أقول هي بين خمس إلى ست، طبيعي الآيات التي لا تحتاج إلى تفسير من قبل أهل البيت سلام الله عليهم والتي هي ظاهرة بنفسها، وواحدة من تلك الآيات ما تلوته على مسامعكم الشريفة: **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**. هذا إخبار من الله عز وجل بأنّ نوره سوف يتمّه على جميع الكرة الأرضية، ومصداق ذلك لم يتحقق بعد؛ لأنّه لا يحتمل، فلابدّ وأنّ إتمام النور سوف يتحقق يوماً من الأيام، ولا يحتمل تحققه إلا على يد هذا المصلح وهو الإمام صلوات الله عليه، وهذه الآية بنفسها ظاهرة بلا حاجة إلى تفسير روائي.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**(١). المقصود من الأرض جميع الأرض، ولحدّ الآن لم يرثِ الأرض العباد الصالحون، ولابدّ أن يتحقق هذا فيما بعدُ في المستقبل، ولا يُحتمل تحققه إلا على يد الإمام المهدي

(١) الأنبياء/ ١٠٥

صلوات الله وسلامه عليه.

هاتان الآيتان وغيرهما من الآيات – طبيعي أنا لا أريد أن أقف عند هذا البُعد من التشكيك، وإنّما أريد أن أمر عليه مرور الكرام؛ لأنّه تمهيد إلى البعد الثاني الذي هو أساس بحثي – تدلّ على فكرة الإمام المهدي.

ولكن أعود لأؤكد لكم أنّ هذه الآيات لا تدلّ على أنّ هذا الشخص قد وُلد الآن وهو موجود الآن وغائب عن أعيننا الآن، هذه تدلّ على أنّه سوف يتحقّق هذا الحُلم وهذه الأمنية في يوم من الأيام، الأرض يرثها العباد الصالحون – جميع الأرض – ومن المُمكن أنّ الإمام لم يُولد بعد وسوف يُولد في المستقبل، وتتحقق هذه الأمنية على يده في المستقبل، من دون أن يكون مولودا الآن، فمثل هذه الآيات لا تثبت ولادة الإمام وأنّه غائب، بل من المُحتمل أنّه سوف يُولد مثل هذا الشخص في المستقبل.

الاستدلال بالروايات على بطلان التشكيك:

الروايات أيضا في هذا المجال – في أصل فكرة الإمام المهدي، وأنّه سوف تتحقق هذا الأمنية، ولو من دون دلالة على أنّ هذا الشخص مولود فعلاً – كثيرة، وسلّم بها غير الإمامية أيضا، وألّفوا كتابا في جمع هذه

الروايات الدالة على الإمام المهدي وأنّه سوف يظهر في آخر الزمان شخص باسم المهدي، الذي اطلعتُ أنا على أكثر من ثلاثين كتابا للإخوة من العامَّة غير الإمامية في هذا المجال.

ومن باب المثال أقرأ لكم بعض الروايات:

عن النبي (ﷺ) أنّه قال: "لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي"[١]. وحديث آخر: "لا تقوم الساعة حتى تُملأ الأرض ظلما وجورا وعدوانا ثمّ يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا"[٢].

وعلى هذا النسق روايات أخرى كثيرة موجودة. وقد سلّم بهذه الروايات وبهذه الفكرة في جملة غيرنا من الأخوة العامَّة، وبما فيهم ابن تيمية وابن حجر[٣]. بل في الآونة الأخيرة سلّم بها عبد العزيز بن باز، على وفق ما ورد في مجلة الجامعة التي صدرت من المدينة المنورة[٤]، وذكر أنّ هذه الفكرة صحيحة والروايات صحيحة ولا يمكن إنكار هذه الفكرة.

(١) مسند أحمد ١: ٣٧٧ ح ٣٥٦٣، ونحوه الصواعق المحرقة: ٢٤٩

(٢) مسند أحمد :٣ ٣٦ ح١٠٩٢٠، كنز العمال ١٤: : ٢٧١ ح ٣٨٦٩١، وفيه: "رجل من عترتي".

(٣) الصواعق المحرقة: ٢٤٩

(٤) مجلة الجامعة الإسلاميَّة العدد ٣ من السنة الأولى ١٦١-١٦٢

فالمسلمون إذا بشكل عامّ قد سلّموا بهذه الفكرة، للآيات والروايات. وإذا كان هناك مُنكر فهو قليل، ويمكن أن يعدّ شاذا، منهم ابن خلدون في تاريخه وأبو زهرة في كتابه الإمام الصادق[١]، ومحمد رشيد رضا في تفسيره المنار[٢]، قائلا: (يريدون ليطفئوا نور الله)[٣] فإنّه حينما يمرّ بها يقول: الروايات ضعيفة، فهو يحاول تضعيف الروايات لمجرد دعوى ذلك لا أكثر.

على أيّ حال فأصل فكرة الإمام المهدي وأنّه سوف يتحقق هذا الحلم، وتتحقق هذه الأمنية مسلّمة من عامَّة المسلمين تقريبا إلا من شذّ، وقد دلّت عليها الآيات على وفق ما قلتُ، والروايات الكثيرة التي جُمعت من ثلاثين كتاب أو أكثر للإخوة العامَّة فقط.

البعد الثاني: التشكيك في الولادة:

البعد الثاني للتشكيك هو التشكيك في ولادة الإمام سلام الله عليه بمعنى يُقال: نحن نسلّم بهذه الفكرة وأنه سيظهر شخص، لكن هذا

---

(١) الإمام الصادق: ١٩٩

(٢) تفسير المنار ١٠ : ٣٩٣، سورة التوبة، وله مناقشات حول روايات الإمام المهدي عليه السلام راجع ج٩/ ٤٩٩-٥٠٧

(٣) التوبة/ ٣٢

الشخص لا يلزم أن يكون هو الإمام المهدي، ولا يلزم أن يكون مولودا الآن، ولا يلزم أن يكون قد غاب، ولعلّه يُولد في المستقبل والآن غير موجود، ولا توجد غيبة، فكيف نتمكّن أن نثبت ولادة الإمام المهدي الآن وأنّه قد تحققت ولادته؟

إنّ المهم في محاضرتي هذه هو إثبات هذا الموضوع، وعنونت محاضرتي بعنوان (الإمام المهدي سلام الله عليه بين التواتر وحساب الاحتمالات)، وسأحاول إنْ شاء الله إثبات ولادة الإمام عن طريق هذين الطريقين، أي طريق التواتر مرّة، وطريق حساب الاحتمال أخرى.

أربع قضايا مهمة: قبل أن اشرع بالبحث أودّ أن أبيّن أربع قضايا مقدمة لتحقيق الهدف.

القضية الأولى: أي مسألة تاريخيَّة إذا ما أردنا إثباتها فهناك طريقان لإثباتها، أحدهما: التواتر، ثانيهما: حساب الاحتمال.

والتواتر على وفق ما تعلمون يعني: أن يُخبر بالقضية مجموعة كبيرة من المُخبرين بحيث لا نحتمل اجتماعهم واتفاقهم وتواطؤهم على الكذب، فإذا كان خبر من الأخبار جاء من ثلاثمائة شخص أو مئتا شخص أخبرونا به، وكل واحد نفترضه من مكان غير مكان الآخر، في مثل هذه الحالة لا نحتمل تواطؤ الجميع واتفاقهم على الكذب، مثل هذا الخبر

يقال له الخبر المتواتر.

هذا طريق لتحصيل العلم بالقضية والمسألة التاريخيَّة.

الطريق الثاني: أن نفترض أنّ الخبر ليس متواترا، كما إذا أخبر به واحدا أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة من دون تواتر، ولكن انظمّت إلى ذلك قرائن من هنا وهناك، يحصل العلم بسببها على مستوى حساب الاحتمال.

فلنفترض أنّ هناك شخصا مصابا بمرض عضال، وجاء شخص وأخبره أنّ فلانا قد شوفي من مرضه، يحصل احتمال أنّه شُوفي بدرجة الثلاثين بالمائة مثلاً، لكن اذا انضمّت إلى ذلك قرائن فسوف ترتفع القيمة الاحتمالية من ثلاثين إلى أربعين أو خمسين أو أكثر، افترض أنّنا شاهدناه لا يستعمل الدواء بعد ذلك وكان حينما يحضر إلى مكان يستعمل الدواء، فهذا يقوّي احتمال الشفاء، وإذا كانت القيمة الاحتمالية للشفاء بدرجة ثلاثين الآن ترتفع وتصير بدرجة أربعين مثلاً، وأيضا شاهدناه يجلس في المجلس ضاحكًا مُستبشرا، هذه الظاهرة أيضا تصعد من القيمة الاحتمالية لهذا الخبر، وهكذا حينما تنضّم قرائن من هذا القبيل فسوف ترتفع القيمة الاحتمالية للخبر إلى أن تصل إلى درجة اليقين مائة

بالمائة.

وهذا الخبر في الحقيقة ليس خبرا متواترا، ولكن لانضمام القرائن حصل العلم.

فهنا حصول العلم يحصل بحساب الاحتمال، يعني تقوية القيمة الاحتمالية بسبب انضمام القرائن.

إذن حصول العلم يحصل بأيّ قضية تاريخيَّة يتمّ عن طريق أمرين، أولهما: عن طريق التواتر، وثانيهما: من طريق حساب الاحتمال بتجميع القرائن. هذه القضية الأولى التي أحببت الإشارة إليها.

القضية الثانية:

لا يلزم هذا الخبر المتواتر أن يكون المُخبر من الثقات، فإنّ الوثاقة في المُخبر يلزم في الخبر غير المتواتر، كما إذا جاءنا شخص واحد أو اثنان أو ثلاثة وأخبرونا بقضية، هنا يشترط أن يكون المُخبر – لأجل أن يكون هذا الخبر حجّة – عادلاً، أما لو كانت القضية أخبر بها مائة أو مائتين أو ثلاثمائة، يعني العدد كان يشكِّل التواتر فليس من الضروري عدالة المُخبر؟

فالعدالة والوثاقة هي شروط الخبر المتواتر.

وأرجو أن لا يحصل خلط في هذه القضية بين الخبر المتواتر والخبر غير المتواتر، إذ بعضهم يتصوّر أنّ مسألة الوثاقة ومسألة عدالة الراوي يلزم تطبيقهما حتى في الخبر المتواتر، هذا غير صحيح، بل الذي نشترط فيه العدالة والوثاقة هو الخبر غير المتواتر.

لماذا لا نشترط في الخبر المتواتر العدالة والوثاقة؟

النكتة هي: أنّ الخبر المتواتر على وفق الفرض يفيد العلم لكثرة المُخبرين، وبعدما أفاد العلم حصل، وليس بعد العلم شيء يُقصد، فلا معنى إذن لاشتراط الوثاقة والعدالة في باب الخبر المتواتر، وهذه قضية بدهية وواضحة في سوق العلم.

وعلى أساس هذه القضية ليس من الحقّ وليس من الصواب أن نأتي إلى الروايات الدالة على ولادة الإمام المهدي (عليه السلام) أو أيّ قضية ترتبط بالإمام المهدي سلام الله عليه ونقول: هذه الرواية ضعيفة السند، والرواة مجاهيل، أو هذا مجهول أو ذاك مجهول، هذه الرواية الأولى إذن نطرحها، والرواية الثانية الراوي فيها مجهول إذن نطرحها، والرواية الثالثة كذلك والرابعة هكذا و...

هذا ليس صحيحا، فإنّ هذا صحيح لو فُرض أنّ الرواية كانت واحدة أو اثنين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو عشر، أما بعد فرض أن تكون

الروايات الدالة على ولادة الإمام المهدي سلام الله عليه قد بلغت حدّ التواتر لا معنى أن نقول هذه الرواية ضعيفة السند، والثانية ضعيفة السند لجهالة الراوي والثالثة هكذا، فإنّ هذه الطريقة وجيهة في الخبر غير المتواتر، أمّا في الخبر المتواتر فلا معنى لها.

هذه القضية الثانية التي أحببتُ الإشارة إليها.

القضية الثالثة:

إذا فرض أنّ لدينا مجموعة من الأخبار تختلف في الخصوصيات والتفاصيل، لكنّ الجميع يشترك في مدلول واحد من زاوية، كما لو فرضنا أنّه جاءتنا مجموعة كبيرة من الأشخاص يخبروننا عن تماثل ذلك الشخص المريض للشفاء، لكنّ الشخص الأول جاء وأخبر بالشفاء في الساعة الواحدة، والثاني حينما جاء أخبر بشفائه لكنّ في الساعة الثالثة، فاختلفوا في رقم الساعة، لكنّ الكلّ متفق على أنّه شُوفي، والخامس والسادس جاء وأخبر بالشفاء لكنّ بهذا الدواء، والآخر قال بذلك الدواء، فكان الاختلاف بمثل هذا الشكل، أي: اختلاف في الخُصوصيات، لكنّ الكلّ متفق من زاوية واحدة وهي أنّه قد شُوفي.

في مثل هذه الحالة هل يثبت الشفاء؟، نعم أصل الشفاء يثبت حدوث العلم. والنكتة في ذلك أنّ المُخبر الأول في الحقيقة يخبر بخبرين لا بخبر

واحد، أولهما: الخبر الأول الذي يخبر به أنّه شُوفي، وثانيهما: والخبر الثاني أنّه شُوفي في الساعة الأولى، والثاني حينما يخبر أيضا بخبر أنّه شوفي، والثالث حينما يخبر أيضا بخبر أنه شُوفي، إذن هم متفقون في الأخبار الأول أنّه شُوفي، لكن يختلفون في الإخبار الثاني، إذن في الأخبار الأول المتواتر موجود والاتفاق بين الجميع موجود.

ومن هنا نخرج بهذه النتيجة: أنّ الأخبار الكثيرة إذا اتفقت من زاوية على شيء معيّن فالعلم يحصل بذلك الشيء، حتى وإنْ اختلفت هذه الأخبار من الجوانب الأخرى في التفاصيل.

وبعد هذا فليس من حقّنا أن نناقش في روايات الإمام المهدي (عليه السلام) ونقول: هذه مختلفة في التفاصيل، واحدة تقول إنّ أمّ الإمام المهدي اسمها نرجس، والثانية تقول إنّ أمّ الإمام اسمها سوسن، والثالثة تقول اسمها شيء ثالث، أو إنّ واحدة تقول وُلد في هذه الليلة والثانية تقول ولد في تلك الليلة، أو واحدة تقول في هذه السنة والأخرى تقول في السنة الأخرى. فعلى هذا الأساس هذه الروايات لا يمكن أن نأخذ بها، وليست متواترة وليست مقبولة؛ لأنّها تختلف في التفاصيل ولا تنفع في إثبات التواتر وفي تحصيل العلم بولادة الإمام سلام الله عليه؛ لأنّها مختلفة

ومتضاربة فيما بينها من حيث اختلفت بهذا الشكل.

إنّه باطل، لأنّ المفروض أنّ كلّ هذه الأخبار متفقة في جانب واحد، وهو الأخبار بولادة الإمام سلام الله عليه، ولئن اختلفت فهي مختلفة في تفاصيل وخصوصيات أخرى، ولكن في أصل ولادة الإمام فهي متفقة، فالعلم يحصل والتواتر يثبت من هذه الناحية. هذه القضية الثالثة.

القضية الرابعة:

وهي الأخيرة التي أردت الإشارة إليها:

ليس من حقّ شخص أن يجتهد في مقابل النصّ، فإذا كان عندنا نصّ صريح الدلالة وتام السند من كلتا الجهتين، فلا حقّ لأحد أن يأتي ويقول أنا أجتهد في هذه المسألة، فالله عز وجل يقول (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)[1]

وهذه الآية بوضوح تدلّ على الطلب، غاية ما في الأمر ليست صريحة في الطلب الوجوبي، لكن في أصل -طلب الصلاة وطلب الزكاة- دلالتها صريحة وسند القرآن لا مناقشة فيه. فلا يحقّ لأحد أن يقول: أنا أريد أنْ أجهد في هذه المسألة وأقول هي لا تدلّ على الطلب!! ليس له هذا الحقّ،

---

(١) البقرة/ ٤٣

وهذا يسمّونه اجتهاد في مقابل النص.

نعم إذا كان يجتهد في الدلالة ويقول: لا تدلّ على الوجوب بل تدلّ على الاستحباب، فهذا جيد؛ لأنّ الدلالة ليست صريحة على الوجوب. أما أن يجتهد في الدلالة على أصل الطلب ويقول أنا أجتهد وأقول: لا تدلّ هذه على أصل الطلب في رأيي فهذا لا معنى له، لأنّ دلالتها على الطلب صريحة والسند أيضاً قطعي.

وفي ضوء هذا أخرج بهذه النتيجة أيضا: ليس من حقّ أحد أن يقول روايات الإمام المهدي أنا أجتهد فيها كما يجتهد الناس في مجالات أخرى. هذا لا معنى له، لأنّ الروايات على وفق الفرض هي واضحة الدلالة صريحة وتامّة غير قابلة للاجتهاد، وسندها متواتر، فالاجتهاد هنا إذن لا معنى له أيضا، فإنّ للاجتهاد مجالاً إذا فُرض أنّ الدلالة لم تكن صريحة، أو السند لم يكن قطعيا، أما بعد قطعية السند وصراحة الدلالة، فالاجتهاد لا معنى له، فإنّه اجتهاد في مقابل النصّ، وهذه قضية واضحة أيضا.

هذه أربع قضايا أحببت الإشارة إليها في مقدمة بحثي، والآن أدخل في البحث وأريد أن أبيّن عوامل نشوء اليقين بولادة الإمام المهدي سلام الله عليه، وسوف نلاحظ أنّ هذه العوامل إمّا ان تفيد التواتر، أو تفيد

اليقين بحساب الاحتمال، بحسب ما أوضح لكم فيها بعد.

عوامل نشوء اليقين بولادة الإمام المهدي

العامل الأول:

الأحاديث الكثيرة المُسلَّمة بين الفريقين الإمامية وغيرهم، التي تدلّ على ولادة الإمام المهدي سلام الله عليه، ولكن من دون أن ترد في خصوص الإمام المهدي وبعنوانه، فهي تدلّ على ولادة الإمام من دون أن تنصبّ على هذا الاتجاه، وأذكر لكم في هذا المجال ثلاثة أحاديث:

الحديث الأول: حديث الثقلين أو الثَقَلَين، الذي هو حديث متواتر بين الإمامية والإخوة العامَّة، ولا مجال للمُناقشة في سنده، قاله النبي في مواطن متعددة: في حجّة الوداع، وفي حجرته المباركة، وفي مرضه، وفي...، فإذا رأينا اختلافا في بعض ألفاظ الحديث فهو ناشئ من اختلاف مواطن تعدد ذكر النبي (ﷺ) لهذا الحديث: "إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، أحدهما أكبر من الآخر، ولن يفترقا حتى يردا

علي الحوض"(١).

لاحظوا: "ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض"، يعني أنّ الكتاب مع العترة من البداية، من زمان النبي (صلى الله عليه وآله) إلى أن يردا عليه الحوض. وهذا يدلّ على أنّ العُترة الطاهرة، مستمرة مع الكتاب الكريم، وهذا الاستمرار لا يمكن توجيهه إلا بافتراض أن الإمام المهدي (عليه السلام) قد ولد ولكنه غائب عن الأعين، إذ لو لم يكن مولوداً وسوف يولد في المستقبل لافترق الكتاب عن العترة الطاهرة، وهذا تكذيب – استغفر الله – للنبي، فهو يقول: "ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض" هذا لازمه أن العترة لها استمرار وبقاء مع الكتاب إلى أن يردا على النبيّ سلام الله عليه قد ولد لكنه غائب، وإلا يلزم الإخبار على خلاف الواقع.

وهذا حديث واضح الدلالة، يدلّ على ولادة الإمام سلام الله عليه. لكن كما قلت: هذا الحديث لم يرد ابتداءً في الإمام المهدي، وإنّما هو منصبّ على قضية ثانية: "وانّهما لن يفترقا"، لكن نستفيد منه ولادة الإمام بالدلالة الالتزامية.

---

(١) راجع المستدرك للحاكم ج٣/ ١٠٩، المعجم الكبير للطبراني ج٥/ ١٦٦ ح٤٩٦٩. تاريخ بغداد ج٨/ ٤٤٢. حلية الأولياء ج١/ ٣٥٥. مجمد الزوائد ج٩/ ١٦٤. وغيرها كثير جداً.

وقد يقول قائل: لنفترض أنّ الإمام (عليه السلام) لم يُولد ولكن في فترة الرجعة التي ستقع في المستقبل يرجع الإمام العسكري (عليه السلام) ويُولد آنذاك الإمام المهدي (عليه السلام)، إنّ هذه فرضية مُمكنة، وعلى أساسها يتم التلاؤم بين صدق الحديث وافتراض عدم ولادة الإمام (عليه السلام).

وجوابنا: أنّ لازم هذه الفرضية تحقق الافتراق بين العترة الطاهرة والكتاب الكريم في المدة السابقة على مدة الرجعة، ففي هذه المدة لا وجود للإمام الحجّة (عليه السلام) ولا وجود للعترة وقد تحقق فيها افتراق الكتاب الكريم عن العترة الطاهرة.

الحديث الثاني: حديث الإثني عشر، وهذا أيضاً حديث مُسلَّم بين الفريقين، رواه البخاري ومسلم وغيرهما من طرق أهل السُّنة، ومن طرقنا أيضاً قد رواه غير واحد منهم الشيخ الصدوق مثلاً في كمال الدين والحديث عن جابر بن سمرة يقول: دخلت مع أبي على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فسمعته يقول: "إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة"، ثمّ تكلم بكلام خفيَ عليّ، فقلت لأبي ما قال؟ قال: كلّهم من قريش"[١].

(١) كمال الدين: ٢٧٢، والغيبة للطوسي/ ١٢٨.

وهذا الحديث من المُسلمات أيضا، وليس له تطبيق معقول ومقبول إلا الأئمة الإثني عشر(عليهم السلام). وقد جاء بعضهم وحاول تطبيقه على الخلفاء الراشدين، اثنين أو ثلاثة من بني أمية، واثنين أو ثلاثة من بني العباس.

إنّ هذا التطبيق غير مقبول، وكلّ شخص يلحظ هذا الحديث يجده إخبارا غيبيّ من النبي (صلى الله عليه وآله) عن قضية ليس لها مصداق وجيه ومقبول سوى الأئمة صلوات الله عليهم الإثني عشر.

وهذا الحديث بالملازمة يدلّ على ولادة الإمام المهدي سلام الله عليه، إذ لو لم يكن مولوداً الآن، والمفروض أنّ الإمام العسكري تُوفي، ولم يحتمل احد أنّه موجود، إذن كيف يُولد الإمام المهدي من أب مُتوفى. فلابد وأن نفترض أن ولادة الإمام (عليه السلام) قد تحققت وإلا هذا الحديث يعود تطبيقه غير وجيه. فهذا الحديث بالدلالة الالتزامية يدلّ على ولادة

وانظر صحيح البخاري ج٩/ ٧٢٩، كتاب الأحكام باب الاستخلاف، وصحيح مسلم ج٣/ ٢٢٠ ح١٨٢١، كتاب الإمارة، ومسند أحمد ح٥ / ٩٠

ملاحظة من المؤلف: هذا الحديث آخره فيه تدليس لأن الإمامة في ذرية أبراهيم (عليه السلام)، ومحمد وآله من ذريته فلا تكون في قريش لأنهم ليسوا من ذريته، كما أن قوله (كلهم من قريش) يعني الاعتراف بحجب الإمامة عن آل محمّد، وتصحيحها في كلّ من تلبس بها من قريش. ذكرت ذلك في مطاوي هذا الكتاب.

الإمام صلوات الله وسلامه عليه.

الحديث الثالث: الذي أريد أنْ أذكره في هذا المجال، حديث أيضا مُسلَّم به بين الفريقين، وهو قوله (صلى الله عليه وآله): "من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية"(١). ويرويه أهل السُّنة، ويرويه الشيخ الكليني في الكافي، فهو مُسلَّم به عند السنة والشيعة.

فإذا لم يكن الإمام المهدي (عليه السلام) مولودا الآن، فهذا معناه نحن لا نعرف إمام زماننا، فميتنا ميتة جاهلية. فالحديث يدلّ على أنّ كلّ زمان لابدّ فيه من إمام، وكلّ شخص مكلَّف بمعرفة ذلك الإمام ومكلّف بأن لا يموت ميتة جاهلية، فلو لم يكن الإمام مولودا إذن كيف نعرف إمام زماننا؟

هذه أحاديث ثلاثة، وإنْ لم تكن منصبة على الإمام سلام الله عليه مباشرة، ولكنها بالدلالة الالتزامية تدلّ على أنّ الإمام سلام الله عليه قد وُلد وتحققت ولادته.

العامل الثاني:

إخبار النبي والائمة صلوات الله عليهم بأنّه سوف يُولد للإمام

(١) كمال الدين/ ٤٠٩ ح٩، المناقب لابن شهر اشوب ٣/ ٢١٧، ونحوه الكافي ٣٧٧: ١ح٣، وفي مسند الطيالسي: ٢٥٩، وصحيح مسلم ٣/ ٢٣٩ ح١٨٥١، عن عبد الله بن عمر: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"

العسكري ولدٌ يملأ الأرض قسطا وعدلا ويغيب، ويلزم على كلّ مُسلم أن يُؤمن بذلك. وهذه الأحاديث كثيرة، فالشيخ الصدوق في كمال الدين جعلها أبواب: باب ما روي عن النبي في الإمام المهدي، ذكر فيه خمسة وأربعين حديثا. ثمّ بعد ذلك ذكر باب ما رُوي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في الإمام المهدي.

ثمّ باب عن الزهراء سلام الله عليها وما ورد عنها في الإمام المهدي(عليه السلام) ذكر فيه أربعة احاديث. ثمّ عن الإمام الحسن(عليه السلام) ذكر فيه حديثين. ثمّ عن الإمام الحسين (عليه السلام) ذكر فيه خمسة احاديث. ثمّ عن الإمام السجاد (عليه السلام) ذكر فيه تسعة احاديث. ثمّ عن الإمام الباقر(عليه السلام) ذكر فيه سبعة عشر حديثا. ثمّ عن الإمام الصادق (عليه السلام) ذكر فيه سبعة وخمسين حديثا.

وقد جمعت الأحاديث فكانت مائة وثلاثة وتسعين حديثا. هذا فقط ما يرويه الشيخ الصدوق في الإكمال[1]. ولا أريد أن أضمّ ما ذكره الكليني في الكافي، والشيخ الطوسي، وغيرها[2]، وربما آنذاك يفوق العدد الألف

(١) كمال الدين: ٢٥٦ – ٣٨٤

(٢) الكافي ١/ ٣٢٨–٣٣٥، والغيبة للطوسي: ١٥٧، البحار: ٥١/ ٦٥–١٦٢

رواية.

وتبرُّكا وتيمّنا أذكر حديثا واحدا عن النبي (صلى الله عليه وآله) وحديثين عن الإمام الصادق سلام الله عليه. أما عن النبي (صلى الله عليه وآله)، فهو ما رواه إبن عباس قال: سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: "... ألا وأنّ الله تبارك وتعالى جعلني وأيّاهم حُججا على عباده، وجعل من صلب الحسين أئمة يقومون بأمري، ويحفظون وصيتي، التاسع منهم قائم أهل بيتي ومهدي امّتي، اشبه الناس بي في شمائله وأقواله وأفعاله، يظهر بعد غيبة طويلة..." إلى آخر الحديث[1]. وبهذا المضمون أو قريب منه أحاديث كثيرة وبعض الأحاديث تذكر أسماء الأئمة صلوات الله عليهم.

وأما عن الإمام الصادق (عليه السلام)، فهو ما رواه محمّد بن مسلم بسند صحيح متفق عليه قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : " إن بلغكم عن صاحبكم غيبة فلا تنكروها"[2]. وحديث آخر عن زرارة يقول: سمعتُ أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: "إنّ للقائم غيبة قبل أن يقوم، يا زرارة وهو المنتظر، وهو الذي يشك في ولادته".

فمسألة التشكيك في الولادة أخبر بها الإمام الصادق (عليه السلام) من ذلك

(١) كمال الدين: ٢٦٧ ح٢، كفاية الأثر/ ١٠.

(٢) كمال الدين: ٣٤٢ ح٢٤

الزمان، فكان أوّل من شككّ في الولادة جعفر عمّ الإمام المهدي (عليه السلام) لعدم اطلاعه على الولادة، ووجود تعتيم اعلامي قويّ على مسألة ولادة الإمام المهدي (عليه السلام) نتيجة الظروف الحرجة المُحيطة بالإمامة في تلك الفترة، حتى أنّه لم يجز الائمة التصريح باسم الإمام المهدي (عليه السلام)، فجعفر ما كان مُطَّلعا على أنّ الإمام العسكري (عليه السلام) له ولد باسم الإمام المهدي؛ لذلك فوجئ بالقضية وأنكر أو شككّ في الولادة، فهو أوّل من شكك.

ثمّ تلاه في التشكيك ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والاهواء والنِّحل، شكّ في مسألة الولادة قائلا: "وتقول طائفة منهم – أي من الشيعة – إنّ مولود هذه، يعني الإمام المهدي، الذي لم يُخلق قط في سنة ستين ومائتين، سنة موت أبيه"[(١)].

وتبعه على ذلك محمّد اسعاف النشاشيبي في كتابه الإسلام الصحيح يقول: "ولم يعقب الحسن – يعني العسكري سلام الله عليه – ذكرا ولا انثى"[(٢)].

وعلى أيّة حال فمسألة التشكيك في الولادة اخبر بها الإمام

(١) الفصل ٣/ ١١٤

(٢) الإسلام الصحيح: ٣٤٨

الصادق(عليه السلام)، وكانت موجودة من تلك الفترة، فالإمام يقول لزرارة: "وهو المنتظر، وهو الذي يُشكّ في ولادته، منهم من يقول مات أبوه بلا خلف، ومنهم من يقول إنّه وُلد قبل موت أبيه بسنتين..." إلى أن يقول الإمام: "يا زرارة إذا ادركت ذلك الزمان فادعو بهذا الدعاء: "اللهم عرِّفني نفسك فإنّك إنْ لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيّك، اللهم عرِّفني رسولك فإنّك إنْ لم تعرِّفني رسولك لم أعرف حُجتك، اللهمّ عرَّفني حجتك فإنّك إنْ لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني"(١).

واقعا الإنسان والعياذ بالله فجأة يضلّ عن الدين من حيث لا يشعر، فالدعاء بهذا ضروري للبقاء بالتمسك بهذا المذهب الصحيح : (اللهم عرِّفني حجّتك فإنّك إنْ لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني).

ومن الأشياء التي لا تنبغي الغفلة عنها الأدعية المعروفة عن أهل البيت صلوات الله عليهم، ومنها هذا الدعاء: "اللهم كن لوليِّك الحجّة ابن الحسن صلواتك عليه وعلى آبائه في هذه الساعة وفي كل ساعة وليًّا وحافظا وقائدا وناصرا ودليلا وعينا حتى تسكنه ارضك طوعا وتمتعه فيها طويلا"(٢).

ومن الطبيعي أنّ الائمة صلوات الله عليهم يذكرون هذا الدعاء

---

(١) كمال الدين ٣٤٢ ح٢٤

(٢) كمال الدين ٣٤٢ ح ٢٤

ليعلِّموا شيعتهم، ومن تعبيرهم بالحجّة فقط يعلم مدى حالة الكتمان والتكتم، حتى أنّ الوارد في الدعاء المتقدِّم "اللهمّ كن لوليك فلان بن فلان" فيه كتمانٌ للاسم المبارك.

هذه جملة من الاحاديث، وهي بهذا الشأن كثيرة، رواها الكليني في الكافي والشيخ في الغيبة وغيرهما، وهي تشكِّل في الحقيقة مئات الأحاديث في هذا المجال. وبعد هذه الفكرة فهي من حيث السند متواترة لا معنى للمناقشة فيها وهي واضحة غير قابلة للاجتهاد، والا لكان ذلك اجتهادا في مقابل النص.

هذا هو العامل الثاني من عوامل نشوء اليقين بولادة الإمام المهدي سلام الله عليه.

العامل الثالث:

رؤية بعض الشيعة للإمام المهدي (عليه السلام) على وفق ما حدثت به مجموعة من الروايات الأخرى، وهذه الروايات التي سأذكرها هي غير الروايات التي ذكرها الشيخ الصدوق في كمال الدين.

فعلى الرغم من التعتيم الإعلامي بالنسبة إلى اسم الإمام وولادته(عليه السلام) الذي قام به الأئمة (عليهم السلام)، اطّلعتِ السلطة عن طريق إخبار النبي وأهل البيت أنّه سوف يُولد شخص من ذرية الإمام العسكري

يملأ الأرض قسطا وعدلا، وتزول علي يده المُباركة السلطات الظالمة، انّهم كانوا مطَّلعين، ويراقبون الأوضاع، كما اطلع فرعون على مثل هذه القضية وكان يراقب الأوضاع ويراقب النساء ويراقب القوابل، ونفس القضية اتبعها بنو العباس في زمان المُعتمد العباسي، فكانوا يراقبون الأوضاع؛ لذلك كانت القضية تعيش كتمانا شديدا من هذه الناحية.

حتى أنّ الإمام الهادي سلام الله عليه يُروي عنه الثقة الجليل أبو القاسم الجعفري داود بن القاسم، الرجل العظيم الثقة الجليل قائلا: "سمعت أبا الحسن – يعني الإمام الهادي(عليه السلام) – يقول: "الخلف من بعدي الحسن ابني، فكيف لكم بالخلف من بعد الخلف؟ فقلت: ولم جعلني الله فداك؟ فقال: إنّكم لا ترون شخصه ولا يحلّ لكم ذكره باسمه. فقلت: كيف نذكره؟. قال: قولوا الحجّة من آل محمّد"[١].

على أيّة حال، على الرغم من هذا التعتم الإعلامي الذي حاول الأئمة (عليهم السلام) أن يقوموا به رأى الإمام المهدي (عليه السلام) جماعة من الشيعة. اذ ينقل الشيخ الكليني عن محمّد بن عبد الله ومحمد بن يحيى جمعيا عن عبد الله بن جعفر الحميري.

وهذا السند في غاية الصحة والوثاقة ، فالشيخ الكليني معروف إذا

(١) الكافي ١/ ٣٢٨، كمال الدين: ٣٨١ ح٥

حدَّث هو مباشرة بكلام يحصل من نقله اليقين، ومحمد بن عبد الله هو محمّد بن عبد الله بن جعفر الحميري من الثقات الأجلّة الأعاظم، ومحمّد بن يحيى العطار هو أستاذ الشيخ الكليني من الاعاظم الأجلّة، فاثنان من اعاظم مشايخ الكليني الكبار ينقل عنهم، وعبد الله بن جعفر الحميري معروف بالوثاقة والجلالة.

يقول عبد الله بن جعفر: "اجتمعت انا والشيخ أبو عمرو (ره)(١) عند أحمد بن إسحاق(٢) فغمزني أحمد بن إسحاق أن اسأله عن الخلف، فقلتُ له: يا أبا عمرو إنّي أريد أنْ اسألك عن شيء وما أنا بشاكّ فيما أريد أن اسألك عنه، فإنّ اعتقادي وديني أنّ الأرض لا تخلو من حجّة.... ولكن أحببت أنْ ازداد يقينا، فإنّ إبراهيم(عليه السلام) سأل ربّه عز وجل أنْ يُريه كيف يُحيى الموتى فقال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، وقد اخبرني أحمد بن إسحاق عن أبي الحسن – يعني عن الإمام الهادي(عليه السلام) – قال: سألته وقلت: من اعامل؟ وعمّن آخذ وقول من اقبل؟

فقال: "العمري ثقتي، فما أدّى إليك عنّي فعنّي يؤدّي، وما قال لك عنّي فعنّي يقول، فاسمع له واطع، فإنّه الثقة المأمون". واخبرني أبو عليّ أنّه سأل أبا محمّد (عليه السلام) – يعني الإمام العسكري (عليه السلام) – عن مثل

(١) عمر بن عثمان بن سعيد العمري السمان

(٢) أحمد بن إسحاق القمي الاشعري المعروف بالوثاقة

ذلك فقال: "العمري وابنه ثقتان، فما أدَّيا إليك فعنّي يؤديان وما قالا لك فعنّي يقولان، فاسمع لهما واطعهما فإنّهما الثقتان المأمونان". فهذا قول إمامين قد مضيا فيك، قال: فخر أبو عمرو ساجدا وبكى ثمّ قال: سل حاجتك فقلت له : أنت رأيت الخلف من بعد أبي محمّد؟ - يعني من بعد العسكري- فقال: أي والله... فقلتُ له: فبقيت واحدة، فقال لي: هاتِ، قلت الاسم؟ قال: محرَّم عليكم أن تسألوا عن ذلك ولا أقول هذا من عندي، وليس لي أن أُحلِّل ولا أحرِّم، ولكن عنه (عليه السلام) فإنّ الأمر عند السلطان أنّ أبا محمّد مضى ولم يخلف ولدا وقسم ميراثه... فاتقوا الله وامسكوا عن ذلك"[١].

فهل هذه الرواية قابلة للاجتهاد من حيث الدلالة؟ إنّها من حيث الدلالة صريحة، ويتمسَّك بها الاصوليون في مسألة حجّية خبر الثقة، وقد ذكر السيد الشهيد الصدر في ابحاثه أنّ هذه الرواية وحدها تفيدنا اليقين — وقد ذكر ذلك لا بمناسبة الإمام المهدي، بل بمناسبة حجّية خبر الثقة — إذن هناك إشكال يقول إنّ هذه الرواية هي خبر واحد فكيف نستدلّ بها على حجية خبر الواحد؟ ما هذا الا دور في هذا المجال، وكان السيد الشهيد يريد أن يثبت أنّ هذه الرواية تفيد اليقين، لأنّ الشيخ الكليني كلّما ينقل ويقول: اخبرني، فلا نشكّ في اخباره، والذي اخبره هو محمّد بن عبد

(١) الكافي ١ / ٣٢٩ ح١ ، والغيبة للطوسي/ ٢٤٣ح٢٠٩

الله ومحمد بن يحيى العطار، وهما من اعاظم الشيعة فلا نحتمل في حقّهم أنّهم كذبوا أو اخطأوا، ويحصل القطع من نقلهما، وهما ينقلان عن عبد الله بن جعفر الحميري الذي هو من الاعاظم، وهو ينقل مباشرة عن السفير الأول للإمام سلام الله عليه، والسفير يقول: أنا رأيت الخلف بعيني.

هذه الرواية وحدها يمكن أنْ يحصل بها اليقين، وهي واضحة في الدلالة على أنّه قد رأى الإمام صلوات الله وسلامه عليه. وهناك رواية أخرى تنقل قصّة حكيمة بنت الإمام الجواد سلام الله عليه وهذه القصة مشهورة، ولكن لا بأس أنْ أُشير إلى بعض مقاطعها، وهي مذكورة في كتاب كمال الدين وغيره.

تنقل حكيمة أنّه بعث إليّ أبو محمّد سلام الله عليه سنة خمس وخمسين ومائتين في النصف من شعبان وقال: "يا عمّة اجعلي الليلة افطارك عندي فإنّ الله عز وجل سيسرك بوليه وحجته على خلقه وخليفتي من بعدي، قالت حكيمة: فتداخلني لذلك سرور شديد واخذت ثيابي عليّ وخرجت من ساعتي حتى انتهيت إلى أبي محمّد (عليه السلام) وهو جالس في صحن داره وجواريه حوله، فقلت: جُعلت فداك يا سيدي الخلف ممّن هو؟ قال: من سوسن – في بعض الروايات سوسن وفي بعضها نرجس، وفي بعضها شيء آخر – وقلت إنّ هذه الاختلافات لا

يمكن أن يتشبث بها شخص ويقول هذه الروايات مردودة لأنّها مختلفة، فإنّ هذا ليس له اثر فأدرت طرفي فيهنّ فلم أرَ جارية عليها أثر غير سوسن.

قالت حكيمة: فلمّا صليتُ المغرب والعشاء أتيت بالمائدة فأفطرت انا وسوسن وبايتُّها في بيت واحد فغفوت غفوة ثمّ استيقظت، فلم ازل مفكِّرة فيما وعدني أبو محمّد من أمر ولي الله، فقمت قبل الوقت الذي كنت أقوم في كلّ ليلة فصليتُ صلاة الليل حتى بلغت إلى الوتر، فوثبت سوسن فزعة وخرجت فزعة واسبغت الوضوء، ثمّ عادت – يعني أمّ الإمام المهدي (عليه السلام) – فصلتْ صلاة الليل وبلغت الوتر فوقع في قلبي أنّ الفجر قد قرُب، فقمتُ لأنظر فإذا الفجر الأول قد طلع فتداخل في قلبي الشكّ من وعد أبي محمّد (عليه السلام) فناداني من حجرته: "لا تشكّي وكأنّك بالأمر الساعة" قالت حكيمة: فاستحييت من أبي محمّد وممّا وقع في قلبي ورجعت إلى البيت خجلة، فإذا هي قد قطعت الصلاة وخرجت فزعة فلقيتها على باب البيت، فقلت: بأبي أنت وأمي هل تحسين شيئا؟ قالت: نعم يا عمّة إنّي لأجد أمرا شديد، قلت: لا خوف عليك إن شاء الله، وأخذت وسادة فألقيتها في وسط البيت وأجلستها عليها وجلست منها حيث تقعد المرأة من المرأة للولادة، فقبضت على كفّي وغمزت غمزة شديدة ثمّ أنَّت أنّة وتشهدت ونظرت تحتها فإذا بولي الله صلوات الله عليه

متلقيا الأرض بمساجده[١].

ونقل الشيخ الطوسي أيضا في الغيبة حديثا طريفا قال: "جاء أربعون رجلا من وجهاء الشيعة اجتمعوا في دار الإمام العسكري ليسألوه عن الحجّة من بعده، وقام عثمان بن سعيد العمري فقال: يا ابن رسول أريد أن اسألك عن أمرا أنت أعلم به منّي، فقال له: اجلس يا عثمان، فقام مغضبا ليخرج، فقال: لا يخرجن، إلى أن كان بعد ساعة فصاح (عليه السلام) بعثمان فقام على قدميه فقال: اخبركم بما جئتم؟ قالوا نعم يا ابن رسول الله، قال: جئتم تسألونني عن الحجّة من بعدي؟ قالو: نعم، فإذا غلام كأنّه قطعة قمر اشبه الناس بأبي محمّد، فقال: هذا امامكم من بعدي، وخليفتي عليكم، أطيعوه ولا تتفرّقوا من بعدي فتهلكوا في اديانكم، ألا وإنّكم لا ترونه من بعد يومكم هذا حتى يتمّ له عمر، فأقبلوا من عثمان ما يقوله، وانتهوا إلى امره، واقبلوا قوله، فهو خليفة إمامكم والأمر إليه"[٢].

العامل الرابع:

وضوح فكرة ولادة الإمام المهدي (عليه السلام) بيّن عند الشيعة، فالذي يقرأ التاريخ ويقرأ الروايات يفهم أنّ الشيعة من الزمان الأول كانوا يتداولون فكرة الإمام المهدي وأنّه يغيب، وكانت قضية واضحة بينهم؛

(١) الغيبة للطوسي/ ٢٣٤ ح ٢٠٤

(٢) الغيبة للطوسي/ ٣٥٧ ح ٣١٩

لذلك نرى أنّ الناووسية ادَّعت أنّ الإمام الغائب هو الإمام الصادق(عليه السلام) ولكن بعد وفاة الإمام الصادق اتضح بطلان هذه العقيدة.

أما الواقفية فادَّعوا أنّ الإمام المهدي الذي يبقى هو الإمام موسى بن جعفر سلام الله عليه، وألفت النظر إلى أنّ هذا لا ينبغي ان يكون سببا لتضعيف فكرة الإمام المهدي، بل بالعكس، هذا عامل للتقوية، لأنّ هذا يدلّ على أنّ هذه الفكرة كانت واضحة بين الأوساط؛ لذلك ينسبون إلى بعض الأئمة نسبة غير صحيحة وأنّ هذا هو الإمام المهدي أو ذاك.

وإذا راجعنا كتاب الغيبة للشيخ الطوسي نجده يذكر بعنوان الوكلاء المذمومين جماعة، منهم: محمّد بن نصير النميري، وأحمد بن هلال الكرخي، ومحمّد بن علي بن أبي العزاقر الشلمغاني، إلى عشرة أو أكثر من الذين ادعوا الوكالة والسفارة عن الإمام كذباً وزورا وخرجت عليهم اللعنة وتبرَّأ منهم الشيعة.

وهذا العامل أيضا لا يكون سبباً لتضعيف فكرة الإمام المهدي وولادته وغيبته، بل هذا في الحقيقة عامل للتقوية، إذ يدلّ على أنّ هذه الفكرة كانت واضحة وثابتة؛ لذلك ادّعى هؤلاء الوكالة كذبا وزورا، وخرجت البراءة واللعنة بحقِّهم.

إذن هذا العامل الرابع من عوامل حصول اليقين بفكرة الإمام

المهدي (عليه السلام).

العامل الخامس:

إنّ قضية السفراء وخروج التوقيعات بواسطتهم قضية واضحة من تاريخ الشيعة، ولم يشكَّ فيها أحد من زمان الكليني الذي عاصر سفراء الغيبة الصغرى، ووالد الشيخ الصدوق علي بن الحسين وإلى يومنا، إنّه لم يشكك أحد من الشيعة في جلالة هؤلاء السفراء، ولم يحتمل كذبهم وهم أربعة:

الأول: عثمان بن سعيد أبو عمرو، الذي قرأنا الرواية المتقدِّمة عنه، وكان عثمان بن سعيد السمان يبيع السمن في الزقاق، حتى يخفي القضية ثمّ يُوصلها إلى الإمام، وكان هذا وكيلاً عن الإمام الهادي وعن الإمام العسكري وبعد ذلك عن الإمام الحجّة صلوات الله عليهم.

الثاني: محمّد بن عثمان بن سعيد.

الثالث: الحسين بن روح.

الرابع: علي بن محمّد السمري.

هؤلاء أربعة سفراء أجلّة، خرجت على أيديهم توقيعات -استفتاءات- كثيرة، نجد جملة منها في كتاب كمال الدين، وفي كتاب الغيبة، وكُتب أخرى.

إنّ هذه السفارة والسفراء الذين لا يحتمل في حقّهم الكذب، وخروج

هذه التوقيعات الكثيرة بواسطتهم هو نفسه قرينة قويّة على صحّة هذه الفكرة، أي: فكرة ولادة الإمام المهدي، وعلى أنّه غائب صلوات الله وسلامه عليه.

العامل السادس: تصرُّف السلطة:

إنّ تاريخ الإمامية وغيرهم ينقل أن المُعتمد العباسي بمجرد أنْ وصل إلى سمعه أنّه وُلد للإمام مولودا أرسل شرطته إلى دار الإمام وأخذوا جميع نساء الإمام واعتقلوهنّ حتّى يلحظوا الولادة ممّن؟ وطبيعي بعض التاريخ ينقل أنّ القضية كلّها كانت بإرشاد جعفر عمّ الإمام المهدي، وهذا غير مُهم، فإنّ تصرف السلطة نفسه قرينة واضحة على أنّ مسألة الولادة ثابتة، و إلّا فهذا التصرّف لا داعي له.

العامل السابع:

إنّ كلمات المؤرخين وأصحاب النَّسب من غير الشيعة واضحة في ولادة الإمام المهدي، منهم: ابن خلكان قال: "أبو القاسم محمّد بن الحسن العسكري، ثاني عشر الأئمة الاثني عشر على اعتقاد الإمامية، المعروف بالحجّة، كانت ولادته يوم الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين[١].

---

(١) وفيات الأعيان ج٤/ ١٧٦ رقم ٥٦٢

وقال الذهبي: "وأما ابنه محمّد بن الحسن الذي تدعوه الرافضة القائم الخلف الحجّة، فولد سنة ثمان وخمسين، وقيل سنة ست وخمسين"(١).

وقال ابن حجر الهيتمي: "ولم يخلف – يعني الإمام العسكري – غير ولده أبي القاسم محمّد الحجّة، وعمره عند وفاة أبيه خمس سنين"(٢). ويقول خير الدين الزركلي: "وُلد في سامراء، ومات وله من العمر خمس سنين"(٣). إلى غير ذلك من كلمات المؤرخين العامَّة، وهي تشكّل قرينة على صحّة هذه القضية.

العامل الثامن:

تباني الشيعة واتفاقهم من زمان الكليني، ووالد الشيخ الصدوق إلى يومنا هذا على فكرة الإمام المهدي (عليه السلام) وغيبته، وفي كلّ طبقات الشيعة ولم نجد من يشكك في ولادة الامام وفي غيبته وهذا من أصول الشيعة وأصول مذهبهم.

حساب الاحتمال: هذه عوامل ثمانية لنشوء اليقين، وقبل أن أختم محاضرتي أقول:

---

(١) تاريخ الإسلام ١٩/ ١١٣ رقم ١٥٩

(٢) الصواعق المحرقة: ٢٥٥ و ٣١٤

(٣) الاعلام ٦/ ٨٠

نحن إمّا أنْ نُسلِّم بكثرة الأخبار وتواترها ووضوح دلالتها على الغيبة، ومعه فلا يمكن لأحد أنْ يجتهد في مقابلها؛ لأنّه اجتهاد في مقابل النص. أو لا نُسلّم بالتواتر، ولكن بضميمة سائر العوامل إلى هذه الأخبار – التي منها: تباني الشيعة، وكلمات المؤرخين، ووضوح فكرة الإمام المهدي وولادته بين طبقات الشيعة من ذلك التاريخ السابق، وتصرُّف السلطة، ومسألة السفارة والتوقيعات، وغير ذلك من العوامل – يحصل اليقين بحقانية القضية.

إذن نحن بين أمرين، إمّا التواتر، على تقدير التسليم بكثرة الأخبار وتواترها، أو اليقين، عن طريق ضمّ القرائن على طريقة حساب الاحتمال. نسأل الله عز وجل بحق محمّد وآل محمّد أن يهدينا إلى الصراط المستقيم.

فلسفة الغيبة وأسبابها

فلسفة الغيبة وأسبابها:

لم تكن الغيبة وليدة الظرف الخاص بالإمام الحسن العسكري (عليه السلام) وتيقظ السلطة العباسية لمعرفة انتهاء نسل الإمام الحسين (عليه السلام) الذي بشَّر النبي (صلى الله عليه وآله) بأنّ المهدي الذي سيُصلح الله به الأرض، وينشر فيها العدل من نسله، فقد رُوي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: "لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله عز وجل ذلك اليوم حتّى يبعث فيه رجلاً من ولدي اسمه اسمي. فقام سلمان الفارسي – رضي الله عنه – فقال: يا رسول الله من أي ولدك؟ قال: من ولدي هذا، وضرب بيده على الحسين"[(١)]. ولو تمعّنا في النصوص الواردة بشأن الإمام المهدي (عليه السلام) نلحظ ما يأتي:

أولا: أنّه كلّما جاء اسم المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ذُكرت الغيبة مقرونة به على وفق ما في رواية الصدوق عن الإمام الصادق عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: "المهدي ولدي اسمه اسمي وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خَلقا وخُلقا، تكون له غيبة وحيرة حتّى يضلّ الخلق عن أديانهم فعند ذلك يقبل كالشهاب الثاقب فيملأها عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا"[(٢)].

---

(١) فرائد السمطين ج٢/ ٣٢٥

(٢) كمال الدين ج١/ ٢٨٨

ويروي الصدوق كذلك عن الأصبغ بن نباته قال: "أتيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فوجدته متفكّرا ينكت في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين ما لي أراك متفكّرا تنكث الأرض أرغبت فيها؟ فقال: لا والله ما رغبت فيها ولا في الدنيا يوماً قط، ولكن فكّرت في مولود يكون من ظهري، الحادي عشر من ولدي هو المهدي يملأها عدلاً كما مُلئت جورا وظُلما تكون له حيرة وغيبة، يضلّ فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون. فقلت: يا أمير المؤمنين: وإنّ هذا لكائن؟، فقال: نعم كما أنّه مخلوق وأنّى لك بالعلم بهذا الأمر يا أصبغ، أولئك خيار هذه الأمّة مع أبرار هذه العترة. قلت: وما يكون بعد ذلك؟، قال: ثمّ يفعل الله ما يشاء فإنّ له إرادات وغايات ونهايات"(١).

وأما روايات أهل السُّنة فهي كثيرة في كتبهم نحو كتب القندوزي والحمويني وكمال الدين والشافعي والهيتمي صاحب الصواعق وغيرهم كثير لا يسع المجال لذكرهم. فهل يمكن أن يكون اقتران الغيبة بالإمام المهدي (عليه السلام) من دون غيره من الأئمة من خداع النواب الأربعة، أو من المُفيد والطوسي رضوان الله عليهما؟ كيف يُعقل هذا والنصوص دالّة على ذكر ذلك قبل مولد عدد من آبائه وأجداده؟.

(١) كمال الدين ج١/ ٢٨٨

ثانيا: لا نكاد نجد رواية تتحدَّث عن الإمام المهدي (عليه السلام) إلّا وتؤكِّد اقتران وجوده المبارك بآخر الزمان من دون غيره من أئمة أهل البيت عليهم السلام. وهذا يعني أنّ الإمام (عليه السلام) غير معدٍّ لدور ظاهري مباشر بعد شهادة والده الإمام العسكري (عليه السلام) بحيث لا تكون له بصمة ظاهرية تتعارض مع تكليفه بالاختفاء.

والمتتبع للروايات يجد ذلك بوضوح، وهي ظاهرة قُرنت به من دون بقية الأئمة، فهل هي مصادفة أم هو واقع الحال فيما يتعلّق بدور الإمام(عليه السلام) وأنّه مذخور لآخر مرحلة من حياة البشريَّة، وهي التي وعد الله وقضى أن تكون للمُستضعفين بمحكم كتابه العزيز.

ثالثا: كما أنّ جميع الروايات تعدّه (الإمام الثاني عشر) فكيف يُتاح للنواب الأربعة وللشيخ الصدوق والمفيد وغيرهم رضوان الله عليهم تحديد هذا الرقم والجزم به والإصرار عليه؟ ولماذا لم يبقّ العدد مفتوحا وغير محدَّد؟، وهل هي مصادفة أنّ يتسلسل بآبائه نسبيا بدقة إلى هذا الحدّ؟ أليس من الوارد جداً أن ينقطع التسلسل بموت واحد من الأئمة قبل أنْ يتمّ العدد المذكور فتنهار الإمامة وتنهار العقيدة بالإمام المهدي(عليه السلام) فما هي الحاجة إلى هذه المخاطرة الكبيرة؟.

إنّ الحديث المُتواتر الوارد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي يقول: "إنّ هذا الأمر لا ينتهي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة"[١]، دليل قاطع على أنّ الأئمة (اثنا عشر) لا ينطبق إلّا على أئمة أهل البيت (عليهم السلام). وهو يقتضي مباشرة الإمامة لهؤلاء الأئمة بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومتابعة الإمام بعد الإمام إلى أن يكتمل العدد، ويتحقق بذلك صدق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا النصّ الذي نقلناه عن (مسلم) يقتضي وجود الإمام الغائب؛ لأنّ قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) (إنّ هذا الأمر لا ينتهي...) يعني أنّ الإسلام باقٍ إلى قيام الساعة، وأنّ لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خليفة من صلبه من ذرية إبراهيم. وهذا القول هو الوحيد الذي يتطابق مع قوله تعالى﴿**وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[٢]، يقول الحافظ ابن كثير: "ولا تقوم الساعة حتّى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أنّ منهم المهدي المُبشَّر به في الأحاديث الواردة بذكره"[٣].

وإذا لم نلتزم بذلك وقلنا الخلافة (بالبيعة) فإنّ ذلك يلزم تكذيب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأنّنا لم نجد هذا التسلسل فيمن حكموا بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) صحيح مسلم ح١٨٢١

(٢) الصف/ ٨

(٣) ابن كثير تفسير المائدة/ ١٠٩

فاضطر أنصار البيعة إلى انتقاء عدد من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ليتمّوا العدد، لا على أساس قاعدة دينيَّة أو منطقيَّة.

فضلا عن أنّ اختيار علماء السُّنة كان اعتباطيا لا يستند إلى دليل قرآني، بل هي مجرد افتراضات أو استحسانات لا غير؛ لإنّ الإمامة عُزلت بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرة على الرغم من تحوّطه وعنايته بأنْ يكون الإمام علي (عليه السلام) خليفته من بعده. إلا أنّ حادثة السقيفة أحبطت ذلك وانتجت بيعة الخليفة الأول، وبذلك اتخذ نظام الحكم شكل (البيعة) وتُرك نظام الإمامة الذي خطّه الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) مهملاً متروكًا.

بدأت الإمامة والولاية منذ فجر الإسلام في حديث الدار وانتهت بحديث عظيم لا نظير له تمثل بنزول قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إليك مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[1]. وكان ذلك في حجّة الوداع، وهو آخر عام من عمر الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد بلّغ الإسلام للأمّة، عقيدة وشريعة ولم يبقَ منه شيء، وأشهد المسلمين على ذلك فقالوا (اللهم نشهد).

(١) المائدة/ ٦٧

ذكر الرازي في أحد أسباب نزول الآية المباركة وهو السبب العاشر قال: "نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولمّا نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه،، فلقيه عمر رضي الله عنه فقال: هنيئا لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة. وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي"(١).

ثمّ نزل بعد ذلك قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾(٢). بعد أن بايع المسلمون عليًّا(عليه السلام).

والأحاديث متضافرة ومتواترة في أنّها نزلت في قضية بيعة الغدير المعروفة. ولا نُريد أن نبحث في حديث الغدير أو الثقلين وعن دلالتهما ومضامينهما، وهل يدلان على إمامة أهل البيت (عليهم السلام) أم لا، نترك ذلك لعلمائنا المُحققين الذين أشبعوا هذا الموضوع بحثا وتحقيقا.

وعلى كلّ حال فإنّ المُحصلة النهائية واضحة، فالشيعة يعتقدون بالإمامة، وأنّ الذي يجب أن يخلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الإمام علي (عليه السلام)،

---

(١) تفسير الرازي ج١٢/ ٥٠

(٢) المائدة/ ٣

مُعتقدين أنّ ما وقع في السقيفة لا يستند إلى دليل شرعي، ولأنّ نظام الشورى مُضطرب غامض، فلا أحد يدري هل أنّ البيعة تنعقد وتصحّ ببيعة جميع المسلمين أو بعضهم، أو تكون عن طريق أهل الحلّ والعقد، أو أنّ الخليفة الفعلي يُوصي بالخليفة اللاحق، أو يتحوّل النظام إلى وراثي على وفق ما حدث فيما بعد. كلّ تلك الافتراضات لا دليل عليها من القرآن ولا من السّنة الصحيحة.

أما حديث الغدير والثقلين في نظر مدرسة الخلفاء فهما لا يعنيان الإمامة والولاية التي يتمتع بها شخص الرسول الأعظم (ﷺ) وإنّما يعني محبّة أهل بيته (عليهم السلام) واحترامهم على أقصى تقدير.

والعجيب حقًّا أنّ حديث الثقلين على الرغم من وروده في صحيح مسلم، وفي سنن الترمذي وقد صححه وحسّنه الحاكم النيسابوري في المستدرك، ومسند الإمام أحمد، وفي معجم الطبراني بإسناد صحيح، إلا أنّ معظم علماء مدرسة الخلفاء يتجاهلونه بشكل فضيع، فهذا الفخر الرازي يقول: "قال أصحابنا هذه الآية (اليوم يئس الذين كفروا...) دالّة على بطلان قول الرافضة، وذلك؛ لأنه تعالى بيّن أنّ الذين كفروا يئسوا من تبديل الدين، وأكّد ذلك بقوله: (فلا تخشوهم واخشون)، فلو كانت إمارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه منصوصًا عليها من قبل الله تعالى

ورسوله ﷺ نصّا واجب الطاعة لكان من أراد إخفاءه وتغييره آيسا من ذلك بمقتضى هذه الآية، فكان يلزم أن لا يقدر أحد من الصحابة على إنكار ذلك النص وعلى تغييره وإخفائه، ولمّا لم يكن الأمر كذلك، لم يجر لهذا النصّ ذكر، ولا ظهر منه خبر ولا أثر، علمنا أنّ ادعاء هذا النصّ كذب، وأنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كان منصوصًا عليه بالإمامة..."[١].

وهذا استدلال غريب؛ لأنّه افترض أنّ الأحكام الشرعيَّة فيها قوّة الالزام التكويني بحيث يستحيل تغييرها أو تبديلها، في حين يحذّر القرآن من التحريف بقوله: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾[٢]، وقوله تعالى: **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾[٣]، بتفسيرها بما لا يرضى به الله سبحانه وبإسقاط أو زيادة أو تغيير، بحسب ما يقول العلامة الطباطبائي.

إنّ مدرسة أهل البيت – علماء وفقهاء ومحدثين – أجمعوا على أنّ المصدر الأول هو القرآن الكريم، تليه السُّنة المطهَّرة المأخوذة والمروية عن النبي وأهل بيته الطاهرين، وجملة من ثقات الصحابة الذين واكبوا

(١) تفسير الرازي ج١١/ ١٣٩

(٢) البقرة/ ٧٩

(٣) المائدة / ١٤

رسول الله (ﷺ) وشهِد لهم بالإيمان والصدق والوثاقة، ووقفوا معه في ساعات العُسرة، ونرفض روايات مُسلمة الفتح الذين دخلوا كُرها فعاثوا فيها فسادا وتحريفًا ووضعا.

ونحن هنا لا يهمنا نوع القناعة بحديث الغدير والموقف منه عند مدرسة الخلفاء ومقدار تقييمهم له، وإنّما المُهم هو القول بأنّه لم يتح لنظام الإمامة ممارسة دورها القيادي في بناء الدولة الفتية، وتحقيق العدالة السياسيّة والاجتماعية، وبناء النظام الإداري والتعليمي، وتحقيق الرفاه الاقتصادي، وضمان حرّية الأمّة والمساواة في المجتمع بين الجميع عربهم وعجمهم وأبيضهم وأسودهم.

وعلى الرغم من تحوّط النبي (ﷺ) وعنايته بأنْ تأخذ الإمامة طريقها في الحياة، وتباشر دورها ليكمل دور الرسول بعد وفاته، وتلبّى حاجات البشريَّة المُتجددة، نجد محاولات مستميتة لحرف الإمامة عن دورها، وانتزاع مكانتها في الحياة.

نجد مثلاً أنموذجا معروفا يمازج بين الحقّ والباطل ليشتت الإمامة والإمام، ويجعلها سائبة في طريق مجهول لا يُوصل إلى نتيجة كما في رواية البخاري في صحيحه "عن جابر بن سمره قال: دخلت مع أبي على

النبي (ﷺ) فسمعته يقول: إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، قال: ثمّ تكلم بكلام خفيَ عليّ. قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش"[١].

وللحديث نصوص كثيرة وهي متفقة على عبارة: (اثنا عشر خليفة) والكلام في ذيل الرواية وأعني: (كلهم من قريش) هل يمكن أنْ يصدر عن النبي (ﷺ) هذا الكلام؟ أم هو تحريف وافتراء؟ إنّ ما يُثير الشكّ في الذيل أنّ جابر بن سمرة سمع نصف الحديث ثمّ علا صوت المُسلمين بالتكبير فلم يسمع بقية الكلام، فرواه عن أبيه لا عن النبي فسأل أباه عن الكلام الذي لم يسمعه، فقال له: (كلهم من قريش) فاختصّ قريشا عن باقي العشائر العربية التي جاهدت معه ضدّ قريش حتّى عام الفتح.

ثمّ إنّ كلمة: (كلّهم من قريش) فتحت باب الخلافة لكلّ من هبّ ودبّ من قريش من دون ضوابط ومقاييس، فمن هؤلاء الذين هم من قريش؟، فضلا عن أنّ كلمة: (كلهم من قريش) أغلقت الباب على ذرية إبراهيم (عليه السلام) المنصوص عليهم بقوله تعالى: ﴿**ومن ذُريتي**﴾؛ لأنّ محمدا وذريته ليسوا من قريش نسباً.

---

(١) البخاري رقم الحديث ٧٢٢٢

ولا يمكن لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أنْ يقول (كلّهم من قريش)؛ لأنّ آية الإمامة حصرتها بذرية إبراهيم (عليه السلام) ومنهم إسماعيل (عليه السلام) وتسلسلت إلى نبينا الأكرم محمّد (صلى الله عليه وآله) ومنه إلى ذريته الطاهرين، فكيف يمكن أن يقول (كلهم من قريش) وقريش ليست من ذرية إسماعيل (عليه السلام) لقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾(١)، ولم يسكن (عليه السلام) في مكّة غير إسماعيل وأمّه هاجر، ولم تكن قريش حينئذ.

ولو فرضنا أنّ إسماعيل (عليه السلام) تزوج من قبيلة جهرم امرأة عربية فلا يعني ذلك أنّ العرب صاروا من ذرّية إسماعيل (عليه السلام)، إنَّما القدر المُتحقق أنّ ذرية إسماعيل (عليه السلام) أمّهم عربية، وهم بالنتيجة من ذرية إبراهيم الخليل (عليه السلام) وليسوا من قريش. فضلا عن أنّ أحدًا من العرب لم يدعَ أنه من ذرية إبراهيم لعلمه أنّ ذلك لا يصحّ نسبًا.

وعلى كلّ حال فإنّ الإمامة لم تأخذ موقعها في حياة المسلمين، وبقيت معزولة عن الحكم إلى يومنا هذا. وبعد ذلك واجه نظام الخلافة مُعضلة الـ (اثنا عشر) خليفة من همُ؟ ليكون الإسلام عزيزا قائما، فلا

---

(١) إبراهيم/ ٣٧

ينطبق العدد على الخلفاء الأربعة، ولا على خلفاء بني أمية ولا بني العباس ولا من جاء بعدهم؛ لأنّ أعدادهم بلغوا من الكثرة حتّى جاوزوا المئات، والإسلام ينتكس يومًا بعد يوم، والمسلمون في شتات وتدهور إلى يومنا هذا. فهل أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يوفّق في اختيار هذا العدد، أم أنّ هناك شيئا آخر اخفته الماكنة الأموية، وطمسه الحكام جيلا بعد جيل؟

أما بالنسبة إلى مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) فإنّ الأئمة منصوص عليهم بالأسماء والكنى، ويشهد لذلك الواقع التاريخي اليقيني الذي بدأ من زمن النبي (صلى الله عليه وآله) حتّى نهاية حياة الإمام الحسن العسكري وحتى بداية الغيبة الصغرى، ولعلّ أهمّ المؤشرات على ذلك هو مراقبة السلطات الأموية والعباسية للأئمة المنصوص عليهم دون غيرهم باستثناء من قام ضدّهم من أولاد أو أحفاد الأئمة (عليهم السلام).

ولو تمعنّا في مسيرة الأئمة (عليهم السلام) وحياتهم نرى ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد وسجن وقتل، بدأت بأمير المؤمنين علي (عليه السلام) ثمّ سَمَّ الإمام الحسن (عليه السلام)، ثمّ جاءت جريمة قتل الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته واصحابه بأبشع قتلة، وتلا ذلك حوادث مروِّعة لبقية أئمة أهل البيت (عليهم السلام) نحو السجن والحجز والإبعاد.

وكانت أسماء الائمة الذين نصّ عليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) تتردد على ألسنة الناس دون بقية بني هاشم في جميع المراحل التي تلت شهادة الإمام الحسين (عليه السلام)، فكانوا مراجع الامة وقادتها في مجال العلم والمعرفة، ورسخوا عقيدة الإمامة في نفوس شيعتهم، وأصول المعارف الحقّة، كعقيدة التوحيد والعدل والمعاد، وغيرها، ونشروا الأحكام الشرعيَّة المُستمدة من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ووضعوا قواعد الاستنباط الصحيحة وامثال ذلك.

ولعلم الأئمة (عليهم السلام) بأنّ الإمامة قد عُزلت عن الحُكم لم يطالب احد منهم بالحُكم، حتّى الإمام علي (عليه السلام) لم يوصِ لابنه الحسن(عليه السلام)، وترك أمر ذلك للمسلمين، ثمّ حدث ما حدث. وأمّا الإمام الحسين (عليه السلام) فكان موقفه معروفًا، فأهل الكوفة طالبوه بالحضور إلى الكوفة لتسلُّم الحكم وقد بايعوه وهو في المدينة وارسلوا له الكتب والرسائل يستحثوه السير والحضور، ولم يكن بين يديه إلّا خيارات صعبة وقاسية، فإمّا أنْ يمتنع – لعلمه من جدِّه – أنّ الأمر لن يتمّ، وحينئذ يُتَّهم بالجبن والخوف، وسيضطر الناس إلى بيعة يزيد، ولو وقع ذلك فسوف يحصل الحُكم الأموي على مشروعية دائمة بجواز بيعة الحاكم الظالم، وتنشأ الأجيال وتتربّى على ذلك. وإما أن يستجيب ويُقتل

ليثبتّ أنّ الإمامة لا يمكن أنْ تُهادِن أو تتنازل، وأنّ دمه الزكي سيحرق عروش الظالمين مدى الدهر، وهذا ما وقع.

ولم يكن دور الائمة بعد وقعة الطف إلّا دورا ثقافيا ارشاديا حفظوا به هوية الإمامة والانتساب إلى الإمام علي (عليه السلام) إلى أن يأتي اليوم الموعود بظهور الإمام المهدي المُنتظر عجل الله فرجه الشريف.

والعجيب أنّ هؤلاء الائمة حفظهم الله تعالى بحفظه على الرغم من أنّهم عاشوا بين اقسى اعدائهم في ظلّ الحكمين الاموي والعباسي، واستمر تسلسلهم النَسَبي إلى أنْ وصل إلى الإمام الهادي (عليه السلام) الذي كان يعيش في المدينة المنورة في كنف جدِّه المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم).

وكانت السلطة العباسية تراقبه وتتوجس منه، على الرغم من ابتعاده عن كلّ الاعمال التي تُوحي بمعارضة السلطة، إلّا أنّها لم تكتفِ أو تقتنع بذلك فأمر المتوكل العباسي باستدعاء الإمام (عليه السلام) من المدينة إلى سامراء بعد أنْ فتّش بيته بحثًا عن ادلّة تدينه فلم يجد فيه إلّا مصاحف وكتب علميَّة وأدعية. وكان يقود عملية الاعتقال يحيى بن هرثمة الذي اخذ الإمام الهادي قسرا إلى سامراء.

خرج الإمام الهادي (عليه السلام) مصطحبًا ولده الإمام العسكري (عليه السلام) وهو صبي ليودعا في خان الصعاليك في سامراء مدة من الزمن تحت

المراقبة. قال صالح بن سعيد: "دخلت على أبي الحسن (عليه السلام) – يعني الإمام الهادي – فقلت له: جعلت فداك في كلّ الأمور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك حتى أنزلوك هذا الخان الاشنع خان الصعاليك!"[١].

وبقي الإمام (عليه السلام) مُضطهدا مُراقبا، تتوجس منه السلطة وتخشاه إلى أن دسّ إليه المُعتز العباسي السم فاعتلَّ (عليه السلام) ومرِض، فاحضر أبا محمّد ابنه -أي الإمام العسكري (عليه السلام) – فسلّم له مواريث الأنبياء والسلاح[٢]. ونصّ عليه وأوصى إليه بمشهد من ثقات أصحابه ومضى إلى ربه وله أربعون سنة[٣].

وبدأت إمامة الحسن العسكري (عليه السلام) عام (٢٥٤هـ) واستشهد عام (٢٦٠هـ) فتكون مدّة امامته (عليه السلام) ست سنين.

وقد تعرّض الإمام العسكري (عليه السلام) لمحن قاسية وكانت السلطة تراقبه مراقبة شديدة، وسجن شأنه شأن باقي الائمة كلّما كان ذلك مُمكننا، لا لشيء إلا لأنّ السلطة كانت تعلم أنّ بقية الله الأعظم (عليه السلام) من ذريته؛ لذلك فرضت الإقامة الجبرية عليه في بيته، واجبرته على

---

(١) الكافي ج١/ ٤٩٨

(٢) إثبات الوصية / ٢٥٧

(٣) بحار الأنوار ج٥٠/ ٢١٠

الحضور في كلّ أسبوع يومين إلى مقر الخلافة إلى أن سُمَّ وانتقل إلى ربّه مظلوما.

وبعد دفن الإمام العسكري "اخذ الخليفة في البحث والتقصي عن ابن الإمام، وبعد طول الفحص لم يحصلوا على خبره، وتمّ وضع الإماء اللواتي يشكّ في حملهن من الإمام تحت المراقبة لمدة سنتين"(١) ولم يعثروا على اثر للحجّة (عليه السلام).

ولهذا السبب ادّعى بعضهم أنّ مفهوم الغيبة ابتدعه بعض المحدِّثين الشيعة، وكذلك فكرة (الوكلاء الاربعة)، والوكلاء العامين بحسب التوقيع الشريف. أرادوا بذلك كسب أموال الخُمس لمصالحهم الخاصَّة، إلا أنّ الواقع يثبت خلاف ذلك لأنّنا نجد نصوصا متضافرة تدلّ على أنّ الائمة الاطهار فسَّقوا جميع الوكلاء المدعيين والمنحرفين حال حياتهم، ومنهم مثلا: (أبو محمّد الحسن الشريعي)، و(محمّد بن نصير النمري)، و(أحمد بن هلال العبرتائي)، و(محمّد بن علي بن بلال)، و(الحسين بن منصور الحلاج) وغيرهم كثير من الذين صدرت النصوص بتفسيقهم، ثمّ ظهرت منهم دلائل الكفر والنفاق والشرك بالله تعالى قبل موتهم.

(١) كمال الدين ج١/ ٤٢.

أمّا الصادقون بمودّتهم المُخلصون لربِّهم نحو (عثمان بن سعيد) رضوان الله عليه فإنّ المواقف والنصوص تتوالى في توثيقه وعدالته وامانته في زمن الإمامين الهادي والعسكري، ولمْ يصدر منهم قدح أو تشكيك فيه.

وكانت بداية الوكالة في زمن العسكريين، ثمّ الإمام المهدي عجل الله فرجه في الغيبة الصغرى. وهي مدة تأصيل العمل بالوكالة بين الشيعة قد بدأت به رضوان الله عليه.

والسفراء الأربعة هم:

١- عثمان بن سعيد بن عمرو العمري السمّان العسكري. وثقه الإمام العسكري (عليه السلام) على وفق ما رواه الطوسي (ره) بسنده إلى أبي علي أحمد بن إسحاق عن الإمام أبي محمّد العسكري إذ سأله: من اعامل، وعمّن آخذ، وقول من اقبل؟ فقال (عليه السلام): العُمري وابنه ثقتان، فما ادَّيا فعني يؤدِّيان وما قالا فعنّي يقولان، فاسمع لهما واطعهما، فإنّهما الثقتان المأمونان(١).

٢- محمّد بن عثمان بن سعيد العمري الاسدي، المُكنى بأبي جعفر العسكري.

---

(١) الغيبة للشيخ الطوسي / ٣٦٠

٣- الحسين بن روح النوبختي، ويكنى بأبي القاسم، ويلقب بالبغدادي

٤- علي بن محمّد السمري، المكنى بأبي الحسن والملقب بالبغدادي.

وكواقع تاريخي وديني فإنّ اتباع مدرسة أهل البيت اجمعوا على وثاقة الشيخ العمري وابنه ثمّ جاء بعدهما الحسين بن روح وعلي بن محمّد السمري فكانوا هم مراجع الشيعة، ومصدر اخذهم للفتاوى والاحكام الشرعيَّة. ولم يسجل التاريخ أية مؤاخذة سلوكية عليهم أو استغلال لما في أيديهم من أموال الخُمس أو غيره.

ونرى هذه السيرة الجميلة والسُّنة الحسنة بين مراجع الشيعة الكبار، فهم لم يورثوا غير دور رعاية الأيتام، أو دور رعاية العاجزين أو مراكز رعاية الأرامل أو المدارس الحوزوية وغير ذلك.

أمّا حياتهم الشخصية فتتسم بالبساطة والسكن البسيط بعيدا عن زينة الدنيا وابهتها. وكلّ ذلك يدحض الشكوك والأوهام التي يُتهم بها الاولياء. أمّا من يدّعي أنّ السفراء استغلوا الاسم لمكاسب ماديَّة دنيوية فعليه أن يقدِّم الدليل القاطع الذي يثبت مدعاه.

كان السفراء الأربعة حلقة الوصل بين حجّة الله المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وشيعته، وكان يُجيب عن طريقهم على أسئلة الشيعة، ويحلّ مشاكلهم.

وقد استمرت سفارة الوكلاء الأربعة قرابة (٧٠) عاما، بدأت من عام (٢٦٠هـ) وانتهت عام (٣٢٩هـ). العام الذي صدر فيه التوقيع بواسطة السفير الرابع علي بن محمّد السمري (رضي الله عنه) وهذا نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم يا علي بن محمّد السمري اعظم الله أجر اخوانك فيك، فإنّك ميت ما بينك وبين ستة أيام، فاجمع امرك ولا تُوصي إلى أحد يقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة الثانية – التامة في رواية الطوسي – فلا ظهور إلّا بعد إذن الله عز وجل، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جورا، وسيأتي شيعتي من يدَّعي المُشاهدة، ألا فمن ادَّعى المُشاهدة قبل خروج السفياني والصحية فهو كاذب مفتر. ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم)[١].

وممّا تقدَّم نفهم أنّ السفارات لو كانت نابعة من تأثير المصالح والمنافع الشخصية لاستمرت لأمدٍ غير محدود ولما خُتمت بالشيخ السمري(رضي الله عنه)، إذ لا مسوّغ لختمها به، غير أنّ الإرادة الربّانيَّة اقتضت ذلك.

(١) كمال الدين وتمام الدين / ٥١٦

الغيبة الكبرى:

بـدأت عـام (٣٢٩هــ) ، وكانـت كـلّ الظـروف تقتضـي أن يختفـي الإمـام(عليه السلام)؛ لأنّ كـلّ مـن كـان شـاهده مـن حيـن ولادتـه إلـى آخـر أيـام السمري(رضي الله عنه) قد تغيّرت صورته المطبوعة في أذهانهم. وهذا يتيح لـه أن يعيش مع النـاس مـن دون أنْ يعرفـه حتـى الخاصَّـة الـذين كـانوا قـد رأوه، وحتى أقاربـه وأرحامـه، حالـه حـال يوسـف الصـديق (عليه السلام) الـذي عـرف اخوتـه ولـم يعرفـوه، بسـبب اسـتمرار نمـوه وتغيّـر ملامحـه، في حيـن هـو عرفهم بسبب توقّف أو تباطؤ حالـة النمـو عنـدهم، ﴿**وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**﴾(١).

وقد لا يقبل بعضهم بكلّ ما تقدَّم ويطالب بدليل تاريخي قـاطع يثبـت وجود الإمام الحجّة (عليه السلام) أو ولادته حتى يمكـن الإيمـان بـه والتصـديق بكلّ التفاصيل التـي تتعلّـق بـه، وإلا سـوف تتحـوّل العقيـدة بالمهـدي إلـى اسطورة وكذبة تاريخيَّة.

وجوابـا علـى ذلـك نقـول: إنّ الـدليل التـاريخي يثبـت الأشـياء والأشخاص بشكل قطعي، بـلا شـك ولا ريـب ولكنّـه لا يسـتطيع أن ينفـي شيئا على أسـاس قاعـدة منطقيَّـة ثابتـة معروفـة ومتسـالم عليهـا وهـي: (إنّ

---

(١) يوسف/ ٥٨

عدم الوجودان لا يدلّ على عدم الوجود)، ولعلّ أوضح مثال قرآني لذلك ما وقع لإبراهيم (عليه السلام) من خفاء الولادة والغيبة معًا؛ لأنّ النمرود ملك بابل كان يقتل كلّ مولود ذكر بعد أن أخبره المنجمون بأنّ مولودا ذكرا سيطيح بمُلكه، فأخفته أمّه ردحا من الزمن، وكانت ترعاه إلى أن صار فتى **﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾**(١).

وهذه رواية تاريخيَّة نجد تصديقها فيما ذكره الله عز وجل من تعجّبه ممّا رأى آيات الله في الكون، قال عز وجل: **﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾**(٢).

فأين كان إبراهيم حتى يعجب ممّا رأى إنْ لم يكن غائبا؟ وهل هناك أحد في العالم لم يرَ الشمس والقمر والكواكب لو كان يعيش بشكل طبيعي؟.

---

(١) الأنبياء/ ٦٠

(٢) الانعام / ٧٥-٧٨.

فمن يرى أنّ الدليل التاريخي هو الحدّ الفاصل يجب عليه أنْ ينفي ولادة إبراهيم وغيبته بل وجوده إلى الأبد، وكذلك بالنسبة إلى موسى (عليه السلام) فلو رجعنا بالزمن إلى يوم ولادته إلى أن دخل بيت فرعون فيجب أن ننفي مولده وغيبته؛ لأنّه لا دليل تاريخي على ذلك، إذ لم يرَ أحدٌ مولده وغيبته ممّن عاصر ذلك الحدث. إذ الدليل التأريخي يفرض أن نقول أن موسى بن فرعون لا موسى بن عمران لأن الناس علموا بوجوده في بيت فرعون، ولم يشاهدوه مع أبيه أو مع أمه. وكذا القول بالنسبة إلى عيسى (عليه السلام)، إذ لا دليل تاريخي يثبت ولادته من مريم في ذلك الوقت. حتى لو قلنا بأنّ القرآن ذكرهم وأكد مولودهم يبقى (الدليل التاريخي) ينفي كلّ ذلك ويُبطل جميع الآيات القرآنية التي تحدَّثت عن إبراهيم وموسى وعيسى، وهذا يعني بالقطع واليقين انكارا لقسم من القرآن الكريم.

والكلام ذاته يجري على مواضيع كثيرة في كتاب الله المجيد يكون الدليل التاريخي حاكما عليها ومبطلا لها ومنها خلق آدم (عليه السلام)!، حتى نحن الذين نعيش اليوم لا دليل على عدم خفاء ولادتنا، فمن منا يملك دليلا قطعيا على أنّ أمّه هي التي ولدته، إنّ كلّ ما نملك هو شهادة القابلة لإثبات نسبنا. وهو أمر مسلَّم به وصحيح وقامت عليه الحياة الاجتماعيَّة،

أو أخبار أهلنا أو بيئة البيت والأسرة التي فهمنا منها ذلك إلا أن الدليل التاريخي ينفي ذلك كله.

يا ترى لماذا لا تقبل شهادة بنت إمام وأخت إمام وهي السيدة حكيمة رضوان الله عليها؟ بل نحوِّلها إلى اسطورة تافهة بسبب وجود بعض الألفاظ أو الأحداث التي لا يقبلها بعضهم نحو شهادة الإمام لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة، والكلّ يعلم أنّ شبه ذلك وقع لعيسى وغيره.

وعلى كلّ حال فإنّ (الدليل التأريخي) يمكنه أنْ يثبت الأشياء ولا يمكنه نفيها، والذي يطالب بدليل تاريخي لإثبات ولادة المهدي (عليه السلام) بعيد عن الحقّ أو الحقيقة؛ لأنّ أهل البيت (عليهم السلام) اكّدوا أنّ في المهدي (عليه السلام) سنن من عدد من الأنبياء (عليهم السلام)، فقد روى الصدوق في كمال الدين عن سعيد بن جبير عن الإمام السجاد (عليه السلام) أنّه قال: "سمعت سيد العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: في القائم مِنّا سنن من الأنبياء، سُنّة من أبينا آدم (عليه السلام) وسُنّة من نوح، وسنة من إبراهيم، وسُنّة من موسى، وسُنّة من عيسى، وسُنّة من أيوب، وسُنّة من محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم).

فأمّا من آدم ونوح فطول العمر. وأمّا من إبراهيم فخفاء الولادة واعتزال الناس، وأمّا من موسى فالخوف والغيبة، وأمّا من عيسى فاختلاف الناس فيه، وأمّا من أيوب فالفرج بعد البلوى، وأمّا من محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) فالخروج بالسيف"[١] يعني القوة والمكنة.

وهذه المقارنات بين الأنبياء والإمام المهدي (عليه السلام) تشير إلى قاعدة ثابتة هي (إنّ الوقوع دليل الإمكان).

وقد يعترض بعضهم على ذلك فيقول: إنّ موسى وعيسى ويحيى أنبياء، ومن الطبيعي أن يخصّهم الله تعالى برعايته ولطفه، كالكلام في المهد وامثال ذلك.

وأقول في الجواب نقضا، إنّ موسى (عليه السلام) لم يكن نبيًّا في تلك الفترة، ولم ينل النبوّة إلا بعد هجرته بعدما كان يعمل عند شعيب (عليه السلام) ﴿**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا**﴾[٢]، فهو إلى هذا الوقت لم يكن نبيًّا، وإذن فالرعاية الربّانيَّة لا تختص بالأنبياء وحدهم بل قد تشمل غيرهم من اوليائه نحو الإمام المهدي (عليه السلام).

---

(١) كمال الدين ، الصدوق ، ج١/ ٣٢٢

(٢) القصص/ ٢٩-٣٥

أسباب الغيبة:

أما أسباب الغيبة على وفق ما رويت عن أهل البيت (عليهم السلام) فهي:

أولاً: خوف القتل ومعناه: ورد في روايات كثيرة منها ما رواه زرارة قال: "إنّ للقائم غيبة قبل ظهوره، قلتُ لم؟ قال: يخاف القتل"[١].
وخوف القتل معناه: أنّ تكليف الإمام (عليه السلام) الشرعي هو الحفاظ على حياته انتظارا لمهمة كبرى مكلَّف بها لم يحن وقتها، وهي تغيير العالم كلّه تحقيقا لوعده تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ**﴾[٢].

هذه المهمة تفوق مهام الأنبياء جميعا؛ لأنّ كلّ رسول من أولي العزم وإن كانت مهمته ابلاغ أهل الأرض، إلا أنّ الوضع لم يكن يتيح له الامتداد إلا لما وصل إليه بسبب قصر العمر، أو ظروف موضوعيَّة أخرى لسنا بحاجة إلى شرحها، في حين تكون مُهمة الإمام (عليه السلام) إكمال مهام الأنبياء (عليهم السلام)، وتحقيق آمالهم بترسيخ العدالة واجتثاث جميع الأنظمة الفاسدة في الأرض.

(١) البحار ج٥٢/ ٩٨

(٢) الأنبياء/ ١٠٥

وهـذا يفـرض عليـه أنْ يغيّـب شخصـه إلـى اليـوم الموعـود وتحقـق الظـروف الموضـوعيَّة التـي تتـيح لـه إمكانيـة التغييـر. والمؤكّـد أنّ عنـوان التغييـر العـالمي واجتثـاث الفسـاد وابدالـه بالإصـلاح يفـتح عليـه جبهـة عريضة من العداء العالمي مّا يجعله عُرضة للقتل في أي زمان ومكـان؛ لـذا تكون (الغيبة) هي الخيار المنطقي لتجنّب جميع المخاطر.

وهنا يمكن أن نفترض صورا لما يمكن أن يفعـل عليه السلام في نهايـة الغيبـة الصغرى وبداية الكبرى.

منها: أنْ يقوم مع ثلّة قليلة مـن شيعته بمحاولـة تغييـر الواقـع الفاسـد، المتمثل بالحُكم العباسي صاحب العدة والعدد. فهل ستكون النتيجة غيـر قـتلهم جميعـا، قبـل أنْ تكمـل الإمامـة دورهـا ومهامهـا؟. لا شـكّ أنّ الإمام(عليه السلام) أعلم الناس بالسنن القرآنية وسنن التاريخ والحيـاة، ويعـرف مـوازين الصـراع واهميـة التكـافؤ في قـوانين النصـر أو الهزيمـة، وهـذه المعرفة من أهمّ الشروط التي يجب أن تتوافر في أيِّ قائد كبير.

ولا ينبغـي أن يقـال لمـاذا لا يعتمـد الإمـام علـى المُعجـزة في تحقيـق أهدافه؟، وجوابه: أنّ سُّنة الله تعالى قضت أن يكون للجهد البشري الـدور الكبيـر في التأييـد بـالمُعجزات ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّـرُ مَـا بِقَـوْمٍ حَتَّـى يُغَيِّـرُوا مَـا**

بِأَنْفُسِهِمْ﴾[(١)]، وقوله تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**[(٢)].

نعم إنّ الإمام بحاجة إلى مُعجزة لإثبات نفسه قائدًا للعالم كّله وليس للمسلمين فقط؛ لذا جاءت النصوص لتؤكّد أنّ آيات كونية دالّة بشكل قطعي مثل النداء من السماء باسمه، أو كسوف الشمس وخسوف القمر في غير وقتهما وامثال ذلك، لتبرهن الآيات على صدق أهل البيت (عليهم السلام) بعد إخبارهم بها قبل وقوعها، لكي يثبت أنّ الإمام المهدي (عليه السلام) هو الشخص المجعول والمُعيّن من قبل الله تعالى.

أما أثناء مسيرته الجهادية فهو كالأنبياء والأوصياء يعِدُ ويستعدُّ بالممكن من القوّة المتوافرة، ويكون الدُّعاء الوسيلة إلى الله تعالى في تحقيق النصر، كما هو الحال مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في جميع مواقفه ومنها معركة بدر الكبرى: **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[(٣)]، ومواضع كثيرة في مسيرة

---

(١) الرعد/ ١١

(٢) يونس/ ٩٩

(٣) الانفال/ ٩-١٠

جهاد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) مشابهة كان للدعاء فيها بالغ الأثر في تحقيق الهدف المطلوب.

والروايات دالّة على أنّ الله ينصر اولياؤه بالريح العاتية، أو المطر الشديد، وبالرُّعب الذي هو من الأسلحة الفتاكة التي تقلب موازين القوى في أي معركة. ويصف الإمام الصادق (عليه السلام) شدّة عملية التغيير ومجاهدة الأعداء، فعن المفضل بن عمر قال: "سمعت أبا عبد الله عليه السلام وقد ذكر القائم عليه السلام فقلت: إنّي لأرجو أن يكون أمره في سهولة، فقال: لا يكون ذلك حتى تمسح العلق والعرق"(١).

وهناك روايات أخرى تتحدّث عمّا يلقى الإمام المهدي (عليه السلام) من شدّة وقسوة من الناس، ولاسيما فيما يتعلّق بتصحيحه لبعض الثوابت، أو تغييره لبعض الأحكام تركناها للاختصار.

وهكذا يكون من المنطقي أن يخفي الإمام (عليه السلام) شخصه عن الناس والحكام ومنها :

أن يقال إنّ الظروف قد تغيّرت، اذ أصبح له الآن الملايين من الأنصار والمُحبين والعاشقين، بل وقوّات مُسلحة نظامية مدربة، فلماذا الغيبة والاختفاء؟

(١) الكتاب للغيبة للنعماني ج١/ ٢٩٣

والجواب هو: أنّ ميزان القوة ما زال غير متكافئ، ففي الوقت الذي ازداد فيه أنصاره واعوانه بنفس الوقت ازدادت قوّة اعدائه مالا وعددا وعدة. وإذا كان في الزمن السابق تمثل الدولة العباسية الخطر الوحيد عليه فإنّ اليوم مئات الدول تتربص به وتتمنّى القضاء عليه وعلى أصحابه.

إنّ وجود الإمام (عليه السلام) يمثل قلقًا وكابوسا مُرعبا لأعداءه؛ لأنّ السياسيين الكبار، ومن يعمل خلف الكواليس منهم، والمُخططين الاستراتيجيين يعتقدون – ولو اجمالا – بصدق رسول الله في إخباراته الغيبيَّة السابقة فلابدّ أن يكون صادقا في الباقي منها، وهذا يدعوهم إلى القضاء عليه لو تسنّى لهم معرفته؛ لأن هدف حركته تقتضي اجتثاث الحُكومات الفاسدة في الأرض.

وكلّنا نتذَّكر حركة منحرفة اتخذت من اسم الإمام المهدي شعارا لها في مكة، فقد احتل رجل اسمه (جهيمان) في فجر (١) محرّم عام (١٤٠٠هـ) الموافق (٢٠) نوفمبر (١٩٧٩م) الحرم المكي، فجاءت نخبة من القوات الخاصَّة الفرنسية فقتلت مجموعة كبيرة من قواته ومن الحجاج وألقت القبض عليه. كلّ ذلك يعبّر عن الرعب والخوف من اسم المهدي وحركته، واستعداهم لقتله.

ثمّ إنّ القوة العسكرية التي تعتقد بالإمام (عليه السلام) بحجمها الحالي غير قادرة فعلا على مواجهة قوى الدول الاستعمارية الكبرى، وهذا ما يشهد له الواقع فعلا، وتحتاج إلى مزيد من الوقت لتتكامل عسكريا لتكون بمستوى تغيير العالم الذي هو غاية الإمام الكبير.

وإذن فإنّ ميزان القوى بين الإمام المهدي (عليه السلام) وأعداءه ما زال مختلا بدرجة كبيرة، فلا حجّة لمن يقول لماذا لا يخرج المهدي وانصاره بالملايين؟ ويجب أن ننبّه إلى مسألة مهمة يجب أن نأخذها بنظر الاعتبار في قضية تقديرنا لزمن الظهور، فهل أنّ العدد الكبير من الأنصار والمُحبين في عصرنا هذا يقتضي ويفرض على الإمام الظهور؟ ونجيب على ذلك بما يأتي:

فأولا: لاشكّ أنّ عددا كبيرا من أنصاره اليوم يتمتعون بالإخلاص والوفاء وصدق النيّة، إلا أنّ العدد الأكبر من الناصرين يتطلعون إلى حلّ مشاكلهم الشخصية وكشف همومهم المعيشية وامثال ذلك، ولا يمكن أنْ نعد هؤلاء انصارا بمستوى التضحية، إنَّما تعدّ علاقتهم بمستوى توقّع الفيض واللطف والخدمة من الإمام لشيعته لا العكس.

ثانيا: إنّ المطلوب فيمن يريد أن يكون من أنصار المهدي (عليه السلام)، ويسهم في نجاح حركته بإصلاح الأرض، وتحقيق العدالة بتحكيم القرآن والشريعة المحمدية أن لا تكون له مطامع ماديَّة أو معنويَّة، ولا يطالب

بثمن إلا الجنّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

وحاول أهل البيت(عليه السلام) وضعنا بين يدي الأمر الواقع، وتخفيف الصورة الوردية في أذهاننا عن مستوى ونوع العيش في السنوات الأولى لظهوره (عليه السلام)، فالذين يريدون أن يكونوا جنوده وأنصاره فإنّ حياتهم ستكون المرابطة الدائمة وعيش التقشف والزهد، وما أكلهم إلا الجشب وما لباسهم إلا الخشن، فعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنه قال: "وما تستعجلون بخروج القائم؟ والله ما لباسه إلا الغليظ وما طعامه إلا الشعير الجشب، وما هو إلا السيف، والموت تحت ظل السيف"(٢).

هذا لمن يُريد أن يكون (مهدويا) في سلك الطليعة الأولى التي تسهم في ظهور الإمام وحركته. أما عامَّة الناس فإنّ غاية الإمام (عليه السلام) من كلّ ذلك الجهاد هو هدايتهم وإسعادهم وتحقيق الرَّفاه والاستقرار لهم،

---

(١) التوبة/ ١١

(٢) غيبة النعماني ج١/ ٢٣٧

وهؤلاء لا يمكن عدهم قواعد مُضحية مستعدِّة لتحمل المسؤولية؛ لأنّ الذي دعاهم إلى استعجال الظهور هو مصالحهم الشخصية وطلب الراحة والاستقرار، فلا يمكن عدّهم قوات مستعدة للتضحية تُوجب ظهور الإمام (عليه السلام)، ونلحظ أنّ بعض (المُحبين) لأهل البيت (عليهم السلام) قد يسخط عليهم إنْ طلب منهم حاجة ما ولم تحصل فيمتنع عن زيارة المعصوم ويتململ منه؛ لأنّ ابنه لم ينجح أو لم يحصل على معدل كبير وأمثال ذلك من الأمور التافهة.

لذلك لا يمكن أنْ نعدّ هؤلاء قواعد شعبية مضحية قادرة على تحقيق شروط وموجبات الظهور المبارك. ولو ظهر الإمام (عليه السلام) فسوف يُقتل بلا شكّ؛ لأن مُهمة الإمام (عليه السلام) مُهمة تغييرية جذرية قد تصطدم مع تصورات بعضهم وتوقعاتهم، نسأله تعالى العفو والعافية، فعن الفضيل بن يسار قال: "سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إنّ قائمنا إذا قام استقبل من جهل الناس أشدّ ممّا استقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) من جهال الجاهلية، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أتى الناس وهم يعبدون الحجارة والصخور والعيدان والخُشب المنحوتة، وإنّ قائمنا إذا قام أتى الناس وكلّهم يتأوّل عليه كتاب الله ويحتج عليه به..."(١).

(١) غيبة النعماني ج١/ ٣٠٥

وعن إبّان بن تغلب قال: "سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمّد – عليه السلام – يقول: "إذا ظهرت راية الحقّ لعنها أهل المشرق والمغرب"[١].

وعلى كلّ حال فإنّ العنصر المؤهل لكي يكون المؤمن ناصرًا للإمام(عليه السلام) مُضحيا في سبيل نصرته هو ذاك الذي باع نفسه وماله لله عز وجل، وليس العبرة بالكثرة العددية، وإنّما المُهم هو النوع المستكمل للشروط المطلوبة.

ثانياً: أن لا تكون في عنقه بيعة لأحد:

العلة الثانية للغيبة – وهي أهمّ العلل – كما في عدد من الروايات أن لا تكون في عنقه بيعة لأيِّ حاكم أو حكومة. روى الصدوق (ره) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: "إنّ القائم منا إذا قام لم يكن لأحد في عنقه بيعة فلذلك تخفى ولادته ويغيب شخصه"[٢].

وعن الإمام الحسن (عليه السلام) أنّه قال: "أمَا علمتم أنّه ما منّا أحد إلا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه إلا القائم الذي يصلّي روح الله عيسى بن مريم (عليه السلام) خلفه فإن الله عز وجل يخفي ولادته، ويغيب شخصه لئلا

---

(١) غيبة النعماني ج١/ ٣٠٦

(٢) كمال الدين للصدوق/ ٣٠٣

يكون لأحد في عنقه بيعة إذا خرج، ذلك التاسع من ولد أخي الحسين ابن سيدة الإماء"(١).

ولولا الغيبة وعدم معرفة الناس والحكام لشخصه (عليه السلام) لكان كلّ حاكم من زمن العباسيين إلى يومنا هذا يطلب بيعته له أو لحكومته، بالرضا أو بالإكراه. وسيترتب على ذلك مفسدة دينيَّة خطيرة وهي إعطاء مشروعية لكلّ تلك الحكومات، وسوف يعتقد الناس أنّ بيعة الظالم قضية مشروعية.

وقد يناقش بعضهم ويردّ قائلا إنّ أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قد بايع الخليفة الأول، وكذلك الحسن والحسين (عليهما السلام)، فهل أنّ عليًّا (عليه السلام) أعطي له المشروعية؟

وجوابه: إنْ صحّ أنّ عليًّا (عليه السلام) بايع الخليفة الأول فإنّ البيعة إنَّما وقعت بعد ستة أشهر، أي بعد وفاة فاطمة الزهراء (عليها السلام) فأثبت للجميع عدم رضاه. ثمّ إنّه رأى موقف الأمّة السلبي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد أن توفي وبقي ثلاثة أيام مُسجى في بيته بعد تغسيله وتكفينه ولم يفزع المسلمون إلى تشيعه ودفنه وهو الوحيد الذي لم يشيع في المدينة من أهلها وامتنعوا عن حضور جنازته بحجة خوفهم من وقوع الفتنة نتيجة

(١) كمال الدين/ ٣١٦

الفراغ القيادي بعد رحيله (صلى الله عليه وآله)؛ لأنّهم كانوا في السقيفة يبايعون الخليفة، فاضطر عليه السلام مع الحسن والحسين والعباس عمّه وسلمان وجماعة قليلة إلى دفنه في غرفته صلى الله عليه وآله، فهل يمكن لأمّة هذا موقفها أن تتبنى الإمامة وتتمسك بها؟ فضلا عن ذلك أنّه بعد دفنه لرسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج ليرى نظاما سياسيا قائما، وخليفة يحكم الناس، قد بايعته الأمّة وأذعنت له بالطاعة، فكيف يمكن للإمامة أن تأخذ دورها الحقيقي؟، وكيف يمكن لعليّ (عليه السلام) أن يواجه هذا الواقع المزري؟ هل يغيّره بالسيف؟ ولو فعل ذلك فسوف تُراق الدِّماء وستحدث كارثة دموية تُسجّل ضدّه، وسيقول التاريخ إنّ عليًّا (عليه السلام) طلب الحكم لنفسه بالسيف والدم مقدِّما مصالحه الشخصية على مصالح الأمّة.

ولو فرضنا أنّ الإمام علي (عليه السلام) بايع هؤلاء كرها فإنّ الطريق الصحيح لإثبات ذلك هو الإعلان عن عدم رضاه، إمّا للناس عامَّة كما فعل الإمام الحسين عليه السلام "إنا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب للخمر، قاتل النفس المُحرَّمة، معلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله"(١). وفي النهاية سيُقتل، أو يعلن للخاصَّة من أصحابه، وفي هذا الفرض سيكون موقف عامَّة الناس الاعتقاد بصحة بيعة الحاكم الظالم

---

(١) اللهوف لابن طاووس/ ١٠

لعدم علمهم بالواقع، وستكون بيعة الظالم سُّنة وعادة طبيعية؛ لذلك أثبت الأئمة (عليهم السلام) على امتداد التاريخ معارضتهم للحُكام بشكل أو بآخر، فكانوا عرضة للسجن والاضطهاد والقتل بالسمّ وغيره، وهذا يكفي لإثبات هذه الحقيقة.

أمّا في عصرنا الحاضر فالحكومات إمّا مُستبدِّة مُتسلِّطة تقهر الناس على طاعتها، وإمّا ديمقراطية تُجبر الناس على الخضوع لها بأصوات المنتخبين الفائزين لتكره الباقين وتلزمهم بطاعتها عن طريق القوانين التي تشرِّعها في المجالس النيابية أو اللجان الدستورية.

وفي هذا الفرض سيشمل فرض الطاعة الإمام نفسه، وعليه أن يلتزم بكلّ القوانين، فلو خالف وقام بحركة تغييرية ضدَّ النظام فسيُعدّ خارجًا عن القانون وسيخضع لنظام العقوبات ويُقتل قطعا.

وقد يقول بعضهم ردًّا على ما تقدَّم لماذا لا يستفيد الإمام (عليه السلام) ممّا تتيحه الأنظمة الديمقراطية من حرّية فيرشِّح كفردٍ أو كيان ليفوز بالانتخابات ويحقق ما يريد؟، ونقول: إنّ الترشيح يجب أن يكون على وفق قوانين النظام الذي رشّح نفسه على أساسه ويلتزم به، لا أن يأتي بنظام جديد ينسف نظام الانتخابات ودستور الدولة، هذا أولا. وثانيا أنّ مهمة الإمام عالمية لكلّ الأرض، ففي أيِّ دولة أو بُقعة يفترض أن يرشّح

فيها حتى يستفيد من الديمقراطية والحرّية، حتّى العراق فعلا لا يساعد على ذلك للعلل المتقدِّمة.

وعلى كلّ حال فإنّ دور الإمام ومُهمته الكبرى التي رسمها رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا تتناسب مع ما تقدَّم من فرض كونه ظاهرا (مُستضعفا) تتقاذفه البيعات تارة لهذا وأخرى لذاك؛ لذا كان من الضروري خفاء شخصه إلى أن تتوافر الشروط الموضوعيَّة.

ثالثا: فشل الاطروحات الفكرية.

السبب الثالث هو انتظار فشل الأطروحات الفكرية والسياسيَّة والاقتصادية. هناك نصوص تؤكِّد أنّ ظهور الإمام (عليه السلام) سيكون بعد فشل واستنفاذ جميع النظم والأطروحات الماديَّة وغير الماديَّة، قوّتها وقدرتها على تحقيق العدالة والاستقرار، ففي رواية عن محمّد بن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: "ما يكون هذا الأمر حتّى لا يبقى صنف من الناس إلا قد ولوا من الناس حتى لا يقول قائل: إنّا لو وُلينا لعدلنا، ثمّ يقوم القائم بالحقّ والعدل"(١).

(١) غيبة النعماني ج١/ ٢٨٠

ذكرنا سابقا أنّ (الإمامة) بوصفها نظاما سياسيًّا عُزلت بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولم يبقَ (للإمام) إلا الدور العلمي والفقهي والتشريعي المُحدود، وفرّغت الساحة لتلعب (الخلافة) دورها في حياة الأمّة الإسلاميَّة إلى أن وصلت إلى مسلَّمة الفتح من بني أمية وبني العباس، وبقي أئمة أهل البيت (عليهم السلام) معزولون مقهورون إلى يومنا هذا.

كان المفروض أن يأخذ (نظام الإمامة) حقّه في الحياة إلى قيام الساعة، ويتولّى الإمام بعد الإمام قيادة الأمّة إلى سعادتها واستقرارها الدائم بالقضاء على جذور وقواعد الظلم، واجتثاث الفساد بما أوصى به النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث الغدير المتواتر والمشهور الذي ربط فيه بين القرآن والعترة الطاهرة المحصورة بذرية إبراهيم (عليه السلام) إذ قال: "إنّي تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما أن تمسكتم بهما، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّ اللطيف الخبير قد عهد إليّ أنّهما لن يفترقا حتى يرِدا عليَّ الحوض". ولو التزمت الأمّة الإسلاميَّة بالتمسك بهما لكانت أسعد الأمم، ولكانت قادرة على قيادة العالم وتحقيق العدالة المُطلقة في الأرض.

إلا أنّنا وجدنا الإمامة قد زويت بعد وفاة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) ولم تأخذ دورها في حياة الأمّة فكان التردّي والانحطاط نصيبها وقدرها الذي اختارته.

ومن حقنا أنْ نسأل فنقول: أليس الإسلام دين الله العظيم الذي خُتمت به الرسالات، ومحمد (ﷺ) خاتم الأنبياء ولا نبيَ بعده، وأنّ الإسلام قد تمّ وكمل على وفق ما قال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(١).

فهل استطاع نظام (الخلافة) أن يقدِّم للمجتمع الإسلامي – فضلا عن العالم – صورة عن العدالة الاجتماعيَّة والاقتصادية والسياسيَّة، وهل شعر المجتمع بالرفاه والاستقرار؟ أم أنّنا وجدنا التردي والتدهور يزداد يوما بعد يوم، فنرى الفترة من (١١هـ) إلى (١٣هـ) كانت فترة حروب موضعية باسم حروب الرِّدة في زمن الخليفة أبي بكر، ثمّ جاءت خلافة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣) وهي الفترة التي ميّز فيها بالعطاء بين المسلمين الأوائل وباقي المسلمين، وميّز بين العرب وغيرهم في صفوف الجماعة في الصلاة وغيرها، وانتهى الأمر بقتله، ثمّ جاء عام (٢٣هـ - ٣٥هـ) ليتولّى عثمان الخلافة ويقسِّم بيت المال على أرحامه وأقاربه، وجعل الدولة مقاطعات عائلية وانتهى الأمر بقتله.

ولنا أنْ نسأل أليست الشورى هي (الديمقراطية) التي تعتمد على الانتخاب، وتمنح المواطن حقّ الرأي والاعتراض وبناء المؤسسات

---

(١) المائدة/ ٣

وأمثال ذلك، فهل حصل هذا بعد عزل الإمامة؟ أم أنّ (الديمقراطية) بمعنى (الشورى) هي التي أنتجت حُكما استبداديا كحكم معاوية وآل سفيان وآل مروان، وبعد ذلك تحوّل إلى نظام وراثي كما حصل في حّكم بني العباس وآل عثمان، ثمّ تلاشت الدولة الإسلاميَّة، وتقسَّمت إلى دول وممالك تحكمها القوانين الوضعية والعلمانية المنافية للقرآن.

ثمّ جاء حُكم سيد المتقين عام (٣٥-٤٠ هـ) ليكون همّه إصلاح ما فسد، وإعادة الأمور إلى نصابها، ولاسيما عزل معاوية وأمثاله من مسلمة الفتح الذين اتخذوا عباد الله خولا وماله دولا. ثمّ انتهى المطاف بسيد المتقين ووصي رسول ربّ العالمين (ﷺ) شهيدا مضرَّجا بدمه في محراب عبادته. ثمّ جاء دور الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) وجاء معه معاوية بمكره وخداعه، وفتح خزائنه للمرتشين من معارضيه فكسبهم بالمال، أو الولايات والمناصب، أو دسّ لهم السمّ كما حدث للإمام الحسن (عليه السلام).

وبدأت بذلك دولة بني أمية وآل مروان واستمرت (٩١) عاما، وفيها قتلوا سيد الشهداء وريحانة الرسول الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه، ثمّ استباحوا المدينة فقتلوا وسلبوا وانتهكوا الأعراض وأخذوا البيعة منهم على أنّهم عبيد ليزيد بن معاوية، وبعدها قاموا بحرق الكعبة

المشرَّفة. ثمّ جاءت دولة بني العباس واستمرت (٥٢٤) عاما فحوَّلوا الخلافة إرثًا من الآباء إلى الأبناء، فكانوا على امتداد التاريخ يلهثون وراء الجواري والأموال وبناء القصور. ولا حاجة للإطالة فتاريخهم معروف.

وإذا كان بعضهم يعدّ الفتوحات الإسلاميَّة قد وسعت الدولة الإسلامية على أيديهم، وكبرت بذلك رقعة الإسلام، إلا أنّ الواقع أنّ الفتوحات كانت لكسب الأموال والجواري، وأكثر الدول التي دخلت الإسلام خرجت منه وعادت إلى دينها القديم وهكذا.

ثمّ جاءت الأسرة العثمانية التي حكمت باسم الإسلام واستمرت (٦٤٤) عاما، وهي كسابقاتها لم تقدِّم للإسلام شيئا يذكر، ولا منجزا متميزا، ثمّ سيطرت على العالم بعد ذلك فلسفات ماديَّة قسَّمته إلى شرق وغرب، وأهمّها الماركسية الشيوعية والاشتراكية التي استحوذت على الشرق، وقادها الاتحاد السوفيتي، واستحوذت الرأسمالية على أمريكا والغرب كلّه.

فأما الاتحاد السوفياتي فقد انهار وانتهت الشيوعية ولم تُحقق ما ادَّعته من المساواة وتحقيق العدالة الاجتماعيَّة والاقتصادية والسياسيَّة، بل تدهورتِ الأوضاع وفشلت الشيوعية، وتشتت الاتحاد السوفيتي وانتهى.

أما الغرب الرأسمالي فقد قسَّم المجتمع إلى طبقة فقيرة تمثل الأكثرية، وطبقة قليلة فاحشة الثراء، وها هي الدولة الرأسمالية الكبرى ترنح تحت وطأة الديون الفادحة، وفي أيِّ لحظة ستنهار الدولة العظمى وتنهار معها الدول المُتحالفة اقتصاديا. وسنشهد سقوط النظام الديمقراطي قريبا بإذن الله. ولا ننكر أنّ التقدُّم التكنولوجي والعلمي الذي حققته هذه الدول بسبب اتاحتها الفرص لذوي الكفاءات وتشجيعها على البحث المنتج في جميع المجالات، وما حققه ذلك من تطوّر في مجالات الصناعة والزراعة والطب ووسائل النقل وغيرها أحدث قفزة تطورية كبيرة إلا أنّ المردود البيئي السلبي الذي أخلَّ بنظام التوازن لحركة السُّحب والرياح والاحتباس الحراري والتلوث الاشعاعي والالكتروني بسبب استنزاف طاقة النفط والغاز، واستغلالها أبشع استغلال، أدلة على فشلها الحقيقي.

وفي الوقت الذي توافرت فيه وسائل الراحة والرفاه – ويعود الفضل في ذلك إلى التطور العلمي – فإنّها في الوقت نفسه أنتجت أسلحة الإبادة الشاملة مثل الأسلحة الذرية والمكروبية والكيميائية وأمثال ذلك حتى أصبح دمار أكثر الأرض متوقعا في أي لحظة، وإبادة الحرث والنسل متوقّف على خطأ بشري، أو على قرار سياسي خاطئ لتنطلق الصواريخ النووية لتهلك نصف البشريَّة وتنتهي بذلك حضارة الشرق والغرب.

من خلال ما تقدَّم نرى منطقيَّة وواقعيَّة الرواية الشريفة التي تقول: "لا يكون هذا الأمر حتّى يذهب ثلثا الناس، فقيل له: فإذا ذهب ثلثا الناس فما يبقى؟ فقال عليه السلام: أمَا ترضون أن تكونوا الثلث الباقي"[١].

وبقليل من التمعّن في كتاب الله المجيد نجد أنّ هذه الرؤية واضحة في جملة من الآيات التي تؤكِّد أنّ العاقبة للمُتقين وهم الذين سيرثون الأرض، ويبنون دولة العدل والحقّ، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ**﴾[٢]، أو قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾[٣].

والمنطقي دينيًا أنّ الأمّة التي تؤمن بالقرآن وهو الهدى والنور، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّ فيه تبيان كلّ شيء يجب أن ترقى به الامة جيلا بعد جيل في مسيرة تكاملية ممتدة إلى يوم القيامة مع العترة النبويَّة. فلماذا نعيش التردّي والانحطاط جيلا بعد آخر، ويوما بعد يوم، هل الخلل في المبدأ أم فينا؟

---

(١) كمال الدين/ ٦٥٥

(٢) الأنبياء/ ١٠٥

(٣) النور / ٥٥

لا شكّ ولا ريبَ أنّ الأمّة التي أجمعت على تمكين خطّ الخلافة، وعزل القرآن والعترة عن الحياة هي التي تتحمّل المسؤولية فيما حصل لها من نكسات ومصائب على الإسلام والمسلمين، وبحسب الضرورة القرآنية لابدّ أن يتمّ الله نوره ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[1].

ونور الله عزّ وجل هو الإسلام دين الله وشريعته المقدسة، وهو المنهج الحقّ المرتبط بخالق الكون والحياة القادر على إسعاد البشريَّة ﴿**لَوْ أَنَّ أهل الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[2].

وكما قال الإمام الصادق (عليه السلام): "أما والله ليدخلنَّ عليهم عدله جوف بيوتهم كما يدخل الحرّ القعر"[3] بمعنى أنّ العدل سيكون القاعدة الثابتة السائدة في الحياة.

ويصف لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) جوَّ السعادة والاستقرار والرَّخاء التي يعيشها الناس في ظلّ دولة المهدي (عليه السلام) وكيف تتكامل الأرض مع

(١) التوبة/ ٣٢

(٢) الأعراف/ ٩٦

(٣) غيبة النعماني ج١/ ٣٠٥

السماء في عطاء دائم ومستمر حتى يفيض الخير فيتمنّى الأحياء عودة الأموات ليروا السَّعادة والاستقرار والرفاه الاقتصادي، فعن أبي سعيد الخدري قال: "قال نبي الله – صلى الله عليه وآله – ينزل بأمّتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم لم يسمع بلاء أشدّ منه، حتى تضيق عنهم الأرض الرحبة، وحتى يملأ الأرض جورا وظلما، لا يجد المؤمن ملجأ يلتجئ إليه من الظلم، فيبعث الله –عز وجل– رجلا من عترتي، فيملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت ظلما وجورا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدخر الأرض من بذرها شيئا إلا أخرجته، ولا السماء من قطرها شيئا إلا صبَّته عليهم مدرارا، يعيش فيها سبع سنين أو ثمان أو تسع، تتمنّى الأحياء الأموات ممّا صنع الله – عز وجل – بأهل الأرض من خيره"[١] والحديث صحيح على شرط الشيخين.

وهكذا سيكون الحال حين يجتمع القرآن مع العترة في قيادة العالم، ويكون الإمام الحجّة (عليه السلام) على رأس الهرم القيادي المقدَّس المُسدد الذي سيُقيم دولة الإسلام وسيفرح المؤمنون بنصر الله عز وجل، نسأل الله عز وجل أن يعجِّل الفرج على يده المُباركة عاجلا غير آجل.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ح رقم ٣٤٨٨ ج٥/ ٦٥٩

وفي وقتنا الحاضر نرى الحضارات كيف تتهاوى وتسير نحو الهاوية ليس فقط بسبب فشل الفلسفات والاطروحات الماديَّة، وعجزها عن تقسيم الثروات بشكل عادل، أو تحقيق الأمن الغذائي والسلام المجتمعي، بل في تسببها في شيخوخة المُجتمع ونشر ثقافة المثلية التي انعكست آثارها السلبية فعلا في المجتمعات الغربية، التي ستودِّي إلى انهيار العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة، والتي هي أساس بناء الأسرة وحفظ النسل وتكاثره. علمًا أنّ انهيار كلّ حضارة – كما يقول علماء الاجتماع – يكون بقلّة الشباب – أي القوى العاملة – التي من دونها تنهار أقوى الدول والحضارات. هذا إذا لم تحدث حرب نووية شاملة تقضي على الأخضر واليابس وتدع الدول بلاقع.

وهكذا يكون من المنطقي أن تكون دولة الإمامة هي آخر الدول. قال الإمام الصادق (عليه السلام): "ما يكون هذا الأمر حتى لا يبقى صنف من الناس إلا قد وُلوا على الناس، حتى لا يقول قائل: إنّا لو وُلينا لعدلنا، ثمّ يقوم القائم بالحقّ والعدل"[١].

ويقول الباقر (عليه السلام): "دولتنا آخر الدول، ولم يبقَ أهل بيت لهم دولة إلا ملكوا قبلنا، لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا مَلكنا سرنا مثل سيرة

(١) غيبة الطوسي/ ٤٧٢

هؤلاء، وهو قول الله عز وجل: ﴿**والعاقبة للمتقين**﴾[١]. وقال الصادق(عليه السلام): "لكلّ أناس دولة يرقبونها، ودولتنا في آخر الدهر تظهر"[٢].

وبملاحظة الواقع ومراحل التاريخ نرى قُرب انتهاء تجارب البشريَّة في حُكم الإنسانيَّة، وانتهاء الفلسفات والاطروحات، ولم يبقَ من يدَّعي أنّ هناك فلسفة جاهزة للحُكم تحقق العدالة وتعالج مشاكل الإنسان المُستعصية. ولم تبقَ إلا أطروحة الإمامة، دولة القرآن والعترة بقيادة بقيّة الله الأعظم الإمام محمّد بن الإمام الحسن العسكري عليهما السلام.

كيف يتولى الإمام الإمامة:

هناك أنظمة تحكم العالم لها دساتير تُقنن كيفية انتخاب الحاكم، فأمّا الأنظمة الملكية فتعمل بنظام الوراثة، الواحد بعد الآخر بشرط أن يكون من الأسرة المالكة بصرف النظر عن أهليته وكفائته، فيكون الحاكم هو المتفرِّد بالحُكم يدير الأمور بحسب ما يُريد، وقد يعتمد على بعض المستشارين. وأمّا الأنظمة الجمهورية فأسلوبها معروف وهو اعتماد

---

(١) المصدر السابق

(٢) أمالي الصدوق ٣/ ٣٩٦

الانتخابات وما تفرزه أوراق الصناديق والنِّسب المطلوبة للفوز أو الفشل. ولا أهمية لكفاءة الفائز وقابلياته العلمية والمهنية فلا نجد في برامج الأحزاب من يسعى إلى تشكيل برلمان يتالف من الخبراء وأصحاب الخبرات من ذوي الاختصاص في مجالات الطب والصيدلة أو التنمية الزراعية، أو الصناعات والتكنولوجيا والالكترونية أو علم الطاقة والذرة إلى غير ذلك. وإنما المهم أن يأخذ الحزب الأصوات التي تجعل القرار الأول

وكلّ هؤلاء – عموما– يباشرون أعمالهم وحكمهم وادارتهم لدولهم على سبيل التجربة بحيث تكون احتمالات الفشل متساوية مع احتمالات النجاح، ويُصاحب ذلك أنواع من التردِّي والتدهور، أو النجاح في بعض الأحيان، والتجربة تثبت ذلك، بدليل الانقلابات المتوالية وسقوط الحكومات أو انهيارها، أو كثرة الاضطرابات والاحتجاجات.

فما هو السبب وما هي العلّة؟ والجواب أنّ هذه الحُكومات علاقتها بالأرض لا بالسماء، فهي تعتمد على نظريات مادیَّة تغضّ النظر عن القوانين والسنن الربّانيَّة التي تحكم الكون والحياة، وقوانين الفطرة: ﴿**وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾(١) وقوله تعالى :

---

(١) الجن ١٦

﴿وَلَوْ أَنَّ أهل الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

إنّ مذهب أهل البيت (عليهم السلام) يعتمد نظام الإمامة المُستند إلى قوله تعالى **﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**(٢)، وبحسب آية الإمامة يكون المرتكز الرئيس لمن ينَّصب إماما على الناس هو: (الجعل الإلهي) أي التنصيب المباشر للإمام، كما حصل لإبراهيم (عليه السلام)، ثمّ استمرت النبوّة والإمامة بعد وفاة إبراهيم (عليه السلام) في ذريته، إلى أن وصلت إلى نبينا الاكرم محمّد (صلى الله عليه وآله) وهو خاتم النبيين.

ولا يكون الإمام إماما الا بتعيين الله تعالى، أو بالنصّ من قبل الرسول، أو من قبل الإمام الذي قبله وهذا ما نعتقده في أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وتدعمه الأدلّة القاطعة التي تضمنها هذا الكتاب. وقد حدَّد رسول الله (صلى الله عليه وآله) خطَّ الإمامة في أهل بيته، فقال على وفق جاء في قضية المباهلة، إذ روى الرازي قائلا: "إنّ علياً عليه السلام لمّا خرج في المرط الأسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله، ثمّ جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله، ثمّ فاطمة ثمّ

(١) الأعراف ٩٦

(٢) البقرة / ١٢٤

علي ﵄، ثمّ قال: ﴿**إنَّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾، (الأحزاب / ٣٣)، وأعلم أن هذه الرواية كالمُتفق على صحّتها بين أهل التفسير والحديث"(١)، فأهل البيت همُ هؤلاء حصرا.

ثمّ جاءت النصوص المتواترة عنه (ﷺ) التي تؤكّد حصر مرجعية الأمّة في كتاب الله تعالى وأهل بيته الاطهار (عليهم السلام)، اذ ورد في صحيح مسلم عن زيد بن ارقم قال : "قام رسول الله (ﷺ) يومنا خطيبا بماءٍ يُدعى خمًّا بين مكة والمدينة، فحمد الله واثنى عليه ووعظ وذكر ثمّ قال: أمّا بعدُ ألا أيّها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربّي فأجيب، أنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورغّب فيه ثمّ قال: وأهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي..."(٢).

وروى الترمذي عن زيد أيضا قال: "قال رسول الله (ﷺ): إنّي تارك فيكم ما إنْ تمسَّكتم به لن تظلّوا بعدي، احدهما اعظم من الآخر، كتاب

---

(١) تفسير الرازي ج٨/ ٨٥

(٢) صحيح مسلم ج٧/ ١٢٣، دار الفكر، بيروت

الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فأنظروا كيف تخلفوني فيهما"(١).

هذه النصوص رسّخت نظام الإمامة وتسلسلها في عليّ وأولاده عليهم السلام، بعد آية الإمامة الابراهيمية. وهي نصّ بيّنٌ لمن شرح الله قلبه؛ لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) حدَّد وشخَّص أهل بيته في قضية المباهلة، ثمّ قرنهم بكتاب الله عز وجل فجعلهما المرجع الوحيد للإسلام والمسلمين.

وهذه الاحاديث ليست من (مكذوبات الشيعة) في القرن الثالث الهجري وما بعده – على وفق ما يدَّعي بعضهم، بل هي من ما يُسمّى بصحاح أهل السُّنة، وهي متوافقة مع عقيدة أهل البيت (عليهم السلام) في الإمامة.

وبحسب الأحاديث المتقدِّمة فإنّ الإمامة تبدأ بعليّ (عليه السلام)؛ لأنّه أفضل ذرية إبراهيم (عليه السلام)، ومن ثمّ الإمام الحسن (عليه السلام)، ثمّ الإمام الحسين (عليه السلام)، والأحاديث المتقدِّمة لا تقبل إلا هذا التقسيم فيكون الإمام الحسين (عليه السلام) هو الذي تتسلسل منه الإمامة بحسب ما أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(١) سنن الترمذي ج٥/ ٣٢٩، طبع دار الفكر، بيروت

أما لماذا لا تكون الإمامة في ذرية الإمام الحسن (عليه السلام) فلأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) أفضل من أولاد الحسن (عليه السلام) ولا يكون المفضول مقدَّما على الفاضل بحُكم العقل؛ والإمام تتحقق إمامته بأحد امرين:

الأول: النصّ الثابت القطعي الذي يبدأ من آية الإمامة الإبراهيمية، واعني الجعل الإلهي المباشر، الذي وصل إلى نبينا الاكرم محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويكون للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الحقّ في النصّ على من يشاء ممن ارتضاهم الله تعالى من ذرية إبراهيم ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

والشيعة يعتقدون أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد نصّ على الأئمة الاثني عشر سلام الله عليهم من طرقهم الصحيحة، إذ يروون سُنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرة عن عليّ (عليه السلام) ثمّ الحسن والحسين وعلي بن الحسين إلى المهدي المنتظر (عليه السلام)، ومن بعض الصحابة الذين شهد لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالوثاقة، أو التابعين ممّن ثبتت وثاقته وصدقه.

أما عدم ورود أسماء الأئمة في كُتب أهل السُّنة وصحاحهم فلا يعنينا ولا يهمنا؛ لأنّنا نتمسَّك بأهمّ الطرق المتصلة بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أهل البيت الذين في ابياتهم نزل الكتاب، وهم معدن العلم والوحي، يتوارثون العلم والحكمة عن رسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

الثاني: تأييد شخص المعصوم بالآيات والمُعجزات التي تثبت إمامته ووراثته لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

والإمام المعصوم في عقيدتنا بمنزلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من دون وحي، فله الحقّ في التشريع والحكم، ولابدّ أن يؤيّده الله بما يثبت إمامته كلّما اقتضت الحاجة، وعليك مراجعة كتاب (إثبات الهداة) للحرّ العاملي رضوان الله عليه لمعرفة كثير من الآيات والمُعجزات التي حصلت لهم.

ثمّ إنّ اوصياء الأنبياء على وفق ظاهر الكتاب الكريم يخصّهم الله تعالى بعلوم ومعارف خارقة تؤكِّد حجتهم، منها قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إليك طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فإن رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾[1]، وهو آصف بن برخيا وصي سليمان (عليه السلام) الذي عنده علم (من) الكتاب، وهذا (الكتاب) ليس القرآن الذي نزل على نبينا محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) كما هو واضح بل هو كتاب يؤيِّد به الله تعالى أنبيائه وأوصيائه فيه من العلوم والأسرار المُعجزة، وهو الكتاب الذي يتوارثه الأوصياء إلى قيام الساعة، وآخرهم

(١) النمل/ ٤٠

الإمام المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وقد بيّنتّ ذلك في موضوع (معرفة الإمام لجميع العلوم).

وعلى وفق ما قلنا سابقا إنّ الإمامة عُزلت عن دور الحاكمية بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لذلك لم يهتم الائمة بشيء غير إثبات إمامتهم للخواص من اصحابهم، أو غيرهم ممّن تقتضي الضرورة ذلك، واكتفوا بالمرجعية الفقهية والعلميَّة لتثقيف الأمّة وهدايتها، والحفاظ على خطّ (الإمامة) إلى أن يصل إلى الإمام المهدي محمّد بن الحسن العسكري عليه السلام .

وفي هذا الضوء فإنّ الإمامة ممّا اختصّ الله بها نفسه (إني جاعلك للناس إماما)، فلا يحقّ لأحدٍ أن يعترض على ما قضاه المولى عز وجل. وهي مثل النبوّة من هذه الناحية. وقد يعترض بعضهم على صغر سنّ عدد من الائمة نحو الإمام الجواد والإمام المهدي، ويقول كيف يمكن أن يكون هؤلاء أئمة وهم لم يدرسوا أو يتعلَّموا!، وهذا الاعتراض يرد على الأنبياء كذلك من ناحية اختيارهم وعلومهم وأعمارهم.

ومن الناحية الواقعة فإّن المؤمن الحقيقي بالله ورسوله وكتابه لا يعترض على ذلك بعد الإيمان بأنّ الله تعالى حكيم، يقدِّر الأمور ويُجريها بحسب المصلحة التي قدَّرها، يقول عز وجل: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١)، فهذا الحقّ لله وحده، ولاسيما أنّه تعالى يتعبد عباده بأشياء لا نعرف لها حكمة، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**﴾(٢)، فما فائدة التكليف بعدم شرب الماء إلا التعبُّد والإذعان لله سبحانه.

وذكر القرآن يحيى (عليه السلام) بقوله: ﴿**يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾(٣)، وذكر عيسى (عليه السلام) بقوله: ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾(٤)، فمن كان يُؤمن بالله ورسوله وكتابه لا يتردد في الإيمان بيحيى وعيسى على الرغم من غرابة الحدث المُخالف لطبيعة العُرف، وهذا هو التعبّد المطلوب قرآنيا الذي يتحقق به الإذعان.

ولا يمكن التفريق بين النبوّة والإمامة؛ لأنّ النبوّة اصطفاء من الله تعالى والإمام جعل منه سبحانه بحسب آية الإمامة وليس لأحد فيها اختيار آخر، ولا مجال للمؤمنين إلا التصديق والإيمان واليقين؛ لذا لا

---

(١) القصص/ ٦٨

(٢) البقرة/ ٢٤٩

(٣) مريم/ ١٢

(٤) مريم / ٢٩-٣٠

معنى للاعتراض على عُمر الإمام المهدي (عليه السلام) وعدّه صغيرا لا يصلح للإمامة؛ لأنّ التعبُّد هو السبيل الوحيد للإيمان بهذه القضية وامثالها، ولاسيما أنّ العُمر بالنسبة إلى الإمام (المجعول) لا قيمة له بعد أن اختاره الله ونصبه.

وقد يُقال أنّ الصبي الصغير لا يكون مؤهَّلا للقيام بدور الإمام ووظائف الإمامة من ناحية العلم والمعرفة وتجارب الحياة، وتنفيذ مُهمة إصلاح العالم وتغييره جذريا. وهذ الاعتراض لا يقلّ وَهْنًا عن سابقه، وهو يعبّر عن جهل القائل بسنن الله تعالى مع أنبيائه ورسله وحججه، ويحاول أن يعبّر عن عجزه في تحصيل العلم والمعرفة ويحصرها بوسائل التحصيل والمعرفة المتداولة، وهي وسيلة الجاهل إلى المعرفة، فإذا ما وصل إلى تحصيل علم من العلوم صار عالمًا في بعضه، ويبقى جاهلا في العلوم الأخرى وهكذا، وبالنتيجة يبقى العلم والجهل يتماشيان معه إلى نهاية الحياة.

أما الأنبياء والأئمة فإنّ علومهم لدنية من قبل الله عز وجل عالم السرّ واخفى، قال تعالى عن طالوت: ﴿**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ**﴾[1]، وقال عن الخضر: ﴿**فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ**

(١) البقرة/ ٢٤٧

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[١]، وأمر نبيّه الأكرم أن يقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢]، والقرآن حافل بنماذج ممّا ذكرنا وهي تدلّ على أنّ من يختاره الله أو يجتبيه من الأنبياء والائمة يتكفّل بتربيتهم وتعليمهم لعلوم الدين والدُّنيا من دون اعتبار للعمر.

ممّا تقدَّم عرفنا طرق انتقال الإمامة من إمام إلى إمام آخر، واكّدنا أنّ الإمام مجعول من الله تعالى وليس لأحد حقّ التعيين إلا من قبل الإمام الذي قبله وهو بطبيعة الحال مخوّل بذلك، وبالنسبة إلى الإمام المهدي عليه السلام نجد عناية خاصَّة وطريقة جديدة تتناسب مع وضعه الخاص المُتمثل بملاحقة السلطة له قبل مولده، وعدم علم عموم الناس بمولده، وهو ما يقتضيه مفهوم الغيبة، وهو ما وقع لموسى (عليه السلام)، ولعلّ هذا وجه الشبه بينهما. فماذا فعل الإمام العسكري صلوات الله وسلامه عليه ليحقق الغرض على اكمل وجه؟

قام (عليه السلام) بتوثيق الشيخ عثمان بن سعيد وابنه محمّد أشدّ التوثيق وأتمه من جميع الجهات، ولا نكاد نجد توثيقا لأحد بهذه القوة. وبتتبع الروايات في كتاب (الغيبة) للطوسي رحمه الله فيما يتعلّق بهذا الموضوع نجد ما يأتي:

---

(١) الكهف/ ٦٥

(٢) طه/ ١١٤

١- إنّ (عثمان بن سعيد عمري) جعله الإمام العسكري (عليه السلام) مُحورا لإثبات ولادة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ووراثته لأبيه (عليه السلام) وهو (رحمه الله) ممّن شاهد الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ورآه.

٢- حصل الشيخ العمري (رحمه الله) على توثيقين في غاية القوة، الأول من الإمام الهادي عليه السلام، والثاني من الإمام العسكري (عليه السلام)، وهذا يكشف عن أهمية دور الشيخ العمري (رحمه الله) في تأكيد إمامة المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) وإعطاء شهادة تاريخيَّة تثبت ولادته ورؤيته (عليه السلام) على وفق ما سيأتي.

لذلك ركّز أعداء الإمامة والإمام (عليه السلام)على النواب الأربعة بالقدح والذّم، وفرضهم محتالين مختلسين للأموال؛ لأنّهم يعلمون أنّ النواب الأربعة، ولاسيما الشيخ العمري (رحمه الله) هو الذي جعله الإمام العسكري(عليه السلام) الشاهد الثقة العدل الذي رأى الإمام المهدي (عليه السلام)، وبشهادته تمّت معرفة الشيعة للإمام (عليه السلام) والتصديق بولادته.

فأعداء الإمامة والإمام (عليه السلام) ركزوا على هذه النقطة بأمل التشكيك فيهم وفي وثاقتهم ليحدثوا ثغرة كبيرة في تسلل حركة تاريخ الإمامة بعد الإمام العسكري (عليه السلام)، إلا أنّ هؤلاء لم يقدِّموا دليلا واحدا يقدح بهم ولا بنيابتهم، وكلّ ما عندهم من حجج هو عبارة عن (افتراضهم) مُحتالين وتجار ثروة وأمثال ذلك من الاتهامات والاباطيل.

٣- إنّ ما نسمّيه بـ (التوقيع) الشريف ليس توكيلا بالمعنى المعروف وإنّما هو توثيق بمستوى رفيع جدًّا، ففيه عبارات من مثل (الثقة المأمون) و(فما أدّى إليك فعنّي يؤدّي)، والأمر بالأخذ بقوله (وما قال لك فعنّي يقول)، والأمر بطاعته: (فاسمع له واطع)، فجعل الإمام (عليه السلام) الشيخ العمري كأنّه نفسه. وحينئذ تكون طاعته والأخذ منه طاعة للإمام المعصوم (عليه السلام) مباشرة، ومعصيته معصية للإمام (عليه السلام).

٤- ليس في التوقيع أيُّ إشارة إلى الخُمس والحقوق الشرعيَّة والأموال وما شابه ذلك، فمن يدَّعي أنّ الشيخ العمري كان يلهث وراء المال، عليه أن يقدِّم لنا ما يثبت مدّعاه، والكلام نفسه يجري بالنسبة إلى النواب الأربعة.

٥- نلحظ أنّ هذا التوقيع الرفيع، وبالقوة نفسها صدر بحقّ النائب الثاني (محمّد بن عثمان العمري) حتى تتمّ مُهمة مواصلة إمامة الإمام المهدي (عليه السلام) وترسيخها في قلوب الشيعة.

كذلك القول بالنسبة إلى النواب الباقيين الحسين بن روح، وعلي بن محمّد السمري رضوان الله عليهم.

أمّا ما ذكره الشيخ الطوسي قدّس سرّه فهذا نصه: "وأخبرنا جماعة عن أبي القاسم جعفر بن محمّد بن قوليه، وأبي غالب الرازي وأبي محمّد

التلعكبري، كلهم عن محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله تعالى، عن محمّد بن عبد الله ومحمد بن يحيى، عن عبد الله بن جعفر الحميري[١] قال:

"اجتمعتُ أنا والشيخ أبو عمرو عند أحمد بن إسحاق بن سعد الاشعري القمي، فغمزني أحمد بن إسحاق أنْ أسأله عن الخلف. فقلتُ له: يا أبا عمرو إنّي أريد أن أسألك عن شيء وما أنا بشاك فيما أريد أن اسألك عنه، فإن اعتقادي وديني أن الأرض لا تخلو من حجّة الا إذا كان قبل يوم القيامة بأربعين يوم فإذا كان ذلك وقعت الحجّة وغلق باب التوبة (فلم يكن ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا)، فأولئك أشرار من خلق الله عزّ وجلّ، وهم الذي تقوم عليهم القيامة، ولكن أحببت أن أزداد يقينًا، فإنّ إبراهيم (عليه السلام) سأل ربَّه عزّ وجلّ أن يريه كيف يُحيى الموتى فقال: ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾، وقد اخبرني أحمد بن إسحاق عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: سألته فقلتُ: لمن اعامل؟ وعمّن آخذ وقول من اقبل؟، فقال: العمري ثقتي، فما أدّى إليك عنّي فعنّي يؤدّي، وما قال لك عنّي فعنّي يقول، فأسمع له واطع، فإنّه الثقة المأمون.

(١) هؤلاء جميعا ثقات، بل في اعلى درجات الوثاقة

قال: واخبرني أبو علي أنّه سأل أبا محمّد الحسن بن علي (عليه السلام) — عن مثل ذلك فقال له: العمري وابنه ثقتان، فما أدّيا إليك فعنّي يؤدّيان وما قالا لك فعنّي يقولان، فاسمع لهما واطعهما فإنّهما الثقتان المأمونان فهذا قول إمامين قد مضيا فيك. قال: فخرَّ أبو عمرو ساجدا وبكى، ثمّ قال: سل حاجتك فقلت له: أنت رأيت الخلف من أبي محمّد (عليه السلام)، فقال: أي والله ورقبته مثل ذا وأومأ بيده. فقلت له: فبقيت واحدة، فقال لي: هات، قلت فالاسم؟، قال: محرّم عليكم أن تسألوا عن ذلك ولا أقول هذا من عندي، وليس لي أن أحلِّل واحرِّم، ولكن عنه (عليه السلام) فإنّ الأمر عند السلطان أنّ أبا محمّد عليه السلام مضى ولم يخلف ولدا، وقسَّم ميراثه وأخذه من لا حقّ له، وصبر على ذلك، وهو ذا عياله يجولون وليس احد يجسر أن يتعرَّف إليهم أو ينيلهم شيء، وإذا وقع الاسم وقع الطلب، فاتقوا الله وامسكوا عن ذلك"(١).

إنّ هذه الرواية من أصحّ واوثق الروايات، فضلا عن أنّ الرواة من أوثق الرواة، واعظمهم مكانة وشأنا، وهي من حيث الدلالة في غاية الوضوح في إثبات ولادة الإمام المهدي (عليه السلام) وإمامته ووراثته لأبيه الإمام العسكري (عليه السلام)، وهي من اهمّ الأدلة على إثبات ذلك بإجماع علماء وفقهاء الشيعة من عصر الغيبة والى يومنا هذا.

---

(١) الغيبة للشيخ الطوسي، ج١/ ٣٨٢

وهكذا يتبيّن لنا ببساطة ووضوح كيف تنتقل الإمامة من إمام إلى آخر عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، وأنّ الإمام المهدي (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) تمّ تنصيبه على النسق نفسه مع ملاحظة أنّ دوره سيكون دور الوارث لتحقيق وعد الله تعالى بإصلاح الأرض.

لماذا لا يتدخل الإمام لحلّ مشاكل العالم؟

من الشُّبهات التي يتذرّع بها بعضهم هي أنّه لو كان الإمام موجودا فلماذا لا يتدخَّل لحلّ مشاكل العالم المستعصية، ولا أقل مشاكل الشيعة الذين يكنون له عظيم الحبّ والمودة، ولماذا يتركهم عرضة للظلم والاضطهاد والفقر والحرمان؟

هذه الشبهة قد يتأثر بها من عقيدته ضعيفة بالإمام والإمامة، أو من لا يعرف السنن القرآنية فيذهب مذهب الشكّ أو الانكار لوجوده (عليه السلام).

إنّ أهم ما يجب أن يتحلّى به المؤمن هو الثقافة الدينيَّة والعقائديَّة التي تحصنه من الوقوع في الانحراف، ولاسيما في الجانب العقائدي. وإنّ أهمّ أساس للنجاة من الانحراف هو القرآن الكريم، وبعده التمسك بثقافة النبي وأهل بيته(عليهم السلام). أمّا القرآن فقد بيّن السنن الربّانيَّة التي تحكم الفرد والمجتمع، وأوضح علل كلّ ما يقع على البشريَّة من شرور ونكبات وظلم،

وعزى ذلك إلى الإنسان نفسه؛ لأنّه هو الذي يتخلّى عن الله ورسالاته ويلجأ إلى المادة، والنظم العلمانية الكافرة التي أفرزت له كثيرا من المشاكل.

والحقيقة أنّ هذا الموضوع يحتاج إلى كتاب مستقل نركز فيه على أبعاد هذا الموضوع، وندرس جذوره القرآنية، وكذلك ما ورد عن النبي وأهل بيته (عليه السلام) لنتعرَّف على سنن الله تعالى فيما يتعرَّض له الإنسان أو المجتمع في الحياة، ولكن بشكل سريع وموجز نشير إلى أهمّ ما يتعلّق بدور الإمام المهدي (عليه السلام) في عصر الغيبة فنقول:

أولاً: ذكرنا في هذا الكتاب أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) ذكروا أنّ الإمام الثاني عشر له غيبة وحيرة، وأنّ التكليف الشرعي هو الإيمان به، وأنّه حيّ يرزق، ينتظر الإذن بالظهور متى ما شاء الله عز وجل. وهذا من أهم مصاديق الإيمان بالغيب، الذي هو قاعدة أساسية من قواعد العقيدة الإسلاميَّة.

ولعلّ هذا الإيمان والانتظار ليومه المبارك هو ما يُسمّى بـ (الاختبار أو الابتلاء) ليقيم المؤمن إيمانه بالغيب، وقلبه بالتصديق، ويكون انتظاره ليومه أفضل أنواع (الصبر) الذي لم يذكر الله تعالى له نوع الجزاء والثواب، بل جعله كما قال: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[1] مفتوحا متواليا لا ينقطع.

---

(١) الزمر/ ١٠

فهل هناك عبادة بلا تعب بدني، تستوعب عمر المؤمن، ثمّ تضعه في درجة الصابرين مثل عبادة الانتظار؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "أفضل أعمال أمّتي انتظار فرج الله عز وجل"(١). وقال الإمام علي (عليه السلام): "أفضل عبادة المؤمن انتظار فرج الله"(٢). وأمثالهما كثير.

فإذا كان تكليف الإمام (عليه السلام) (الغيبة) وتكليفنا (الانتظار) فكيف نتوقّع منه حلّ مشاكل العالم؟، ولماذا نفرض عليه الالتزام بوجوب التدخّل لإصلاح ما فسد قبل أن يمكِّنه الله تعالى ظاهرا مكينا عزيزا في دولته وسلطانه؟ نعم لو كان ظاهراً مكينا يرد هذا الاشكال، أما الآن فلا يحق لنا أن نتوقع هذا.

ثانيا: يجب أن نبحث عن أسباب وقوع الفتن والكوارث والمصائب هل هي من عند الله تعالى، أم هي بسبب عصيان الناس وذنوبهم ومخالفتهم لسنن الله عزّ وجلّ؟.

إنّ هناك قوانين وأسس بينها القرآن يجب ملاحظتها عند دراسة حالات الابتلاء ووقوع المصائب:

منها: أنّ الله عزّ وجلّ ضمن لمن تمسَّك بدينه العظيم الاستقرار والرخاء والامن والحياة الهانئة، فقال سبحانه: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ**

(١) البحار ج٥٢/ ١٢٢

(٢) المحاسن ١/ ٤٥٣

أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١). وقال: **﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾**(٢). وقال: **﴿وَلَوْ أَنَّ أهل الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**(٣).

وغيرها من الآيات المباركة التي أناطت السلامة، سواء للفرد أو المجتمع، والاستقرار النفسي والمادي، والرخاء والثراء بالتمسك بدينه، والعمل بما جاء من أحكام وشرائع، وهي كلّها تنصبّ على التحصّن من ظلم الإنسان لنفسه أو الآخرين، فإنّ أعظم أسباب نزول البلاء (الظلم) مهما كان، وفي أيِّ مجال كان سواء في الحكم والحكومات أم في القضاء، أم التجارات والمعاملات، أم الاسرة والأولاد، أم الطبيعة وعالم النبات والحيوان.

وكلنا نشهد اليوم آثار ظلم الإنسان لبيئته وما سبب من أمطار مُدِّمرة تشكِّل الفيضان فتُغرق المدن والمحاصيل الزراعية، ما أدّى إلى ارتفاع الأسعار والغلاء، وفي النهاية التأثير السيء في حياة اكثر الناس بما سبب من فقر وحرمان.

---

(١) النحل ٩٧

(٢) الجن ١٦

(٣) الأعراف ٩٦

أما الظلم السياسي فهو كارثة الكوارث؛ لأنه يسهم في توريط الناس في ظلم فاحش وخطير، إذ نرى الأنظمة والكيانات السياسيَّة في الدول الإسلاميَّة تدعو الشعوب إلى انتخاب (الدستور) الذي تعِدُ فيه بالحرية والعدالة واحترام حقوق الإنسان والمساواة وامثال ذلك، وتستمِّد موادَّه من الفلسفات العلمانية الماديَّة – أي من وضع البشر – وليس استنادا إلى كتاب الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم).

والدستور يكرس السلطة لذوي الشأن، وأهل الطغيان، وحبّ السيطرة، بل يفسِّره بما يخدم مصالح الأقلية الحاكمة والمتنفذة. ثمّ تساق الأمم إلى التصويت طوعا وكرها ليكسب النظام مشروعية ظاهرية ويبني عليه ما يشاء من قوانين وتشريعات، ومنها النظام القضائي الذي يبتني على مبادئ وأعراف الغرب، فينتهك بذلك مبادئ القرآن ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[(١)]، ثمّ تألف الناس هذا الوضع وتنسجم معه كما قال (صلى الله عليه وآله وسلم): (.. قال نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، قيل: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر

(١) المائدة/ ٤٤

معروف)[١]. هذا هو واقعنا وحالنا اليوم بعد أن فرضت العلمانية نفسها على واقعنا الحياتي، تارة باسم الاشتراكية والمساواة، وأخرى باسم الديمقراطية وحرية الرأي وحقوق الإنسان، وامثال ذلك من العناوين البراقة.

ثمّ بالتدريج يصبح هذا الأمر واقعا مألوفا وتنشأ الأجيال عليه، وهي تمارس الظلم من حيث لا تشعر فتتراكم المشاكل وتتعاظم، ويشعر الجميع بخطرها وقسوتها والخوف منها، ولعلّ الأمثلة في حياتنا المعاصرة لا تعدُّ ولا تُحصى، فمثلا: دخل العراق في حربين شرستين، مرة مع ايران وأخرى لتحرير الكويت خسر فيها الشعب العراقي مئات الآلاف من رجاله، ضحايا بلا مردود ولا فائدة، بل دمار وخراب وفقر، ويتم وترمل. من سبب هذا؟

هل أنّ الله عزّ وجلّ فعل ذلك، أم الذين صفقوا وازروا ودعموا الحاكم بالتأييد والمساندة فورطهم بالظلم طمعا ورهبا. وهناك قاعدة عامَّة أنّ كلّ امّة تبتعد عن دين الله الحقّ، فإنّ الله يوكلها إلى نفسها، ويجعلها هي وقدرها ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[٢].

---

(١) قرب الاسناد، ج١/ ٥٤

(٢) طه/ ١٢٤

وبما أنّ الإنسان لا يعرف عواقب عمله هل سيكون مثمرا ومفيدا أم سيتحول إلى كارثة؟، فسوف يقع في المشاكل والمهالك، وهذا هو الذي يحكم واقع الأمم والشعوب، لأنّنا وكلنا امورنا إلى انفسنا لا إلى ديننا. وقد يقول بعضهم نحن لم نشارك في خلق المشاكل والأزمات، أو اضطهاد الشعوب والأمم، ولم نسهم في بناء قواعد الظلم والطغيان، فلماذا نصاب بذنوب غيرنا واعمالهم؟

ويجيب القرآن بأنّ المسؤولية كما هي فردية كذلك هي جماعية، فلا يحمل أحدهما المسؤولية على الآخر يقول عزّ وجلّ: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾(١)، إذ أمر الله تعالى المؤمنين أن لا يقرّوا الظلم والمنكر بين ظهرانيهم فيعمهم العذاب. قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾(٢).

وبعد كلّ ذلك يحمّل بعضهم الإمام المهدي (عليه السلام) المسؤولية في عدم تدخله لحلّ مشاكل الناس، وانقاذهم من الظلم والطغيان، والأزمات

(١) الانفال/ ٢٥

(٢) النحل/ ١١٢

الاقتصادية والبيئية وامثال ذلك، وكأنّ واجبه أن يُصلح ما كُنّا نحن سبب افساده. ولو تدخَّل (عليه السلام) واصلح لنسبنا ذلك (للقائد الضرورة) أو (للنظام) الذي يحكمنا.

وعلى كلّ حال فإنّ غاية هؤلاء التذرّع بكلّ شيء لإنكار وجوده المقدَّس، الا أنّ أهل البيت (عليهم السلام) أخبروا بأنّ له دولة يُصلح فيها كلّ شيء، ويُحيى الأرض بعد موتها، ولكن لم يحن وقتها، وستأتي في أيِّ لحظة شاء الله عزّ وجلّ.

ومن الظلم الفاحش الذي ينزل البلاء والعذاب، الظلم الاجتماعي، والأعراف التي لا تستند إلى شريعة محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، في الحُكم أو التعامل مع مختلف القضايا والمواضيع، ومن ذلك الظلم إجبار البنت على الزواج ممّن لا ترغب فيه من اقاربها من جهة الأب أو الأمّ، وإنْ رفضت فسوف تُتهم بعلاقة غير شرعيَّة مع (مجهول)، وسيكلفها ذلك حياتها.

ومن ذلك تقسيم الإرث، وحرمان (القُصَّر) من الأبناء من حقّهم الشرعي الذي فرضه الله تعالى لهم، فضلا عن أنّ أكل أموال اليتامى في مجتمعنا ظاهرة شائعة ومؤسفة، والمؤسف أكثر أن لا احد يقف بوجه هذا الظلم الفاحش. والمؤسف اكثر أنّ (الظالم) من أي نوع وشكل نراه معزَّزا مكرَّما، ويحظى بالاحترام والتبجيل.

ونرى التمييز الطبقي بحسب العنوان الوظيفي، لا الجهد البشري وصعوبة العمل. فقد يأخذ موظف خمسين ضعف عامل النظافة، لا للشيء إلا لأنّ عنوانه الوظيفي يتيح له ذلك بحسب (القانون)، والمفروض أنّ (القانون) يجب أن يُقيِّم العمل والجهد بحسب ما يبذل كلّ منهما فيه، لا أن يقسِّم الثروة لصالح طبقة من دون أخرى بحسب العنوان الوظيفي. فهل عدالة السماء تقبل ذلك؟

إنّ كلّ ما يجرى يدخل في نطاق سنة الله **﴿فكلا أخذنا بذنبه﴾**[١]، وقوله: **﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[٢]. ويقول الإمام الصادق (عليه السلام): (من يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت بالآجال)[٣]، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (وأيمُّ الله ما كان قوم قطّ في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها، لأنّ الله تعالى ليس بظلام للعبيد)[٤].

هذه بعض الإشارات للسنن الربّانيَّة، وهي كثيرة محورها ظلم الإنسان لربّه، أو لنفسه وغيره من الناس، أو باقي المخلوقات، وهي واقعة

(١) العنكبوت/ ٤٠

(٢) البقرة/ ٥٢

(٣) ميزان الحكمة، ج٣/ ٣٨١

(٤) بحار الأنوار ٧٠/ ٢٦٤

لا محالة، وعليه فهل يجب على الإمام الحجّة (عليه السلام) أن يتدخّل لينصر الظالم ويسدد خطاه، أم على المظلوم أن يتمعّن في قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغير بقوم حتى يغيروا من أنفسهم**﴾(١).

ويقينا لو أنّ الإمام (عليه السلام) تدخّل لإصلاح الأوضاع الفاسدة فعلا، فأرجع الحقوق إلى أهلها، وحذف الامتيازات التي يتمتّع بها أصحاب النفوذ والسلطان – وعلم الناس يقينا – أنّ هذا الإصلاح من فعل الإمام – قبل ظهوره- لسمعنا كثيرا من الناس إذا سمعوا اسم الإمام (عليه السلام) يُذكر في محفل أو اجتماع لرفعوا أصواتهم بدل التعجيل بالفرج وقالوا :(لا عجل الله فرجه و لا سهل مخرجه)؛ لأنّ راية الإمام راية الحقّ والعدالة، وستكون كما قال عز وجل: ﴿**لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾(٢)، وعلى وفق ما قال سيد المتقين علي (عليه السلام) بعد أن مارس تجربة العدالة إبّان حكمه: (إنّ قول الحقِّ لم يدع لي صديقا)(٣).

لذا لا يجب أن نتوقّع منه إصلاح الأمور، وتحقيق العدالة؛ لأنّه(عليه السلام) لم يلتزم لنا بذلك في غيبته، وإنما سيفعل ذلك في دولته وسلطانه.

---

(١) الرعد/ ١١

(٢) الزخرف/ ٧٨

(٣) بحار الأنوار ج٥١/ ٢٥١

ويجب على المؤمن أن يكون واضحا لديه بأنّ معظم المشاكل والكوارث التي تقع وتسبب دمارا كبيرا، وقد تصيب أثارها وأضرارها الأبرياء لم تكن بأمر الإمام (عليه السلام) وإنّما قد تكون بسبب (الظلم) الذي لا يتصدّى احد لردعه، أو أخطاء الإنسان وسوء تصرفه، والأمثلة في حياتنا أو تاريخنا لا تعدّ ولا تُحصى؛ لذلك لا ينبغي أن نحمِّل الإمام (عليه السلام) مسؤولية عدم تدخله لحلّ المشاكل التي اجترحناها ولم يأمرنا بفعلها، في حين أنّه (عليه السلام) لم يلزمنا بشيء يفرض عليه أن يتدخل لحلها.

نسأل الله عزّ وجلّ تعجيل فرجه، وتحقيق دولته وسلطانه ويرزقنا به دولة كريمة يعزّ الله تعالى بها الإسلام وأهله، ويخذل بها الكفر وأهله إنّه سميع مجيب.

تم بحمد الله تعالى

هذا الكتاب :

أن طبيعة دور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف والظروف التي أقتضت خفاء ولادته وطول غيبته أفرزت الكثير من الشكوك والشُبهات التي تحتاج إلى مُعالجة جادّة .

حاولتُ في هذا الكتاب أن أناقش بموضوعية أهم الشُبهات ، ومنها هل ان للامامة أصل قُرآني يقيني لا يمكن فصله عن أصول الدين الأخرى أم لا ؟

أضافة إلى شُبهات تتعلق بأسباب الغيبة وعلامات الظهور ، والدليل التاريخي على وجود الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف بل هل يصح الأستدلال به في هذا الموضوع وأمثال ذلك ، وانتهجت في بحثي الموضوعية وبساطة الطرح والوضوح جُهد الإمكان ولله الحمد أولاً وآخراً .